# أرامكو تختتم برنامج مسابقة (اقرأ) بفائزين من جميع أنحاء المملكة

أقام مركز الملك عبدالعزيز الثقافي العالمي التابع لأرامكو السعودية، مساء الأحد 19 ذي القعدة لعام 1435هـ الموافق 14 أيلول/سبتمبر لعام 2014م، الحفل الختامي لبرنامج مسابقة (اقرأ) لموسم هذا العام، الذي امتد عدة أشهر، وهو برنامج يتكوّن من سلسلة مسابقات ثقافية وفعاليات مبتكرة، تحتفي بالقراءة، وتُنمي مسيرة الشغف بعوالم الكتاب، وذلك ضمن مجموعة برامج مبادرة إثراء الشباب التي أطلقتها أرامكو السعودية قبل عامين، وتستهدف مليوني شاب وشابة في المملكة.

وتضمن الحفل الختامي لبرنامج المسابقة كذلك تتويج الفائز في مسابقة (قارئ الجمال)، وهي منافسة التصوير الفوتوغرافي المتمحورة حول جمال القراءة والتعبير عنها بالصور، حيث فاز فيها المتسابق، عبدالعزيز البقشي.



صورة جماعية للفائزين والفائزات في مسابقة اقرأ مع الأستاذ خالد الفالح، والمدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية، الأستاذ ناصر النفيسي في الوسط.

كما شهد الحفل الختامي تقديم العرض الأول من فلم بعنوان (فلم المرايا) المستلهم من (كتاب الرمال)، وتدور قصة الفلم في عالم ما بعد انقراض الكتب الورقية حول (قلم)، من يحوزه يكتب سطراً يدوم في الذاكرة البشرية، ويمثل فيه الممثل العالمي (إريك روبرتز)، والشاب السعودي تركي الجلال، وهو من إخراج المخرج المعروف، بدر الحمود.

وقد زار المسابقة الكاتب السوداني الكبير أمير تاج السر، وألقى محاضرة بعنوان (قانون القراءة) عن سيرته الكتابية وقراءاته المختلفة بما يفسح الطريق مضيئاً أمام الشباب وذويهم لرعاية إمكانيات القراءة ومقوّماتها.

وتأتي مبادرة إثراء الشباب، التي أطلقتها أرامكو السعودية قبل عامين لتستهدف مليوني شاب وشابة، من خلال عدة تطبيقات وبرامج متنوعة ومميزة من بينها على سبيل المثال: اقرأ، أكتشف، أتميز، وأخيراً برنامج «أروي» لجائزة الإعلام الجديد. وتأتي جميعها تلبية للتطلعات المعرفية لأجيال من الشباب يشكّلون اللبنة الأساس لمستقبل الوطن المشرق، وسواعد البناء الفتية التي يقوي عزيمتها تحفيز الخيال والقدرة على الابتكار والتجديد في كافة العلوم ومناحي الحياة.

لمشاهدة فيلم فلم المرايا اضغط هنا

# مركز خدمة اللغة العربية يحتفي بالعربية في يومها العالمي

انطلقت أعمال الاحتفاء التي يقوم بها مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية بمناسبة اليوم العالمي اللغة العربية، وذلك تحت موضوع (الحرف العربي) ليكون العنوان الرئيس للاحتفاء باللغة العربية، إثر الاقتراح الذي تقدم به المركز إلى الهيئة الاستشارية للخطة الدولية لتنمية الثقافة العربية في منظمة اليونسكو، وجرى إقراره والإعلان الدولي عنه.

وأوضح الأمين العام للمركز الدكتور عبدالله بن صالح الوشمي أن المركز بدعم من معالي المشرف العام وزير التعليم العالي ومعالي نائبه والرؤى الاستشرافية من مجلس الأمناء يجتهد في العمل ضمن دوائر دولية متعددة، ومنها: تفعيل الجهود المؤسساتية السعودية لمواكبة الحدث الدولي في الاحتفاء الذي يأتي في 18 ديسمبر من كل عام، ويوافق يومها العالمي لعام 1436هـ (يوم 26 صفر). ويخطط المركز لتكون المناسبة منبراً لإطلاق المبادرات وتقييم الجهود، لا أن تكون للاحتفاء الخطابي المجرد.

ويعمل المركز خلال احتفائه باللغة العربية في هذا العام على تنفيذ برامج دولية متعددة، ويخص الجانب السعودي بمزيد من البرامج، حيث ينفذ برامجه بالشراكة مع الكليات والمعاهد والأقسام العلمية في مختلف الجامعات السعودية، إذ تنظم هذه الكليات والأقسام فعاليات علمية حول موضوع الاحتفاء خلال هذا العام، ضمن إطار عام أقرّه المركز ويعمل على دعمه وتمويله، حيث ستقوم الجهات اللغوية في الجامعات بتنظيم ندوة علمية يستكتب فيها ما لا يقل عن خمسة من الباحثين المتخصصين في الجامعة؛ للكتابة في موضوعات بحثية متخصصة في اللغة العربية، حددها المركز بالتنسيق مع هذه الجهات. وسيقوم المركز لاحقا بطباعة الأبحاث العلمية في إصدارات مستقلة، إضافة إلى برامج متعددة أخرى، وذلك بعد التجربة الناجحة للمركز في شراكته في السنة الماضية للاحتفاء مع الأندية الأدبية.

كما يكثف المركز عمله مع الملحقيات الثقافية السعودية في سفارات خادم الحرمين الشريفين في الخارج، حيث يعمل هذا العام بالشراكة مع عدة ملحقيات ثقافية لتنظيم برامج وفعاليات في دولها.

يشار إلى أن اختيار المركز لموضوع الحرف العربي جاء لما يمثله الحرف العربي من قيمة رمزية للغة العربية، حيث يُنظر إلى الحرف من الزوايا الجمالية والثقافية والتاريخية، إضافة إلى ارتباطه بالعلاقة بين اللغة العربية وغيرها مما استطاع الحرف العربي أن يدخل في تكوينه في مختلف الثقافات والحضارات البشرية.



د. عبد الله بن صالح الوشمي

# «قاموس الأدب والأدباء» يفوز بجائزة نادي الرياض الأدبي




وزير الثقافة والإعلام د. عبد العزيز خوجة خلال تكريمه دارة الملك عبدالعزيز، ويتسلم الجائزة الدكتور فهد السماري الأمين العام للدارة، ويظهر في الصورة رئيس نادي الرياض الأدبي عبد الله الحيدري ومدير الأندية الأدبية الدكتور أحمد قران الزهراني

منح نادي الرياض الأدبي (جائزة كتاب العام) في الدورة السابعة (1435هـ/2014م) لدارة الملك عبدالعزيز، وعن الكتاب الصادر عنها، وهو (قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية) المطبوع في عام1435هـ/2014م في ثلاثة مجلدات، وفي نحو 1900صفحة.

وأكد وزير الثقافة والإعلام الدكتور عبد العزيز محيي الدين خوجة في كلمته خلال حفل الدورة السابعة من (جائزة كتاب العام) في 29 تشرين الأول/أكتوبر 2014 في مركز الملك فهد الثقافي تكريماً لدارة الملك عبدالعزيز الفائزة بجائزة هذه الدورة عن الكتاب الصادر عنها (قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية) أن الكتاب يظل أنيس وحدة ورفيق حياة، ومنبع علم، ومصدر معرفة، وما تخصيص جوائز للكتاب والمؤلفين إلا عرفاناً بدورهم في الحياة الإنسانية.

ويضم القاموس ألف مادة عن شخصيات ومؤسسات ومطبوعات وتيارات ومؤلفات أدبية سعودية توثق لتاريخ ثقافي وأدبي سعودي متألق، ويرى الأمين العام لدارة الملك عبدالعزيز والمشرف العام على القاموس الدكتور فهد بن عبدالله السماري أن هذا العمل الموسوعي هو دعوة لمزيد من البحوث والدراسات في المجال الأدبي بعدما قدم في مجمل مادته تمهيداً نظرياً عاماً لذلك، وعدّ معالي الدكتور فهد بن عبدالله السماري أن لهذا الإصدار المؤسساتي مزايا منهجية، منها أن اسم معد المادة المترجمة يكتب في نهايتها لحفظ حقوقه ولإثبات مرجعية المادة المعدّة، فضلاً عن أن القاموس تجاوز فكرة الاستبانات التقليدية والملتبسة، وحقق الشمولية الجغرافية والأدبية والعمرية للشخصيات المترجمة، وأول عمل جماعي يعده عدد كبير من المتخصصين السعوديين.

ويشتمل على مداخل للحديث عن الكتب المؤثرة والدوريات والمجلات الأدبية والجوائز والمؤسسات الأدبية والثقافية والفنون الأدبية، فهو شامل للأدب والأدباء السعوديين.

وبلغ عدد مواد القاموس (908) مواد، منها (94) مادة عن الأدب، و(814) مادة عن الأدباء، منهم (138) من النساء، و(676) من الرجال، وبلغ عدد المتوفين منهم (168)، رحمهم الله، وعدد الأحياء(646)، وغطى القاموس المرحلة التاريخية منذ قيام المملكة العربية السعودية على يد المغفور له الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود وحتى اليوم.

# متحف التراث الإسباني يزدان بتاريخ الشرق والأندلس



بعد ستة أعوام من أعمال التجديد والتوسيع التي بلغت تكلفتها خمسة وستين مليون يورو، منها عامان ونصف العام من الإغلاق التام أمام الزوار، عاد متحف الآثار الوطني الإسباني لفتح أبوابه (24 آب/أغسطس 2014) أمام رواده من المواطنين والسياح الأجانب، ليزوروا قاعاته الأربعين التي يربو مجموع مساحاتها عن 23 ألف متر مربع، وتضم حوالي 13 ألف قطعة أثرية من مختلف العصور. وجرى توزيع تلك القطع على مجموعات زمنية/ حضارية في أقسام تبدأ بعصور ما قبل التاريخ وتنتهي بالعصر الحديث، مع تخصيص قسم بذاته لحضارات مصر والشرق الأوسط.

أما تاريخ الأندلس فيعد فاتحة القسم الخاص بحقبة العصور الوسطى في المتحف، ويهدف هذا القسم إلى عرض قطع تعود لتلك الحقبة الزاهرة من تاريخ إسبانيا، ويبين هذا القسم في جزئه الأخير أثر الفنون والحضارة الإسلامية على العلوم والفنون في إسبانيا حتى بعد خروج المسلمين من أرض الأندلس.

ويهدف المتحف بهذا التوزيع إلى استعراض الحضارات والعرقيات المختلفة، التي كانت على أراضي إسبانيا أو جاءت إليها أو تعايشت معها على مر العصور، ليعرف الزائر بعد هذه الجولة ثراء الحضارات التي عاشت على أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية أو كانت على صلة تاريخية بها.

# مصر ترمم أقدم مريض في التاريخ



مصر تبدأ في 29 آب/أغسطس 2014 تنفيذ مشروع لترميم تمثال (أبو الهول) الذي يرى أثريون أنه (أقدم مريض في التاريخ) نظراً لاحتياجه الدائم إلى ترميم بسبب أنه نحت من صخرة ضعيفة في هضبة الأهرام جنوب غربي القاهرة قبل أكثر من 4500 عام.

والتمثال الذي يبلغ طوله 73 متراً وعرضه 6 أمتار وارتفاعه 20 متراً لمخلوق أسطوري له جسم أسد ورأس إنسان وهو أقدم المنحوتات الضخمة في العالم، ويعتقد أن قدماء المصريين نحتوه في عصر الملك خفرع أحد أبرز ملوك الأسرة الرابعة (2613-2494) قبل الميلاد المعروفة بأسرة بناة الأهرام.

والاسم الأصلي للتمثال (حور إم أختي) ويعني (حورس في الأفق) نسبة إلى حورس أحد أبرز الآلهة في مصر القديمة.

# مهرجان يحتفي بالشاعر محمود درويش في القاهرة

انطلق مساء الأحد 29 أيلول/سبتمبر 2014 المهرجان الأول للشعر الذي يقيمه مركز (أتيليه القاهرة) للفنون بعنوان (دورة الشاعر العربي الفلسطيني محمود درويش)، بمشاركة شعراء وأدباء عرب، وتلقى فيه قصائد بصوت الشاعر، الذي استمر حتى 30 من سبتمبر / أيلول 2014.

المهرجان ألقى الضوء على جوانب من إبداعات الشاعر الكبير بوصفه شاعر القضية الفلسطينية، الذي تغنى بآلامها وآمالها عبر رحلة حياته، ونقل نبضها عبر كلماته الصادقة إلى العالم.



محمد عفيفي (يمين) وأحمد الجنايني في المهرجان الأول للشعر المقام في القاهرة

# اختتام فعاليات مهرجان القصص المصورة في الجزائر

اختتم السبت 28 أيلول/سبتمبر 2014 في الجزائر المهرجان الدولي السابع للقصص المصورة (كوميكس)، حيث عرضت أعمال فنانين من 32 دولة شاركت في هذه الفعالية.

ونظم المهرجان تحت شعار (موندبال الفقاعات في الجزائر)، ولقي إقبالاً كبيراً من الجمهور الذي استمتع بفعاليات ترفيهية، منها عروض كرنفالية أدتها فرق من دول كثيرة. كما عقدت محاضرات وعروض سينمائية للقصص المصوّرة، إلى جانب ورشات رسم للأطفال وتكريم بعض الوجوه الفنية.

واختيرت البرازيل ضيف شرف في هذا المهرجان، وقد خُصصت لها قاعة عرض ضمت زهاء ثلاثمائة لوحة لعدة فنانين برازيليين.

وتميزت أعمال فنانين من دول الربيع العربي بجرأة كبيرة، مثل الفنان ياسين الليل ابن ثورة الياسمين التونسية، الذي انتقد مرحلة بن علي بشريط يظهر فيه محمد البوعزيزي مفجر الثورة التونسية وهو يضرب الرئيس التونسي الهارب.


إقبال لافت للنظر على المهرجان الدولي للقصص المصورة في الجزائر

# إعادة افتتاح متحف بابلو بيكاسو في باريس

أعيد فتح متحف الفنان الإسباني الراحل بابلو بيكاسو في باريس (25 تشرين الأول/ أكتوبر 2014) بعد إغلاقه مدة خمس سنوات للقيام بأعمال تجديد تجاوزت كلفتها 50 مليون يورو.

ويقع المتحف في قصر يعود للقرن السابع عشر بمنطقة ماريه، ويضم إحدى كبرى مجموعات الأعمال الفنية لبيكاسو.

وأعيد فتح المتحف في ذكرى ميلاد بيكاسو الذي ولد في ملقة بإسبانيا عام 1881، لكنه قضى معظم حياته في فرنسا إلى أن توفي عام 1973.

وتأجلت مراراً أعمال تجديد المتحف الذي يضم أكثر من 5000 لوحة وعمل نحتي لبيكاسو إلى جانب أرشيفه الشخصي، كما ثار حولها الجدل والخلافات.

وتكلفت أعمال التجديد نحو 52 مليون يورو (66 مليون دولار)، واشتملت على توسيع حجم المتحف ثلاث مرات حتى يسع الزوار الذين يتوقع أن يصل عددهم إلى مليون زائر سنوياً.

ويشكل ما يعرف بـ(الفن التكعيبي) الذي ظهر على يد بابلو بيكاسو وجوان غري أحد معالم الثورة الجمالية التي شهدتها فرنسا، إضافة إلى (الأسلوب التوحشي) الذي تشكل على يد فنانين أمثال هنري ماتيس وأندريه دوران وموريس فلامينك، حيث انبثق ما يُعرف لدى الأوساط الفنية بـ(مدرسة باريس) التي كشف روادها ومريدوها عن فن خاضع للإحساس والعاطفة، وذلك عبر تحريرهم قوى غامضة في عمق النفس البشرية.


الرئيس الفرنسي يفتتح المتحف

# انطلاق مهرجان المربد الشعري الـ 11 في البصرة

تحت شعار (المربد أفق إبداع يتجدد)، انطلقت في (23 تشرين الأول/ أكتوبر 2014) في مدينة البصرة فعاليات مهرجان المربد الشعري بنسخته الحادية عشرة، التي أطلق عليها اسم (دورة الشاعرة العراقية لميعة عباس عمارة)، احتفاء بتجربتها الإبداعية وتقديراً لدور المرأة في الحياة الاجتماعية والثقافية.

وتستمر فعاليات المهرجان أربعة أيام بواقع جلستين شعريتين يومياً إلى جانب ثلاثة محاور نقدية، وفعاليات متنوعة ستكون مرافقة للأنشطة الرئيسة.

وشمل المهرجان أيضاً جلسات شعرية ونقدية وعروض أفلام ولوحات موسيقية ومعرضاً للكتاب والصور الفوتوغرافية والأعمال اليدوية.

وستقام بعض القراءات الشعرية في الساحات العامة، ومنها ساحة الحرية، إضافة إلى قاعتي المركز الثقافي النفطي وعتبة بن غزوان بمنطقة العشار.

الجلسات النقدية الثلاث تتضمن موضوعات: (التسوية في الشعر العراقي)، و(الشعر البصري الآن)، و(أسئلة التجديد في الشعر العراقي).

في مهرجان المربد الشعري افتقدت الأسماء الكبيرة واقتصر على عدد محدود من الأسماء العربية من سوريا وإيران والسعودية، بينما غاب العديد من الأسماء الشعرية عن الحضور.


يشارك في المهرجان نحو 300 من الشعراء العراقيين والعرب والمغتربين

# المغربي فؤاد العروي يفوز بجائزة جان جيونو

فاز الكاتب المغربي فؤاد العروي بجائزة جان جيونو 2014 عن روايته (محن السجلماسي الأخير) الصادرة باللغة الفرنسية عن دار (جوليار) بعد منافسة قوية مع بولين دريفوس وادريان بوسك وماتياس مينيغوس.

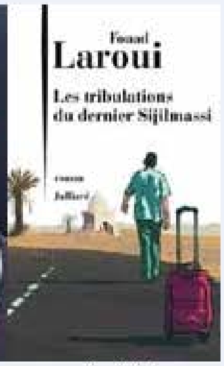
وتكونت لجنة التحكيم التي منحت العروي الجائزة من سيلفي جيونو دوبير، وبيير بيرجي، وبول كونستان (عضو أكاديمية غونكور)، وفردريك فيتو وإيريك أورسينا (عضو الأكاديمية الفرنسية)، فضلاً عن جيل لابوج، وبيير بان، وفرانكو ماريا ريسي، وإيف سيمون، الذين وضعوا ثقتهم بالإجماع لفائدة رواية (محن السجلماسي الأخير).

وقد سبق للكاتب المغربي العروي أن توج بجائزة الغونكور لعام 2013 عن مجموعته القصصية (قضية سروال داسوكين الغريبة).

تحكي رواية (محن السجلماسي الأخير) قصة المهندس المغربي المسمى آدم سجلماسي الذي قرر في نهاية المطاف أن يقطع كل علاقاته مع الغرب، ليعود إلى مسقط رأسه بمدينة أزمور في سهل دكالة.



فؤاد العروي




غلاف الرواية

# قمة دولية للكتاب بباريس تناقش إشكاليات الترجمة والرقمنة

نظمت المكتبة الوطنية الفرنسية الإثنين 13 تشرين الأول/أكتوبر 2014 الدورة الثالثة لقمة الدولية للكتاب بالتعاون مع المركز الوطني للكتاب، حيث نوقش محور الترجمة كمصدر ثقافي أوروبي تعددي والرقمنة كمصدر جديد للذاكرة.

واتخذ شعار (أوروبا كأرض ذاكرة وحوار ثقافي تبادلي) منطلقاً مرجعياً من خلال موضوعي الترجمة والرقمنة، وطغى المحور الثاني الذي حفل بمعلومات مهمة على الصعيدين المعرفي والمنهجي، مع غياب أدباء كعلاء الأسواني وعدم التحاق الروائية السورية المقيمة في باريس سمر يزبك بركب الضيوف الآخرين المعنيين بالترجمة الأدبية في دور نشر فرنسية معروفة.

وعالج المشاركون الأجانب والعرب والفرنسيون في الدورة المسائية إشكاليات الفرنكفونية والأنغلوفونية من منظور مقارنة تثبت خطورة الخلل القائم بينهما، الذي يصب رقمياً في مجرى الإنجليزية، كما تحدث المشاركون عن مشروع سلسلة (أوروبيانا) الخاص بالحرب العالمية الأولى كمصدر ذاكرة أوروبية تراثية، إضافة إلى برامج الرقمنة كتراث إنساني جامع.

ونوقشت هذه المحاور تحت إدارة مدير مكتبة الإسكندرية الدكتور إسماعيل سراج الدين، وشارك في الندوة كل من مديرة مؤسسة أوروبيانا جيل كوساكس وعدد من المتخصصين، واتفق الجميع على ضرورة تذليل المصاعب القانونية والمادية لإخراج التواصل الرقمي من نطاقه الضيق في الكثير من الحالات حينما يتعلق الأمر بالبلدان المتأخرة علمياً ولغوياً وتكنولوجياً والمعنية بحاجات ماسة وحيوية أخرى.

يذكر أن واشنطن احتضنت الدورة الأولى لهذه القمة عام 2012 بمبادرة من مسؤولي مكتبة الكونغرس، فيما احتضنت سنغافورة الدورة الثانية العام الماضي.



ميخائيل كيلر يتوسط برنو راسين رئيس المكتبة الوطنية الفرنسية (يمين) وإسماعيل سراج الدين رئيس مكتبة الأسكندرية في منصة القمة

# رحيل فنان الكاريكاتير المصري مصطفى حسين

توفي السبت (16 آب/أغسطس 2014) فنان الكاريكاتير مصطفى حسين عن عمر ناهز الـ79، بعد معاناة مع مرض السرطان. وكان قد أجرى مؤخراً جراحة دقيقة لإزالة ورم خبيث في مستشفى بالولايات المتحدة ثم عاد إلى مصر قبل أيام من وفاته لاستكمال علاجه.

ولد حسين في السابع من آذار/مارس 1935 في بيت القاضي بحي الجمالية بالقاهرة، والتحق بكلية الفنون الجميلة (قسم تصوير) عام 1953 وتخرج فيها عام 1959. وبدأ حياته الصحفية قبل التخرج في مؤسسة (دار الهلال) عام 1952، ثم رساماً للكاريكاتير بصحيفة (المساء) عام 1956 وظل بها حتى عام 1963، ثم انتقل إلى مؤسسة (أخبار اليوم) منذ عام 1974 وحتى وفاته.



مصطفى حسين

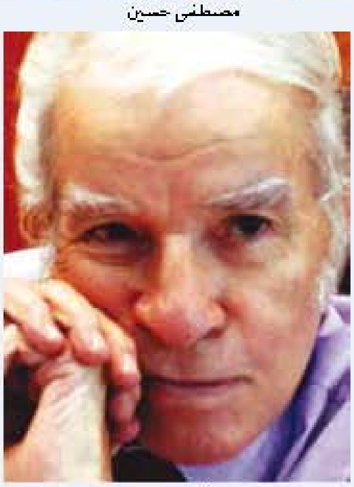
# رحيل الكاتب المصري أحمد رجب

توفي فجر الجمعة 12 أيلول/سبتمبر 2014 الكاتب الصحفي المصري الساخر أحمد رجب عن عمر ناهز 86 عاماً، بعد مرض طويل، حيث كان يتلقى العلاج في المركز الطبي العالمي، وتعرض للانتكاسة عقب معرفته برحيل صديقه الفنان مصطفى حسين مؤخراً.

ولد أحمد رجب معوض متولي في 20 نوفمبر/تشرين الثاني 1928، وحصل على ليسانس الحقوق، والتحق للعمل بمكتب (أخبار اليوم) بالإسكندرية، ثم انتقل إلى القاهرة، وتولى مسؤولية سكرتير التحرير بعد أن اكتشف الأخوان مصطفى وعلي أمين مهارته الصحفية.

اشتهر رجب بقدرته الهائلة على السخرية، وانتزاع البسمة الموجعة، تعليقا على ما يجري في الواقع السياسي أو الثقافي أو الاجتماعي، عبر الشخصيات الكاريكاتيرية التي ابتكرها، مع رفيق دربه فنان الكاريكاتير مصطفى حسين، الذي رحل قبل ثلاثة أسابيع فقط.

كوّن رجب وحسين أشهر ثنائي فني ساخر في الصحافة المصرية، يكتب الأول الكلمات، ويعبر الثاني بريشته عن الكلام الساخر، وظهرت شخصيات نالت شهرة شعبية كبيرة، منها: (فلاح كفر الهنادوة)، و(قاسم السماوي)، و(كمبورة)، و(عبده مشتاق)، و(عزيز بك الأليت).



أحمد رجب

# القراءة في الزمن المتغير

يقول العالم الأمريكي راي باردبوري: «هناك جريمة أكبر من جريمة حرق الكتب، ألا وهي جريمة عدم قراءتها»

وقبل ذلك بقرون وفي مكان آخر من العالم وضمن حضارة مغايرة ولغة مختلفة، قال الشاعر العربي الشهير أبو الطيب المتنبي:

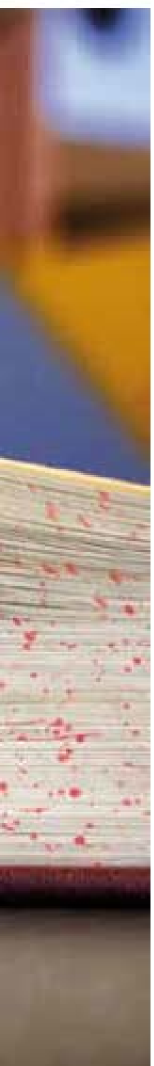
أَعَزُّ مَكانٍ في الدُّنَى سَرْجُ سابحٍ     وَخَيْرُ جَليسٍ في الزّمانِ كِتابُ

فعلى الرغم من فارق الزمان والمكان واختلاف الثقافة واللسان، اتّفق الرجلان على أهميّة الكتاب وقراءته.

وإن عدنا إلى الوراء أبعد من ذلك قليلاً وجدنا أن الدين الإسلامي الحنيف أشار إلى أهميّة القراءة منذ البداية، فأول آية نزلت على الرسول ﷺ وهو يتعبّد في غار حراء كانت:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ (العلق).

ونظراً للتطور التكنولوجي الهائل والانفجار المعرفي الذي يشهده العصر الحالي والاهتمام بحرية التعبير وإبداء الرأي اتسع مفهوم القراءة، وأصبحت القراءة عقلية انفعالية تشمل تفسير الرموز والرسوم التي يتلقاها القارئ عن طريق فهم المعاني والربط بين الخبرة السابقة للقارئ وهذه المعاني والاستنتاج والنقد والحكم والتذوق وحل المشكلات، ومن هنا جاءت أهمية ربط القراءة بالابتكار والإبداع، وخرجت القراءة من مفهومها التقليدي الذي أصبحت لا يفي بحاجات العصر إلى القراءة الابتكارية التي تجعل من الكتاب مصدراً للتفكير والإبداع، وتجعل المتعلم يغوص في المادة المقروءة ليكتسب الحقيقة فيما يقرأ، ويستدعي الأفكار المخبوءة التي يمتلكها هو والتي يمزجها بتخيله، فيزداد رصيده من المادة المقروءة، ويصبح قادراً على توظيفه واستخدامها أو إعادة كتابتها والتعبير عنها.



يعاني الوطن العربي من قلة القراءة ففي احصائية وُجد أن كل مليون عربي يقرؤون 30 كتاباً فقط، إذا فالمقارنة تكشف لنا أن وضع القراءة في العالم العربي مزر للغاية، ونحن هنا نتحدث عن القراءة أياً كانت، (كتب الطبخ مثلاً أو التنجيم) فما بالك بقراء النقد الأدبي، أو النص الإبداعي، بعض أسباب ضعف القراءة في العالم العربي منها: الوضع الاقتصادي المتدهور الذي لا يسمح بشراء الكتب، وكذلك انتشار الأمية التي تبلغ أعلى مستوياتها في دول عربية مثل: اليمن، موريتانيا، وجيبوتي، إضافة إلى انتشار الجهل هناك نسبة واسعة من المواطنين يتركون الدراسة بعد انتهاء المرحلة الابتدائية، ويلتحقون بسوق العمل، فالناس، أو أكثرهم، في العالم العربي لا يجدون قوت يومهم لذلك ظلوا يعدون لقمة الخبز أهم من الحرف، وصحن طعام أهم من جملة مفيدة، وكيساً من المواد الغذائية أهم بكثير من مقال في جريدة أو قصة قصيرة.

ونظراً للتطور الحاصل في الغرب من أهم ركائزه حرص المواطن الغربي على القراءة، وليس غريباً أن ترى أن القراءة تستهوي المواطن الغربي بأعماره المختلفة، ولا تجد غرابة عندما تدخل مستوصفاً أو أي مكان رسمي وتجد رفوف الكتب وكذلك داخل إلى مكتبة، وما يزيد تشجيعهم على القراءة أن الطالب بمجرد تسجيله في المدرسة يمنح كارت المكتبة العامة التي تكون عادة قريبة من مدرسته، لكي يتمكن من استعارة الكثير من الكتب وبشتى التوجهات، وبالمقارنة إذا نظرنا إلى عالمنا العربي نجد بالفعل ما يخيب الآمال في هذا الاتجاه، وأن أمة (اقرأ) أصبحت اليوم للأسف لا تقرأ.

ودليل ذلك ما نجده من أرقام طرحت من قبل مؤسسات بحثية عن مستوى القراءة بين الشرق والغرب، فقد أكدت إحدى دراسات المركز العربي للتنمية أن مستوى قراءة الطفل العربي لا يزيد على 6 دقائق في السنة، ومعدل ما يقرأ 6 ورقات، ومتوسط قراءة الشاب من نصف صفحة إلى نصف كتاب في السنة، ومتوسط القراءة لكل مواطن عربي لا يساوي أكثر من 10 دقائق في السنة مقابل 12 ألف دقيقة للمواطن الأوروبي.

ينشر العالم العربي أقل من 2000 كتاب في السنة، كتب الطبخ تحتل الصدارة بنسبة 23 % على الإنترنت.

وأوردت الدراسات أن عدد الكتب المؤلفة سنوياً والمتوافرة للطفل العربي لا تزيد على 400 كتاب، مقارنة بالكتب المؤلفة والمتوافرة للطفل الأمريكي مثلاً، والتي فاقت 13260 كتاباً في السنة، والطفل البريطاني 3837 كتاباً، والطفل الفرنسي 2118 كتاباً، والطفل الروسي 1458 كتاباً في السنة الواحدة.

يحتل البحث عن كتاب في فوقل المرتبة الـ 153 من بين اهتماماتنا العربية.

وأوضح تقرير (التنمية الثقافية) الذي تصدره مؤسسة الفكر العربي، وقدمت مضامينه في الدورة العاشرة لمؤتمر (فكر) المنعقد في 5 - 7 كانون الأول/ ديسمبر 2001 بدبي بالإمارات، أن متوسط قراءة الفرد الأوروبي يبلغ نحو 200 ساعة سنوياً، في حين يتناقص معدل القراءة لدى الفرد العربي إلى 6 دقائق سنوياً، واصفاً نسبة القراءة المسجلة في الوطن العربي بـ (المخيفة والكارثية).

وأضافت الوثيقة، أن مستوى القراءة في الدول العربية يتفاوت من بلد لآخر حسب العديد من المحددات أبرزها عامل السن والمستوى الثقافي والاقتصادي، والوسط المعيشي والجغرافي والبيئي.

وأبرزت أن بيئة التعليم الناقصة هي السبب في تعطيل علاقة الإنسان بالكتاب، حاثة على تطوير المناهج الدراسية في المنظومات التعليمية العربية من أجل تكوين جيل جديد قادر على رفع نسبة القراءة وتنمية مداركه.

وأفادت دراسة أخيرة حول معدلات القراءة في العالم أن قراءة ربع صفحة أي كل 20 مواطناً عربياً يقرؤون كتاباً واحداً فقط في السنة، بينما يقرأ كل مواطن ألماني أو بريطاني 7 كتب أي 140 ضعف ما يقرأه المواطن العربي، أما المواطن الأمريكي فيقرأ 11 كتاباً في السنة أي 220 ضعف ما يقرأه المواطن العربي في السنة.

وانتهت الدراسات إلى أن إجمالي ما يتم تأليفه من الكتب سنوياً في الدول العربية لا يساوي أكثر من 1.1% من الإنتاج العالمي السنوي من الكتب، بينما يزيد عدد سكان الوطن العربي مقابل سكان العالم بنسبة 5.5.

أما في مجال دعم البحث العلمي فقد سجلت أمريكا أعلى معدلات الإنفاق، بنسبة فاقت 3.1 % من ناتجها المحلي الإجمالي، بينما سجلت الدول العربية 0.2 % فقط، مما أدى إلى تراجع إجمالي علماء البحث العرب إلى 35 ألف باحث.

وقد أدى نمو الأهمية الاجتماعية للكلمة المطبوعة في عالمنا المعاصر إلى ظهور عدد كبير من البحوث والدراسات في بلدان أوروبا وفي أمريكا بشكل خاص، وخلال الثمانين سنة الأخيرة نشر في العالم أكثر من 40 ألف بحث علمي مكرس لقضايا القراءة، وعقدت عدة مؤتمرات دولية نظمتها (IRA) الرابطة الدولية للقراءة.

وفي تقرير التنمية العربي أن هناك كتاباً يصدر لكل 12 ألف مواطن عربي بينما يصدر كتاب لكل 500 مواطن إنجليزي أي أن معدل الإصدار في العالم العربي لا يتجاوز 4 % من معدل الإصدار في إنجلترا.

أما الكتب الإلكترونية فالواقع أشد ألماً .. تصل مبيعات الكتب في الغرب إلى أكثر من 40 ألف نسخة في اليوم الواحد، وتصل المبيعات للملايين، أما في العالم العربي فلا تكاد المبيعات تُذكر، وما زالت الأمية في العالم العربي منتشرة في حين أنها اختفت تماماً في بلد مثل اليابان منذ القرن التاسع عشر.

فإن تقرير منظمة اليونسيف يبين أن 70 مليونًا عربيًّا ما زالوا أميين وثلثاهم من النساء والأطفال.

وتعالج هذه الدراسات دوافع القراءة، واهتمامات القراء، واتجاهات القراءة الأدبية للأجناس الأدبية المختلفة، وتركز هذه الدراسات بصورة خاصة على الجانب السيكولوجي للقراءة والقارئ.

يقول الباحث فيليب ديفيس: «إن للأدب قوة وتأثيرا على العقل وقدرة في توليد أفكار جديدة»، ووجد باحثون بريطانيون «أن قراءة الأعمال الأدبية للشعراء والمؤلفين الكبار باللغة الإنجليزية - ولم يجب الباحثون لماذا تحديداً الشعراء والمؤلفين الكبار ولماذا تحديداً الأدب الإنجليزي- يوفر دفعاً كبيراً للدماغ ما يرفع المعنويات ويحفز على الاستمرار بالمطالعة لأوقات أطول»، وخلص الخبراء في جامعة ليفربول إلى أن «قراءة الأعمال الأدبية لكبار الأدباء مثل شكسبير ووليام وورد نوورث ومن في منزلتهما الأدبية تترك تأثيراً مفيداً على الذهن، وترفع المعنويات من خلال جذب انتباه القارئ وحضه على التفكير».

أما الصين فهي تعمل على ترجمة وطباعة كل كتاب يصدر في أمريكا خلال ثلاثة أيام من صدوره، في حين أن أكبر الدول العربية لا يترجم فيها إلا 400 كتاب في السنة.

يقول خبير القراءة السريعة جمال الملا على قناة العربية في برنامج إضاءات بأن هناك أبحاثًا ودراسات علمية أكدت بأن المواطن الأمريكي يقضي 200 ساعة في السنة في قراءة الكتب ... وأن المواطن العربي يقضي 6 دقائق في السنة في قراءة الكتب ... وأن أرباح دار نشر واحدة في دولة غربية أكثر من أرباح دور 22 دولة عربية .
مع العلم أننا أمة (اقرأ).

# واقع القراءة وتأليف الكتب في عالمنا العربي!

﴿معدل القراءة السنوي أربعة كتب للفرد وفي أمريكا (١١) كتاباً، وفي انجلترا (٧) كتب، أما في العالم العربي فربع صفحة للفرد الواحد، يوازي عدد الكتب المطبوعة في أسبانيا ما طبعه العرب منذ عهد المأمون﴾

﴿العرب لا يترجمون إلا خُمس ما يترجمه اليونانيون في الوقت الحاضر..﴾

﴿عبدالرحمن الكواكبي صحافي مصري، وسعد زغلول شاعر سوري، وبابلو نيرودا شاعر مغربي وروجيه غارودي لاعب في منتخب فرنسا عام 1998، والشيخ أحمد ياسين اعتبرته الأغلبية شقيق الممثل الكوميدي اسماعيل ياسين؟!﴾

في استطلاعات أجرتها ورشة العمل العربية لإحياء القراءة بناءً على النتائج الصادرة عن اتحاد كتاب الإنترنت العرب تبين ما يأتي:

ما تطبعه الدول العربية مجتمعة هو تقريباً مليون كتاب موزعة بين ثلاثمائة مليون مواطن عربي 60 % منهم أميون وأطفال، و20 % لا يقرأون أبداً، و15 % يقرأون بشكل متقطع وليسوا حريصين على اقتناء الكتاب، وما تبقى هم 5 % من المواطنين على القراءة وعددهم مليون ونصف فقط، أي أن حصيلة رخصة الفرد الواحد أقل من كتاب سنوياً في مقابل 518 كتاباً للفرد الواحد في أوروبا، و212 كتاباً للفرد في أمريكا، وفي إحصائية نشرت في بداية عام 2008 في إحدى الصحف اللبنانية بينت أن معدل القراءة لدى العربي هو (كلمة واحدة) في الأسبوع ويهبط مقدار معدل القراءة السنوي للفرد إلى ست دقائق في العام، أي أن 300 ألف عربي يقرأون ما يعادل كتاباً واحداً فقط مقارنة مع المواطن الغربي الذي يصل معدل قراءته إلى «36» ساعة في العام، أي أكثر بـ(360) مرة من المواطن العربي. إحصائية عالمية أخرى بينت أن معدل القراءة السنوي أربعة كتب للفرد وفي أمريكا (11) كتاباً، وفي انجلترا (7) كتب، أما في العالم العربي فربع صفحة للفرد الواحد، يوازي عدد الكتب المطبوعة في أسبانيا ما طبعه العرب منذ عهد المأمون وفي حقل استهلاك الورق فإن دار (غاليمار) الفرنسية للنشر لوحدها تستهلك ما يفوق كل المطابع العربية مجتمعة من كمية الورق..

مأساة الترجمة

تمثل حركة الترجمة مثالاً مهماً على النشاط والتلاقح الفكري والحضاري، وقد «سمي» عصر المأمون بعصر الترجمة لما مثله هذا النشاط من فعالية مهمة، كانت السبب في حركة الفكر العربي النشطة في ما بعد، وإذا ما قارنا حركة الترجمة مع ما يماثلها في الوقت الحاضر سنخلص إلى أن عدد الكتب المترجمة إلى العربية في ثلاثة عقود من عام 1970م إلى عام 2000م مثلاً بلغ ما يعادل 6881 كتاباً، وهذا ما يعادل ما نقل إلى اللغة الليتوانية التي يبلغ عدد الناطقين بها أربعة ملايين شخص فقط، وكان تقرير الأمم المتحدة قد كشف عن وضع مزر بهذا الخصوص إذ إن العرب لا يترجمون إلا خُمس ما يترجمه اليونانيون في الوقت الحاضر.

وبلغ متوسط الترجمة لكل مليون شخص من العرب في السنوات الأولى من ثمانينيات القرن العشرين يساوي (4.4) كتب أي أقل من كتاب واحد كل سنة، في حين بلغ (519) كتابا في المجر و (920) كتابا في أسبانيا . وفي إطار مسح ميداني أجراه شوقي جلال عن واقع الترجمة، ونشره في كتاب الترجمة في الوطن العربي يشير إلى أن إجمالي الكتب المترجمة في الوطن العربي منذ عصر الخليفة المأمون وحتى يومنا هذا يصل إلى عشرة آلاف عنوان، أي يساوي ما ترجمته إسرائيل في أقل من (25) سنة، أو ما ترجمته البرازيل في أربع سنوات، أو ما ترجمته أسبانيا في سنة واحدة.

**حقائق:**

حقائق مخزية تبعث على السخرية ما كشفه استطلاع مصري بيّن أن معظم الطلاب لا يقرأون الصحف اليومية إطلاقاً فيما بلغ متوسط ساعات الجلوس أمام التلفاز (6) ساعات، وكشفت الأسئلة التي تتعلق بمدى معرفة الشخصيات عن جهل الطلبة بأسماء الكثير من المفكرين والشخصيات العامة، فمثلاً.. عرّف الكثيرون من الطلبة من خلال الاستطلاع أن عبدالرحمن الكواكبي صحافي مصري، وسعد زغلول شاعر سوري، وبابلو نيرودا شاعر مغربي، وقد جرى استطلاع في الكويت مماثل فكانت الأجوبة كالآتي: 59 % قالوا: إن كوفي عنان حارس مرمى منتخب الكاميرون، و16 % أجابوا أن روجيه غارودي لاعب في منتخب فرنسا عام 1998، والشيخ أحمد ياسين أعدته الأغلبية شقيق الممثل الكوميدي إسماعيل ياسين؟! وجرى في العراق في الثمانينيات استطلاع عن ثقافة الطالب، فـ77 % من عينة الاستطلاع لا يعرفون من هو عبدالقادر الرسام والذين تعرفوا عليه بأنه رسام من خلال اللقب فقط!!

فهل لنا أن نتساءل بعد ذلك عن السر في تخلفنا ومعطيات الواقع تشير بجلاء إلى تدهور حال القراءة والثقافة في العالم العربي.

# تأثير شبكات التواصل الاجتماعي على القراءة

نحن نعيش عصر العولمة وطغيان ثقافة الإنترنت وسهولة الحصول على المعلومة دون عناء، فأدوات الجيل الثاني من الويب أصبحت مؤثرة (فالفيس بوك) و(اليوتيوب) و(تويتر) وغيرها أصبحت هي الأدوات الثقافية الجديدة وأوجدت ثقافة الحوار والتعريف بالذات من خلال هوية وبلد المشترك وعاداته والتواصل مع الآخر ووضع قضية ما على محك الحوار واستقطاب المحاورين في دقائق وبغض النظر عما يحمله هذا النمط الجديد من ثقافة الحوار فإنه قد يحمل عدداً من السلبيات إذا لم يتم تشجيع الشباب العربي على اعتماد مناقشة ما يقرؤونه من كتب كمبدأ للحوار، سواء كانت هناك مناسبات ثقافية أو ذكرى رحيل مبدع عربي أو غربي من مبدأ المعرفة والتزود بالثقافة. إن عدم إثراء المحتوى العربي المعرفي على شبكة الإنترنت هو الأصعب، فكم هو عدد الكتب الإلكترونية العربية؟ وكم عدد رسائل الماجستير والدكتوراه المتاحة على شبكة الإنترنت؟ وكم هو عدد المجلات العلمية والثقافية الإلكترونية؟ وكم عدد بحوث المؤتمرات المتاحة الكترونياً؟ فالجواب يكون نادراً أو معدوماً، ومن ثمّ لم يتبق لنا في ثقافة الإنترنت غير الكثير من المحتوى الذي إما أن يكون غير أخلاقي أو سياسياً أو ترفيهياً. ولكن بما أن العرب يشكلون 5 % من سكان العالم فما حصتهم من الإنتاج المعرفي العالمي؟ على سبيل المثال يضم العالم العربي قرابة 395 جامعة، ولكن ما الإنتاج العلمي المشهود لأساتذة الجامعات، ففي الترتيب العالمي لأفضل 500 جامعة لا توجد جامعة عربية واحدة.

إن الارتقاء بالقراءة بوضع برامج وخطط ومشاريع ترصد لها ميزانيات بهدف إثراء المحتوى المعرفي على شبكة الإنترنت بتحويل الكثير من موارد المعلومات الثقافية والعلمية من الشكل المطبوع إلى الرقمي مع مراعاة حقوق الملكية الفكرية للناشرين والمؤلفين. تضاف أزمة القراءة في العالم العربي إلى منظومة الصعوبات والمعوقات التي يعاني منها الوطن العربي من محيطه إلى خليجه، مما أدى إلى هذا التراجع الخطير لدور المثقف العربي على كافة الصعد والمستويات، وذلك باعتبار أن القراءة بمفهومها الشامل والحديث ليس مجرد الجهر والنطق بالكلمات، ولكنها عملية فكرية عقلية تستند على العديد من المهارات كالنقد والتحليل، مما يؤدي إلى تفاعل منهجي بين القارئ وبين ما يقرأ.

ثمة حقيقة لا ينكُرها عاقل، ألا وهي أن «معظم الصحف تُعاني من ركود ملحوظ في الشّراء، وبخاصة في الوطن العربي، وذلك بسبب الثورة المعلوماتية في الشبكة العنكبوتية»، ولم تعُد الصحيفة هي المصدر الأوحد للخبر، فإن الإحصائيات المدونة تثير الفزع أيضاً، حيث يقدر نسبة الصحف التي يتم توزيعها إلى عدد السكان يقل عن (53) صحيفة لكل (1000) شخص في البلدان النامية مقارنة مع (258) صحيفة لكل (1000) شخص في البلدان المتقدمة.

بل أصبح الإنترنت وسيلة أسرَع، فضلاً عن أنه يُتيح مجالا أوسع للبحث ومعرفة ما يحدُث في العالم كله لحظة بلحظة، وهو ما جعل مُعظم الشباب من المثقفين العرب يعزُفون عن شراء الصحف والمجلات... فهناك بديل لا يمثل تكلفة مادية كبيرة، إضافة لكونه أسرع وأفضل، وهو الإنترنت.

ووفقاً لدراسة أصدرها مؤخراً مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار في مصر بعنوان (ماذا يقرأ المصريون؟) فإن نسبة تصل إلى 88 % من الأسر المصرية لا يقوم أي من أفرادها بقراءة أي نوع من الكتب باستثناء الكتب المدرسية.

وتشير الدراسة إلى أن نسبة قدرها 76 % من الأسر لا تقوم بقراءة الصحف والمجلات على الإطلاق، أما عدد الأسر التي يقوم أحد أفرادها بممارسة القراءة تقدر بنحو 2.2 مليون أسرة منهم نحو 5.1 ملايين ليس لديها مكتبة بالمنزل. وضمن الفئة القارئة فإن نسبة قراء الكتب الدينية تصل إلى 79 %، وتليها العلمية ثم الأدبية وأخيراً الكتب ذات الطابع السياسي.

لكن التطور الحاصل عالمياً في مجال الكتب الرقمية لا يجاريه تطور على المستوى العربي في هذا الاتجاه قد يدفع بالقراءة إلى مجال أوسع وأكثر عصرية، إذ إن نسبة المنشورات الرقمية العربية ضعيفة إضافة إلى ارتفاع نسبة (الأمية الرقمية)، وتردي الوضع الاجتماعي والاقتصادي للطبقة الوسطى الأكثر عدداً، التي تعد الفئة الأكثر إقبالاً على القراءة والمعرفة.

**﴿أزمة القراءة في العالم العربي إلى منظومة الصعوبات والمعوقات التي يعاني منها الوطن العربي من محيطه إلى خليجه﴾**

**﴿لم تعُد الصحيفة هي المصدر الأوحد للخبر، بل أصبح الإنترنت وسيلة أسرَع، فضلاً عن أنه يُتيح مجالا أوسع للبحث ومعرفة ما يحدُث في العالم كله لحظة بلحظة﴾**

**﴿88 % من الأسر المصرية لا يقوم أي من أفرادها بقراءة أي نوع من الكتب باستثناء الكتب المدرسية﴾**

# زراعة حب القراءة في الأطفال

﴿تشجيع وتعويد الطفل على القراءة تعد من الأمور المعقدة في حياة الأسر، خاصة في مجتمعاتنا العربية، إذ يشير تقرير لليونسكو إلى أن معدل قراءة الأطفال في العالم العربي خارج المنهاج الدراسي 6 % في السنة، فيما يقرأ كل عشرين طفلاً عربياً كتاباً واحداً سنوياً، فان الطفل البريطاني يقرأ سبعة كتب، والأمريكي أحد عشر كتاباً﴾

﴿يسافر من اليابان فريق إلى معرض ميونخ الدولي للكتاب بألمانيا، حيث يقوم هذا الفريق بدراسة وتمشيط كل ما هو في المعرض من كتب الأطفال بجميع اللغات، ثم يعود لدراسة المناسب منها لترجمته كي يستفيد كل طفل على أرض اليابان﴾

تتنوع الطرق التي تساعد على زراعة حب القراءة في الإنسان منذ الصغر، وتختلف من دولة إلى أخرى.

## المكتبة العامة واختلاف الأساليب

فإذا أخذنا دولة كألمانيا مثالاً، نجد أنها تبدأ الاهتمام بزرع هذه العادة في الطفل منذ العام الرابع (هناك توجه الآن ليبدأ الأمر رسميًّا في المكتبات العامة بمجرد بلوغ الطفل عامه الثالث)؛ فنجد في المكتبات العامة يوم مخصص للقراءة، يجتمع فيه الأطفال مع أحد العاملين في المكتبة لقراءة كتاب، عادة ما يكون كتابًا مصورًا ذا قصة شيقة؛ ليجتذب بها أكبر عدد من الأطفال، ويكون الأمر أكثر تشويقًا.

فيعطون كل طفل ورقته الخاصة، تحمل اسمه، ويجمع فيها أختامًا عن كل مرة حضر فيها للاستماع، فإذا ما جمع عشرة أختام، أقيم له احتفال خاص، وقدمت له هدية أمام الجميع، وهي عبارة عن كتاب جديد، ليضيفه إلى مكتبته الخاصة في المنزل.

وهناك أسلوب آخر تتبعه المكتبة لتشجيع الأطفال على الحضور، وهو أنها تسلم كل طفل دفترًا صغيرًا يختم فيه ختم بكل زيارة، وعندما يكتمل الدفتر يفتح لهم صندوق الكنز، ذلك المحاط بسلسلة كبيرة قد أغلقت بقفل كبير، ليختار الطفل الهدية التي يريدها.

وتفضل المكتبة العامة ألا يمتلك الطفل كارت اشتراكه عن طريق والديه، فبمجرد وصول الطفل للصف الأول الابتدائي، يخصص يومًا لزيارة المكتبة عن طريق المدرسة، وهناك يتم عمل اشتراك لجميع الطلبة في المكتبة العامة، مع توضيح طريقة الاستعارة، وما هي الخدمات المتوقع أن تقدمها لهم المكتبة من الآن فصاعدًا.

فإذا ما بلغ الطلبة عامهم الرابع في المدرسة، قاموا برحلة أخرى للمكتبة، للتعرف على نظام المكتبة في الاستعارة، وكيفية تقسيم الكتب، وإلى ماذا يرمز كل رقم، وكل لون على غلاف الكتاب، وكيف يتم إدراجها إلى برنامج الاستعارة على الكمبيوتر، ويقوم الطلبة بتجربة ذلك بأنفسهم.

## القراءة عند الأطفال مشكلة عالمية

تمثل القراءة وتنمية ميولها لدى الأطفال مطلباً تربوياً وثقافياً نظراً لما يتسم به عالم اليوم من انفجار معرفي سريع ومتغير، فالقراءة كما هو معروف من أهم وسائل كسب المعرفة والحصول على المعلومات، لذا أوضحت بعض الدراسات أنه كلما كان هناك تبكير في تثقيف وإثراء خبرات الأطفال بالكتب والقصص قبل المرحلة الابتدائية، كان استعدادهم للتعلم والقراءة والكتابة أفضل.

مسألة تشجيع الطفل على القراءة وتعويده من الأمور المعقدة في حياة الأسر، خاصة في مجتمعاتنا العربية، إذ يشير تقرير لليونسكو إلى أن معدل قراءة الأطفال في العالم العربي خارج المنهاج الدراسي 6 % في السنة، فيما يقرأ كل عشرين طفلاً عربياً كتاباً واحداً سنوياً، فان الطفل البريطاني يقرأ سبعة كتب، والأمريكي أحد عشر كتاباً.

وتشير إحصائيات أخرى إلى أن رصيد الدول العربية لا يتجاوز 1.1 % من الإنتاج العالمي لكتب الأطفال على الرغم من وجود نحو 55 مليون طفل يمثلون 42 % من العدد الكلي للسكان في العالم العربي، بما يؤكد أن مصطلح القراءة ما يزال غائباً عن أولويات الطفل العربي. ويشهد العالم العديد من المشاريع والمبادرات للعودة إلى القراءة.

وتشجيع الأطفال والشباب عليها، بعد انشغالهم بمواقع التواصل الاجتماعي، التي يصل نصيب الفرد منها إلى أكثر من ثلاث ساعات يومياً، مقارنة بالقراءة الهادفة التي لا تتعدى في الغالب خمس دقائق، لذا سنحاول اليوم أن نستعرض بعض التجارب الناجحة التي نفذتها مؤسسات وأفراد بصفة شخصية، لعلمهم وإدراكهم بأهمية القراءة ومكانتها في بناء النفس والعقل ودورها في تهذيب وتقويم السلوك إذا ما أُحسن استغلالها.

## ترجمة كتب الأطفال

عندما ننتقل إلى أقصى الشرق حيث دولة اليابان، بلاد الشمس المشرقة التي تتميز بالاهتمام البالغ بمواطنيها منذ الطفولة، نجد أنها تقوم بتجربة عظيمة، لا تنم إلا عن اهتمام بإعداد أجيال على أعلى مستوى من الثقافة والتقدم، ولذلك تستحق الوقوف عليها والاستفادة منها، وتتلخص هذه التجربة في القيام بترجمة كتب الأطفال الجيدة على مستوى العالم من أي لغة إلى اللغة اليابانية.

ويبلغ متوسط ما يتم ترجمته سنوياً أكثر من مئتي عنوان، وتجدر الإشارة إلى أنه في كل عام يسافر من اليابان فريق إلى معرض ميونخ الدولي للكتاب بألمانيا، حيث يقوم هذا الفريق بدراسة وتمشيط كل ما هو في المعرض من كتب الأطفال بجميع اللغات، ثم يعود لدراسة المناسب منها لترجمته كي يستفيد كل طفل على أرض اليابان، ويصبح ملمًّا بكل ما يحصل عليه أطفال العالم من معلومات وخبرات، فيتفوق عليهم جميعاً.

## مشروع كلمة قوية

ابتكرت مكتبة (فريدريشسهاين- كرويتسبرغ) ومكتبة (وسط برلين) مشروعاً لتشجيع القراءة، وتحفيز اكتساب اللغة. تساعد ثمانية برامج متعاقبة فيه الأطفال حتى سن الثانية عشرة على أن يكونوا فصحاء، ويمتلكوا معارف ومهارات يصبحون بها أقوياء كالكلمة، يصبحون «كلمة



قوية، يتكون البرنامج من 8 مجموعات، لكل مجموعة منها عروض متلاحقة، يزورها الطفل لمدة عام دراسي كامل في الأغلب.

وبشكل عام تنتظم المقابلات في برنامج منظم متصل الحلقات، دائماً ما يكون الكتاب فيها في بؤرة الاهتمام، حيث يُلهم برنامج (كلمة قوية) الأطفال ويعينهم للوصول إلى الكتاب، ويمهد لهم السبيل إلى موضوعات الكتب المصورة ومحتوياتها، ولكي يتم ذلك يتبع أمناء المكتبة برنامجاً متكاملاً، عن طريق اللعب والموسيقى والرسم والحركة، لتصبح اللغة والأدب فيه تجربة حياة.

ويعمل أطفال المرحلة الابتدائية طوال عام دراسي كامل في موضوع واحد من موضوعات برنامج (وقت للقراءة)، مثل: ألف باء جيم، أو برلين، أو الحيوانات والنباتات، وتكفل المكتبة بتوفير المداخل المتنوعة والمتغيرة، بالاستعانة بالأساليب التعليمية المختلفة، محفزةً إياهم على التعمق في الموضوع في المدرسة.

وقد حقق برنامج (كلمة قوية) نجاحاً بالغاً، وحصد جوائز عدة، منها جائزة مسابقة الاتحاد التي كانت تحت شعار (تشجيع المواهب كلها) لمبادرة (ماكينزي تُعلم) لعام 2005، وقد سجل هذا البرنامج بوصفه نموذجًا (أحسن تطبيق) أصداء واسعة داخل البلاد وخارجها، حتى إن كثيرين حذوا حذوه.

ومن الأسباب الفعلية وراء هذه المعدلات المخيفة:

1. قصور مناهج التعليم والتربية في الوطن العربي وضعفها واعتمادها على الحفظ والتلقين، ما جعل كثيرين منهم يقف موقف العداء للكتاب وفي نفوسهم عداء تقليدي للكتاب المدرسي.
2. عدم تغيير أساليب تنمية مهارات القراءة في المرحلة الابتدائية فالثانوية فالجامعية.
3. عدم تشجيع أفراد الأسرة الطفل على القراءة والتفكير منذ الصغر.
4. منافسة وسائل الإعلام المختلفة للكتاب وخاصة الفضائيات والإذاعات، وكذلك وسائل التواصل الاجتماعي كالفيس بوك وتويتر والواتس آب ونحوها.
5. غياب مفهوم التعليم والتثقيف الذاتي عند أفراد المجتمع.
6. حالة الإحباط واليأس التي يعيشها الإنسان في المجتمع العربي والإسلامي.
7. الغزو الثقافي الغربي وترويج ثقافة اللامبالاة والأنانية.
8. غياب الروح التشجيعية لدى المؤسسات الثقافية.
9. قلة الدعم المالي لإنشاء المكتبات العامة ودعم الكتاب ليصبح رخيص الثمن وفي متناول الجميع.
10. عدم اهتمام الدول بالكتاب وأعمالهم، ومكافأتهم على أعمالهم المتميزة كما تفعل الدول الأخرى.
11. اتباع بعض الدول سياسة فرض التخلف التعليمي على شعوبهم للسيطرة عليهم والتحكم في رغباتهم.

**فيديو عن القراءة**

مشاهدة فيديو عن واقع القراءة في العالم العربي اضغط هنا

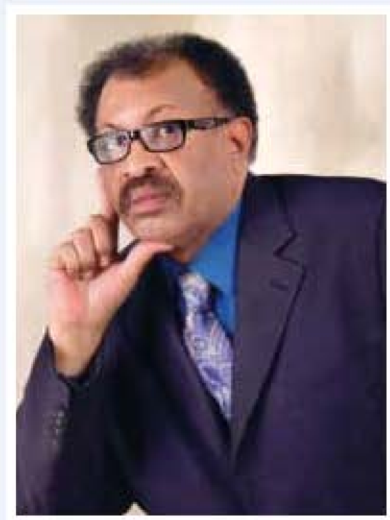
مشاهدة فيديو عن أزمة القراءة في الوطن العربي اضغط هنا

مشاهدة فيديو (القراءة ثقافة شعب) اضغط هنا

مشاهدة فيديو عن كيف نشجع أطفالنا على القراءة اضغط هنا

مشاهدة فيديو د. وليد فتيحي - اقرأ اضغط هنا

# أساليب القراءة وصناعة الآراء



**د. أمير تاج السر**

**كاتب وروائي سوداني**

ذكرت من قبل أنني من المهتمين بمتابعة ما يكتبه القراء من حين لآخر في مواقعهم المختلفة، من مدونات شخصية أو مواقع أخرى اختصت بتوفير أغلفة الكتب مع نبذة عن الكتاب ومؤلفه أو نسخ إلكترونية منها، وتركت لأعضائها المسجلين حرية أن يتحدثوا عن تلك الكتب ويدلون بآرائهم فيها من دون وصاية أو رقيب.

ولعل هذه واحدة من أهم ميزات الإنترنت الكثيرة، أنها انتقلت بشؤون القراءة من مقاهي المثقفين الروتينية وغرفهم المغلقة الهامسة إلى فضاء أرحب، وثم أسهمت إلى حد ما في انتشار الكتب.

فالذي يقرأ تعليقًا إيجابيًا عن كتاب ما يسعى بالضرورة لمحاولة امتلاكه، وحتى الآراء السلبية مهما كانت عنيفة وقاسية، وفيها تجن أحيانًا على الكاتب وكتابه، أيضًا تسهم في الترويج لهذه السلعة، التي لم تعد من أولويات هذه المرحلة، بظهور وسائل جذب أخرى أشد إغواء من شراء كتاب، ومحاولة العثور على وقت لمجرد تصفحه، لا قراءته كاملاً.

**«من أهم ميزات الإنترنت الكثيرة، أنها انتقلت بشؤون القراءة من مقاهي المثقفين الروتينية وغرفهم المغلقة الهامسة إلى فضاء أرحب، ومن ثم أسهمت إلى حد ما في انتشار الكتب»**

وأيضًا يشكل سعر الكتاب الورقي معضلة كبيرة، في الوقت الذي تكالبت فيه الأعباء على الناس، وأرهقت دخولهم اليسيرة.

متابعتي لتلك المواقع لا تأتي من كوني كاتبًا يبحث عن رأي في كتابته، ولكن بصفتي قارئًا له ذائقته وآراؤه هو الآخر، فحين أقرأ كتابًا ما ويعجبني أو لا يعجبني، أبحث عن آراء الآخرين فيه، ومن ثم أحدد موقعي في رقعة القراءة العريضة.

لقد استطعت في متابعتي تلك، أن أخرج بعدة نقاط، خاصة من قراءتي للتعليقات التي كتبت عن مؤلفات واسعة الانتشار، ولمؤلفين بعضهم فرض اسمه وبصمته الواضحة، وبعضهم ما زال يحاول، لكن حظًا ما أو اجتهادًا مبكرًا أوقف كتابه على قدمين راسختين في سكة القراءة، وشد الكثيرين إلى التعليق عليه بهذه الكثافة.

وإذا اعترفنا بأن القراءة وحب الكتاب مزاج في الآخر، لا يجب أن نحزن على رواية رائعة مكتوبة بإخلاص شديد، ولغة أخاذة، لم تنل حظا وافرًا من التعليق، وإن علق عليها البعض، كتبوا كلامًا بعيدًا عن عالمها، ذلك يسر أن المزاج العام لم يتذوقها، وربما يتذوقها مزاج آخر بعيد،

إن ترجمت إلى لغة أخرى غير لغتها التي كتبت بها. وفي الجانب الآخر تحظى رواية عادية، كتبت بلغة عادية بكثير من المدح، لأنها دخلت أمزجة الكثيرين، وأصبحت سلعة رائجة.

لقد تحدث أدونيس مرة عما أسماه "الذائقة المستقرة" أي الذائقة التي انحصرت في نوع مألوف من الكتابة، وأصبح من الصعب تجاوزه إلى غير المألوف أو المستحدث، وربما يمر زمن طويل قبل أن يصبح ذلك المستحدث، مستقرا في التذوق هو الآخر، ويحظى بالالتفات إليه ساعتها.

كذلك ارتبط التعليق -خاصة الإيجابي- في أحيان كثيرة بجنسية الكاتب، هنا القراء يشجعون كاتبا من أرضهم، بالالتفاف حول كتابه، خاصة إن كان الكتاب مرشحا لجائزة ما، تماما مثلما يشجعون فريقا لكرة القدم، إن فاز فقد فازت بلادهم، وإن خسر فقد خسرت تلك البلاد.

وإذا ألقينا نظرة سريعة على الرواية، لأنها الجنس الأكثر سطوة في هذه الأيام، ويطمح الكثيرون من الشعراء وكتاب القصة القصيرة الراسخين، وحتى المؤرخين وغيرهم لكتابتها، ويتابعها القراء بشكل وافر، ناسين فنونهم وإبداعاتهم التي تخصصوا فيها، نجد أنها تشعبت كثيرا وارتدت أساليب كثيرة من ناحية العوالم وطريقة السرد، وإمكان تزيينها ببهارات عديدة من المخيلة، أو كتابتها من واقع أصبح في بعض حالاته يفوق المخيلة تأججا.

هناك روايات تأخذ من التاريخ بوثائقه المعروفة، وترصد حياة شخصيات كانت مساهمة بشكل أو بآخر، في رفعة مجتمع ما أو انحطاطه، مثل رواية "المخطوط القرمزي" للأسباني العظيم: أنطونيو غالا، و"الجنرال في متاهته" لغارسيا ماركيز، حين رصدت شخصية الكاتبة سيمون دي بوليفار.

روايات كتبت التاريخ بلا وثائق، أي تخيل كتابها التاريخ بناء على معطيات قليلة عن حياة سابقة، ومجتمع قديم، واعتمدوا على الخيال في كتابتها، ومنها رواية "قلم النجار" القصيرة البديعة، للكاتب الأسباني مانويل ريفاس، والتي رصد فيها الحرب الأهلية الأسبانية، بكل شرورها وتداعياتها، لكن بشخصيات مخترعة، وحوادث لم تحدث إلا في نصه فقط، وقد ذكرت مرة أنها الرواية التي كنت أتمنى لو كتبتها.

روايات أخرى أخذت من الحياة المعاصرة كل شيء. أخذت الحلو والمر والناعم والخشن، والمحزن والمضحك من مجتمعات كتابها، ورصدته بخيال محسوب لا يتوه القارئ كثيرًا في متاهاته.

القارئ إذن -وبالمزاج الذي ذكرته- ليس بالضرورة متذوقًا لكل هذه الأساليب مهما عظمت، ومهما اجتهد كتابها في السرد. هناك من يتذوق الرواية التاريخية ويكتب تعليقًا مطولاً عن عشقه لرواية من هذا النوع، وتجد هذا القارئ نفسه، يسخر من رواية معاصرة ربما تكون للكاتب نفسه الذي أحب روايته التاريخية، والعكس هنا صحيح، حين يحب أحدهم رواية معاصرة، ويبدو غير مقتنع برواية التاريخ، مبديا وجهة نظر مغايرة، لوجهة النظر العامة.

بالنسبة للكتابة في الأشياء التي كانت خطوطًا حمراء في الماضي، وتحول بعضها إلى خطوط خضراء من كثرة ما طرقت في الكتابة تختلف الآراء بشدة هنا، فليس كل من يكتب في الجنس مثلاً، يكتب بنزاهة وضرورة ملحة، وليس كل من يقرأ أعمالاً زخرفت بهذا الموضوع سواء إن كان عن ضرورة، أو مجرد حشو قصد به زيادة حجم القراءة، يستطيع أن يقتنع بما قرأ، خاصة إن كانت ثمة عبارات خادشة للذوق العام، ترد صريحة، وبلا غطاء في النص.

وأظنني من النوع الذي لا يرضى عن مثل تلك النصوص كثيرًا، ولا أجد ثمة ضرورة ملحة لكتابة ألفاظ، لا يستطيع الكاتب نفسه أن يطلقها علانية في بيته، وقد ذكر أحدهم تعليقًا على رواية مكتوبة بهذا النسق، إنه قرأها بعيدًا عن بيته، حتى لا يقرأها أحد من داخل البيت. على أن هذا الأسلوب وبكل ما فيه، يعجب قراء أيضًا، ويوجد من يعلق عليه بإيجابية كثيرة.

إذن أخلص إلى أن القراءة هي أيضًا مثل الكتابة، أساليب شتى لكتابة النص وأساليب شتى لقراءته أو الاستمتاع به، ولكن وسط كل هذا تجد آراء غريبة جدًا من البعض، آراء عن كتب لم يقرؤوها حقيقة، وإنما سمعوا بها، وقاموا بكتابة تعليقات مستوحاة من تعليقات لآخرين. وأيضًا هناك من يترك رواية كاملة ممتلئة زخمًا، ويعلق بسلبية عن جزئية صغيرة فيها.

**﴿ارتبط التعليق -خاصة الإيجابي- في أحيان كثيرة بجنسية الكاتب، هنا القراء يشجعون كاتبا من أرضهم، بالالتفاف حول كتابه، خاصة إن كان الكتاب مرشحا لجائزة ما﴾**

**﴿القراءة هي أيضًا مثل الكتابة، أساليب شتى لكتابة النص وأساليب شتى لقراءته أو الاستمتاع به﴾**

# الذكاء والعبقرية

د. وليد فتيحي



«اختلف حوله علماء النفس والفلاسفة منذ أقدم الأزمان، هل هو متوارث فطري أم هو مكتسب بيئي؟ هل هو إلهام؟ هل يولد به الإنسان أم أنه ثمرة العمل والجد والإتقان والإحسان؟..»

اختلف علماء النفس منذ القدم فيما إذا كان النبوغ والعبقرية في الإنسان موهبة أم أنها أمرٌ يمكن اكتسابه، وقد كانوا يظنون سابقًا أن الذكاء الحاد والعبقري يأتي بسبب جينات وراثية خاصة من نوعها، وأن العوامل النفسية والتربوية والبيئية والجهود التي يبذلها الإنسان لتطوير ذاته هي عوامل محدودة الأثر ولا يرون أن الأداء العبقري في أي مجال من المجالات يمكن اكتسابه لأي شخص يرغب بذلك.

ولكن العلم الحديث والأبحاث والدراسات بدأت تُظهر لنا عدم صحة هذه النظريات، وأن كل شخص يمكنه تحقيق الأداء العبقري في المجال الذي يحب ويريد إذا عمل بما يكفي لتحقيق ذلك.

قبل أن نتحدث عن العبقرية التي تعرّف بأنها تمتع المرء بقدر من الذكاء عالٍ يساعده على تحقيق منجزات باهرة في مجالات لم تستكشف من قبل، لابد لنا أن نعرّف الذكاء.. فما هو الذكاء؟

لا يوجد حتى الآن تعريف محدد متفق عليه للذكاء، فالذكاء بمفهومه العام يختلف من موقع لآخر، ومن بيئة لأخرى.. من المدرسة إلى العمل إلى الشارع إلى مجالات الحياة الأخرى، مما حدا إلى تطوير نظرية الذكاءات المتعددة، والتي تُعدُّ من أهم النظريات السيكولوجية والتربوية المعاصرة التي جاءت كرد فعل تصحيحي للنظرة القديمة السائدة القائلة بأحادية الذكاء والمعرّف بالذكاء الرياضي والمنطقي.

مؤسس نظرية الذكاءات المتعددة هو البروفيسور هاورد جاردنر (Howard E. Gardner) عالم النفس الأمريكي وأستاذ الإدراك والتعليم بجامعة هارفارد الذي أعاد النظر جذريًا فيما يتعلق بالذكاء وآثاره على التعلم والتعليم، وقدم نظريته الجديدة التي تقوم على أساس تميُّز الفرد عن غيره، وأن كل إنسان يتميز بذكاء خاص به.

فالذكاءات متعددة ومتنوعة ومستقلة لدى المتعلم ويمكن صقلها وشحذها وتنميتها وتقويمها عن طريق التشجيع والتحفيز والتعليم والتدريب لتنمية المواهب وتحقيق العبقريات.

وبذلك فهي تؤمن بعبقرية المتعلم وقدرته على الابتكار والإبداع إذا روعي نوع الذكاء الذي يتميز به وتم التركيز عليه والاستثمار فيه.

ومن أنواع الذكاء، الذكاء اللغوي، وهو القدرة على استعمال اللغة المكتوبة الشفهية في الكتابة والنثر والشعر والخطابة مثل المتنبي والمنفلوطي ومصطفى صادق الرافعي وشكسبير وغيرهم كثير بمختلف اللغات وعلى امتداد الأعراق.

وهناك الذكاء الرياضي المنطقي كعلماء الرياضيات والمهندسين والفيزيائيين والباحثين مثل ألبرت أينشتاين والخوارزمي الذي أسس علم الجبر.

وهناك الذكاء الفراغي أو التصويري أو البصري وهو القدرة على تصور الأشكال والأشياء في الفراغ كالنحاتين والرسامين والمهندسين.

وهناك الذكاء الشخصي الذي يفهم الإنسان من خلاله قدراته ويعرف جيدًا نقاط الضعف والقوة لديه، ويكون مستقلاً في تفكيره، وله إرادة قوية وينظم حياته بشكل ناجح وفعال، مثل المفكرين والمصلحين الاجتماعيين.

وهناك الذكاء الجسدي الحركي، مثل القدرة على التحكم بنشاط الجسم وحركاته بشكل بديع، وهي المهارة التي يمتلكها الرياضيون.

وهناك الذكاء الاجتماعي وهو القدرة التي يمتلكها الفرد في التواصل مع الآخرين، وفهم نياتهم ودوافعهم ورغباتهم، مثل السياسيين الذين يحظون بشعبية واسعة، والقياديين أصحاب الجاذبية الخاصة والكاريزما.

وهناك الذكاء الموسيقي، ومثال عليه أبو الفرج الأصفهاني مؤلف كتاب الأغاني في عصر هارون الرشيد، وأمثال بيتهوفين وموزارت، وهناك الذكاء الطبيعي والقدرة على التعامل مع الطبيعة من حيوان ونبات وتمييزها وتصنيفها واستعمالها كالمزارعين والصيادين والجيولوجيين.

وهناك الذكاء العملي اليدوي الميكانيكي الذي يتميز فيه الشخص بقدرته على التعامل مع الأجهزة والمعدات والآلات، ويُكتشف مبكرًا في مرحلة الطفولة، حيث يقوم الطفل بتفكيك اللعبة ثم إعادة بنائها.

واستحدثت أنواع جديدة من الذكاءات مثل الذكاء العاطفي وهو ما تحدث عنه د. دانيل جولمن (Daniel Jay Goleman) وهو القدرة على حث النفس وتحفيزها وتنظيم الحالة النفسية ومنع الأسى والألم من شل قدرة التفكير والقدرة على فهم الآخرين والتعاطف والشعور بالأمل.

وهناك الذكاء الروحي، وهؤلاء وجوههم عليها صفاء وروحانية من نوع خاص، تشعر بارتياح بالنظر إليهم، أمثال الكثير من القادة والزعماء الروحانيين وعلماء الدين، الذين لهم تأثير قوي على أتباعهم، ليس بلاغة

وحديثًا أو قدرة على الحوار، إنما ما تشع به أرواحهم من نور وحب وطاقة إيجابية خيّرة.

وهناك الذكاء الحدسي (الحاسة السادسة)، فبعض الأشخاص لديهم قدرة خاصة على التوقع والتنبؤ بشكل لا يمكن تفسيره وإخضاعه للمنطق.

ولكن كيف يتحول هذا الذكاء إلى ذكاء عالٍ وإلى عبقرية؟

إن أفضل نظرية تفسر حدوث العبقرية هي نظرية الدكتور أندروز أريكسون عالم النفس بجامعة فلوريدا الأمريكية، فبناء على الدراسات والأبحاث التي قام بها د. أريكسون على مدى عشر سنوات، فقد أكد أن أي فرد يمكن أن يصبح عبقريًا إن شاء ذلك، فالعباقرة يطورون عادة ذاكرة قوية لتخزين المعلومات ذات الأهمية لهم بطريقة فعالة في الذاكرة طويلة المدى، بحيث يمكن للذاكرة قصيرة المدى الاستفادة منها عند الحاجة.

ويؤكد أريكسون أن هذا النشاط غير العادي للذاكرة هو ما يميز المتفوقين النابغين في كل مجال، وهو نشاط يمكن تطويره واكتسابه.

وقد قام د. ناثالي زوريو مازوير عالمة الدماغ بجامعة كان بفرنسا بتحديد مناطق الدماغ التي تفعّل عند عبقري رياضيات اسمه رود يجيرجام، الذي يستطيع حساب أي رقم أقل من مائة بعد ضربه في نفسه تسع مرات، وتم استخدام جهاز دماغ متخصص (PET Scan) وقارنته بأناس عاديين يقومون بنفس النشاط العقلي في أثناء الحساب، فوجدت أن الجميع يستخدمون اثنتي عشرة منطقة مشتركة في الدماغ في أثناء الحساب، ولكن جام استخدم خمس مناطق إضافية، ثلاث منها أكدت البحوث العلمية أنها مرتبطة بالذاكرة طويلة المدى.

وبذلك بينت الدراسة أن جام يتميز بحفظ الطرق والنتائج والمعادلات الرياضية في ذاكرته طويلة المدى ليستخدمها بسرعة عند الحاجة. بل لم يولد جام بهذه القدرة الاستثنائية، بل كان شخصًا عاديًا، ولكنه بدأ في العشرين من عمره بتخصيص أربع ساعات يوميًا للتدريب على العمليات الحسابية.

ويؤكد د. أريكسون في نظريته بأن العبقرية يمكن أن تطور، فقد قام بتجربة قبل عشرين عاماً على مجموعة من الأشخاص في مختبره، وعمل على تطوير قدراتهم في مجال حفظ الأرقام العشوائية. والمتعارف عليه أن الشخص العادي يستطيع عادة حفظ سبعة أرقام عشوائية متتالية وترديدها، ولكن أريكسون استطاع زيادة هذه القدرة بعد عام من التدريب إلى ثمانين إلى مائة رقم متوالية.

دراسة أخرى قام بها عالم نفس مجري اسمه لازلو بولجار (Laszlo polgar) الذي ألّف كتابًا عنوانه "تربية عبقري" (Bring up Genius) عن كيفية تربية العباقرة وأراد تحدي النظرية التقليدية في تعريف العبقرية، فقد قام هو وزوجته بتدريب بناته الثلاث على لعب الشطرنج حتى أصبحن كلهن من أفضل عشر أبطال العالم في الشطرنج وإحداهن أصغر من يحصل على اللقب العالمي (Grandmaster) في تاريخ الشطرنج، مثبتًا أن التدريب وحده يمكن أن ينتج عباقرة في مجال معين.

ولكن هل كل طفل يتلقى نفس التربية يمكن أن يصبح عبقريًا. بينت الدراسات أن الطفل يحتاج عاملاً رئيسيًا وهو الرغبة الجامحة في التفوق، وهو شعور قد ينمو لدى الطفل في أثناء الساعات المكثفة التي يبذلها للتدريب في موضوع معين.

إذاً الأهم هو القدرة على المثابرة والصبر والعمل.. موهبة القدرة على العمل والإنجاز، وهذه تشكل بالبيئة والظروف والتربية التي يتعرض لها الطفل في صغره. وهذا متوافق مع ما قاله العالم والمخترع الشهير توماس أديسون أحد أعظم عباقرة العصر الحديث في وصفه للعبقرية بأنها 1 % إلهام و99 % جهد مضن، حتى موزارت Mozart لم يكن ليصل إلى ما وصل إليه لولا التدريب المتواصل والجهد الكبير والعمل المضني والمثابرة والجد منذ نعومة أظفاره.

وهذا متوافق كذلك مع ما أكد عليه مالكوم جلادويل Malcolm Gladwell في كتابه أوت لايرز Outliers من أن أي شخص يمكن أن يصبح مبدعًا وعبقريًا إذا اختار تخصصًا يحبه ووضع عشرة آلاف ساعة من التدريب عليه، وأسماها قاعدة العشرة آلاف ساعة. وبذلك فالقاعدة تؤكد أن أي إنسان إذا استطاع أن يحدد أي نوع من الذكاء يمتلك.. الموهبة والملكة التي يمتلكها وكرس عشرة آلاف ساعة في التدريب، فإن علامات العبقرية والنبوغ والإبداع ستظهر عليه لا محالة.

في عام 1999م قام العالم وليام ديكنز William Dickens من معهد بروكنجز Brookings Institution في واشنطن بوضع نظرية وجدت إجماعًا شبه كامل بين علماء اليوم. تقول النظرية إن من كانت لديه صفة جينية متوارثة تعطيه أفضلية في مجال معين، فإنه سيبدع إذا سمح له بالاستمرار في ذلك المجال.

إن الشرط الأساسي لتحقيق العبقرية هو فهم الذات والإمكانات الفطرية التي يمتلكها كل إنسان وأي نوع من الذكاء يتميز به عن غيره.

إن الحكمة التي طالما جعلها الفيلسوف سقراط شعارًا له (اعرف نفسك) وقوله (ما نحن إلا ما نفعله مرارًا وتكرارًا)، فالإعاقة الحقيقية للإبداع والعبقرية هي إعاقة فكرية نفسية، هي الجهل بقدرات الإنسان وملكاته الطبيعية والتقاعس عن الاستثمار في تلك الملكات والمواهب الفطرية.

لقد وصف الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الفاروق عمر بالعبقري، فقال (لم أر عبقريًا من الناس يفري فريه) أي لم أر سيدًا يعمل ويقطع عملاً بإجادة كما يفعل عمر. لقد كان سر عبقرية عمر أنه رجل عمل يسبقه نظر وتقدير. لم يكن رجل تنظير بل رجل تقدير وتخطيط وتنفيذ. عمل وجهد ومثابرة وإصرار وتحد، والأخذ بالأسباب عبادة لله الخالق الوهاب، فرارًا من قدر الله إلى قدر الله، فكان العبقري عمر رضي الله عنه وأرضاه.

لقد تعودنا في المدارس أن نعطي تقديرًا مرتفعًا للطالب المتميز في قدراته اللغوية والحسابية، وبذلك حددنا من يستحق التفوق والأولوية، لكن أين ذهبت بقية الملكات والقدرات الذكائية؟ قتلناها فهي خارج النطاق، نطاق الاهتمام والرعاية المدرسية، خاصة في مجتمعاتنا التي ترى الطاعة والخضوع والاستسلام قيم تربوية، فيخضع أبناؤنا لرؤيتنا ويتفوقون فيما نريده لهم بصرف النظر عن قدراتهم وملكاتهم وما يحبون. ودون هذا الحب لما يدرسون ويتعلمون ويفعلون يصعب عليهم أن يستثمروا الساعات الطوال من التدريب، كما تشترط قاعدة العشرة آلاف ساعة فلا يبدعون، ويقعون في الفخ الداخلي وهو التركيز على نقاط الضعف لإصلاحها وتجاهل نقاط القوة والاستثمار فيها.

لقد شاء الله أن يخلق الناس متنوعين وأن يخلق داخل كل نفس قدرات مختلفة، وهذا يعطي الحياة ثراءً ونموًا وتفاعلاً وتكاملاً قال تعالى:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾

ولذلك جعل الله أوجه الذكاء متعددة، ويسر لكل إنسان بما أودعه من ملكات، فالإبداع مشروط بمعرفة الإنسان نفسه (من عرف نفسه فقد عرف ربه)، ومعرفة ملكاته وإمكاناته ومواهبه التي حباها الله إياه وتكريس الوقت الكافي لصقل هذه المواهب الفطرية وتحويلها إلى عبقريات. إنها كما وصفها أينشتين (كل إنسان عبقري، ولكننا إذا حكمنا على السمكة بقدرتها على تسلق الأشجار، فإنها ستعيش طوال عمرها وهي تعتقد أنها غبية).. فكلٌ ميسرٌ لما خُلِقَ لهُ.

لمشاهدة فيديو الذكاء والعبقرية إضغط هنا

أو

من هنـا

# دقيقة فقط



**محمد بن عبدالله الفريح**

**كاتب ومفكر**

@malfriah

«فقط دقيقة»... حكمة أعرضها للبيع، فمن يشتريها مني في زمن نهدر فيه كثيرًا وكثيرًا من الساعات دون فائدة؟

كنت أقف في دوري على شباك التذاكر؛ لأشتري بطاقة سفر في الحافلة إلى مدينة تبعد نحو 330 كم، وكانت أمامي سيدة ستينية قد وصلت إلى شباك التذاكر، وطال حديثها مع الموظفة التي قالت لها في النهاية: الناس ينتظرون، أرجوك تنحّي جانبًا. فابتعدت المرأة خطوة واحدة لتفسح لي المجال، وقبل أن أشتري بطاقتي سألت الموظفة عن المشكلة؟ فقالت لي: إن هذه المرأة معها ثمن بطاقة السفر، وليس معها يورو قيمة بطاقة دخول المحطة، وتريد أن تنتظر الحافلة خارج المحطة، وهذا ممنوع. فقلتُ لها: هذا يورو، وأعطيها البطاقة، وتراجعتُ قليلًا، وأعطيتُ السيدة مجالًا لتعود إلى دورها بعد أن نادتها الموظفة مجددًا.

اشترت السيدة بطاقتها، ووقفت جانبًا، وكأنها تنتظرني، فتوقعت أنها تريد أن تشكرني، ولكنها لم تفعل، بل انتظرتْ لتطمئن إلى أنني اشتريت بطاقتي، وسأتوجه إلى ساحة الانطلاق، فقالت لي بصيغة الأمر: احمل هذه، وأشارت إلى حقيبتها.

كان الأمر غريبًا جدًّا بالنسبة إلى هؤلاء الناس الذين يتعاملون بلباقة ليس لها مثيل، دون تفكير حملت لها حقيبتها، واتجهنا معًا إلى الحافلة، ومن الطبيعي أن يكون مقعدي بجانبها؛ لأنها كانت قبلي تمامًا في الدور.

حاولت أن أجلس جهة النافذة؛ لأستمتع بمنظر تساقط الثلج الذي بدأ منذ ساعة، وأقسم بأن يمحو جميع ألوان الطبيعة معلنًا بصمته الشديدة: أنا الذي آتي لكم بالخير، وأنا من يحقّ له السيادة الآن! لكن السيدة منعتني، وجلستْ جهة النافذة دون أن تنطق بحرف، فرحتُ أنظر أمامي، ولا أعيرها اهتمامًا، إلى أن التفتُّ إلي تنظر في وجهي، وتحدق فيه، وطالت التفاتتها دون أن تنطق ببنت شفة، وأنا أنظر أمامي، حتى إنني بدأت أتضايق من نظراتها التي لا أراها، لكنني أشعر بها، فالتفتُّ إليها،

عندها تبسمتْ، قائلة: كنت أختبر مدى صبرك وتحملك.

- صبري على ماذا؟
- على قلة ذوقي، أعرفُ تمامًا فيما كنت تفكر.
- لا أظنك تعرفين، وليس مهمًّا أن تعرفي.
- حسنًا، سأقول لك لاحقًا، لكن بالي مشغول كيف سأردّ لك الدين.
- الأمر لا يستحق، لا تشغلي بالك.
- عندي حاجة سأبيعها الآن، وسأردّ لك اليورو، فهل تشتريها أم أعرضها على غيرك؟
- هل تريدين أن أشتريها قبل أن أعرف ما هي؟
- إنها حكمة، أعطني يورو واحدًا؛ لأعطيك الحكمة.
- وهل ستعيدين لي اليورو إن لم تعجبني الحكمة؟
- لا، فالكلام بعد أن تسمعه لا أستطيع استرجاعه، ثم إن اليورو الواحد يلزمني؛ لأنني أريد أن أردّ به ديني.

أخرجتُ اليورو من جيبي، ووضعته في يدها، وأنا أنظر إلى تضاريس وجهها، مازالت عيناها جميلتين تلمعان كبريق عيني شابة في مقتبل العمر، وأنفها الدقيق مع عينيها يخبران عن ذكاء ثعلبي، مظهرها يدلّ على أنها سيدة متعلمة، لكنني لن أسألها عن شيء، أنا على يقين أنها ستحدثني عن نفسها، فرحلتنا مازالت في بدايتها.

أغلقت أصابعها على هذه القطعة النقدية التي فرحت بها، كما يفرح الأطفال، عندما نعطيهم بعض النقود، وقالت: أنا الآن متقاعدة، كنت أعمل مدرّسة لمادة الفلسفة، جئت من مدينتي لأرافق إحدى صديقاتي إلى المطار، أنفقتُ كل ما كان معي، وتركتُ ما يكفي لأعود إلى بيتي، ولكن سائق التاكسي أحرجني، وأخذ مني يورو زيادة، فقلت في نفسي: سأنتظر الحافلة خارج المحطة، ولم أكن أدري أنه ممنوع، أحببتُ أن أشكرك بطريقة أخرى، بعدما رأيت شهامتك، حيث دفعت عني دون أن أطلب منك، الموضوع ليس ماديًّا، ستقول لي: إن المبلغ بسيط، سأقول لك: أنت سارعت بفعل الخير دونما تفكير.

قاطعتُ المرأة مبتسمًا: أتوقع أنك ستحكين لي قصة حياتك، لكن أين البضاعة التي اشتريتُها منك؟ أين الحكمة؟

- «فقط دقيقة».
- سأنتظر دقيقة.
- لا، لا، لا تنتظر، «فقط دقيقة»... هذه هي الحكمة.
- ما فهمت شيئًا.
- لعلك تعتقد أنك تعرضتَ لعملية احتيال؟
- ربما.
- سأشرح لك: «فقط دقيقة»، لا تنس هذه الكلمة.



في كل أمر تريد أن تتخذ فيه قرارًا، عندما تفكر فيه، وعندما تصل إلى لحظة اتخاذ القرار أعطِ نفسك دقيقة إضافية، ستين ثانية، هل تعلم كم من المعلومات يستطيع دماغك أن يعالجها خلال ستين ثانية؟ في هذه الدقيقة التي ستمنحها لنفسك قبل إصدار قرارك قد تتغير أمور كثيرة، ولكن بشرط.

- وما الشرط؟

- أن تتجرد عن نفسك، وتُفرغ في دماغك، وفي قلبك جميع القيم الإنسانية والمثل الأخلاقية دفعة واحدة، وتعالجها معالجة موضوعية، ودون تحيز، فمثلًا: إن كنت قد قررت أنك صاحب حق، وأن الآخر قد ظلمك، فخلال هذه الدقيقة، وعندما تتجرد عن نفسك ربما تكتشف أن الطرف الآخر لديه حق أيضًا، أو جزء منه، وعندها قد تغير قرارك تجاهه، إن كنت نويت أن تعاقب شخصًا ما فإنك خلال هذه الدقيقة بإمكانك أن تجد له عذرًا، فتخفف عنه العقوبة، أو تمتنع عن معاقبته وتسامحه نهائيًا، دقيقة واحدة بإمكانها أن تجعلك تعدل عن اتخاذ خطوة مصيرية في حياتك، لطالما اعتقدت أنها هي الخطوة السليمة، في حين أنها قد تكون كارثية، دقيقة واحدة ربما تجعلك أكثر تمسكًا بإنسانيتك وأكثر بعدًا عن هواك، دقيقة واحدة قد تغير مجرى حياتك وحياة غيرك، وإن كنت من المسؤولين فإنها قد تغيّر مجرى حياة قوم بأكملهم، هل تعلم أن كل ما شرحته لك عن الدقيقة الواحدة لم يستغرق أكثر من دقيقة واحدة؟

- صحيح، وأنا قبلتُ برحابة صدر هذه الصفقة وحلال عليكِ اليورو.

- تفضل، أنا الآن أردّ لك الدين، وأعيد لك ما دفعته عني عند شباك التذاكر، والآن أشكرك كل الشكر على ما فعلته لأجلي.

أعطتني اليورو، فتبسمتُ في وجهها، واستغرقت ابتسامتي أكثر من دقيقة، لأنتبه إلى نفسي، وهي تأخذ رأسي بيدها، وتقبله قائلة: هل تعلّم أنه كان بالإمكان أن أنتظر ساعات دون حلّ لمشكلتي، فالآخرون لم يكونوا ليدروا ما مشكلتي، وأنا ما كنتُ لأستطيع أن أطلب يورو من أحد.

- حسنًا، وماذا ستبيعيني لو أعطيتك مئة يورو؟

- سأعتبره مهرًا، وسأقبلك زوجًا.

علت ضحكتُنا في الحافلة، وأنا أُمثلُ أنني أريد النهوض ومغادرة مقعدي، وهي تمسك بيدي قائلة: اجلس لا تخف، فأنا متزوجة، وأنا أقول لها: فقط دقيقة، فقط دقيقة....

لم أتوقع أن الزمن سيمضي بسرعة، كانت هذه الرحلة من أكثر رحلاتي سعادة، حتى إنني شعرت بنوع من الحزن، حين غادرت الحافلة، عندما وصلنا إلى مدينتها في منتصف الطريق تقريبًا.

قبل ربع ساعة من وصولها حاولت أن تتصل من جوالها بابنها: كي يأتي إلى المحطة ليأخذها، ثم التفتت إليّ قائلة: على ما يبدو أنه ليس عندي رصيد، فأعطيتها جوالي لتتصل، المفاجأة أنني بعد مغادرتها للحافلة بربع ساعة تقريبًا تسلّمت رسالتين على الجوال: الأولى تفيد أن هناك من دفع لي رصيدًا بمبلغ يزيد على ١٠ يوروهات، والثانية منها تقول فيها: كان عندي رصيد في هاتفي، لكنني احتلتُ عليك لأعرف رقم هاتفك، فأجزيكَ على حسن فعلتك، إن شئت احتفظ برقمي، وإن زرت مدينتي فاعلم أن لك فيها أمًّا ستستقبلك، فرددتُ عليها برسالة قلت فيها: عندما نظرتُ إلى عينيك خطر ببالي أنهما عينان تعبتان، لكنني لم أتجرأ أن أقول ذلك لك، أتمنى أن تجمعنا الأيام ثانية، أشكرك على الحكمة، واعلمي أنني سأبيعها بمبلغ أكبر بكثير.

**«فقط دقيقة»، لا تنسَ هذه الكلمة، في كل أمر تريد أن تتخذ فيه قرارًا، عندما تفكر فيه، وعندما تصل إلى لحظة اتخاذ القرار أعطِ نفسك دقيقة إضافية، ستين ثانية هل تعلم كم من المعلومات يستطيع دماغك أن يعالجها خلال ستين ثانية؟ في هذه الدقيقة التي ستمنحها لنفسك قبل إصدار قرارك قد تتغير أمور كثيرة»**

# حركة الترجمة العربية في العصور الوسطى: عوامل بروزها و انحدارها



**عمر عثمان جبق**

محاضر في قسم اللغة الإنجليزية بكلية المعلمين في جامعة الملك سعود

«كان أثر حركة الترجمة إلى اللغة العربية في العصور الوسطى بالغاً في نقل مختلف العلوم الإنسانية وحفظها من الزوال. ونشطت هذه الحركة و استمرت حوالي قرنين متواصلين من الزمن نظرا لحث مصادر التشريع الإسلامي الرئيسة - القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة - على طلب العلم و بذل الغالي والرخيص في سبيل بلوغه وجاء تشجيع الخلفاء العباسيين في تلك الحقبة، وتعطش العلماء والباحثين و المترجمين، جاء مكملا لهذه الحركة التي أبدعت في التراجم والنقل إلى اللغة العربية»

ليس هنالك أدنى شكّ من أنّ المعرفة والعلوم على اختلافهما هما غاية تسعى إلى اكتسابها كل الأمم، ماضيها وحاضرها، ولذلك أسهمت، وما تزال، في تقدّمها كل الشعوب، ولعلّ الترجمة قامت، وما تزال، بحفظ القسم الأكبر من هذه العلوم والمعارف كونها، أي الترجمة، عملية إبداع دقيقة. ومن هنا يمكننا القول إن المترجمين العرب في العصور الوسطى قد أسهموا مساهمة كبيرة في تطوير المعرفة والعلوم وحفظهما من الزوال. و في هذا الصدد تقول الباحثة Maria Rosa Menocal ماريا روزا مينوكال (2005): في حين كان الأمويون في كلّ من دمشق و قرطبة متعطّشين للثقافة والتمازج الثقافي، إلا أنّ عباسيي بغداد هم من قاموا برعاية مشروع الترجمة الذي استمر أجيالاً، إذ قاموا بترجمة جلّ الأعمال اليونانية الفلسفية والعلمية التي كان من الممكن أن تضيع إلى الأبد لولا هذا المشروع.

لقد ازدهرت حركة الترجمة إلى اللغة العربية (التعريب) في العهد العباسي، حيث غدت مهنة راسخة ومستقلة، ففي عام 832 م قام الخليفة العباسي المأمون ابن هارون الرشيد بتأسيس (بيت الحكمة) لترجمة مختلف الكتب العلمية و الفلسفية من لغات حيّة في ذلك الوقت إلى اللغة العربية. ومما شجّع المترجمين على القيام بأعمال الترجمة إلى اللغة العربية هي الحاجة إلى المعرفة على صعيدهم الشخصي، وتشجيع حكّامهم لهم الذين كانوا يسعون إلى تأسيس دولة قويّة مسلّحة بالعلم و المعرفة. وبدأ المترجمون مهنتهم الجديدة في بغداد، عاصمة الخلافة العباسية آنذاك، بحماس ودأب لا مثيل لهما على الإطلاق. وكما هو الحال مع كلّ حركة فكرية، أخذت حركة الترجمة هذه بالانحدار رويداً رويداً، وفقاً لمبدأ العرض والطلب وقلّة المادّة العلمية المترجمة.

## أولاً: دور القرآن والسنة

في البداية، لا بد لنا من الجزم بأنّ عطش الإنسان المعرفي كان، ولا يزال، القوة الدافعة لتحقيق التقدّم والازدهار. وفيما يتعلّق بالمسلمين فإنّ طلب العلم واجب على كلّ مسلم ومسلمة، وفي الحقيقة، يحثّ كلّ من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المسلمين على طلب العلم واكتسابه بغض النظر عن طبيعة هذا العلم، دينية كانت أم دنيوية. ففي القرآن الكريم يقول الله تعالى في سورة الزمر، الآية رقم (9):

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾

كما ويروي البيهقي والترمذي عن محمد ﷺ أنه قال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة).

ومن ثم لا عجب أنّ هذه الأدلة من القرآن والسنّة على فضل العلم واكتسابه قد دفعت المترجمين العرب في العصور الوسطى إلى السعي لاكتساب المعارف والعلوم عن طريق الترجمة. علاوة على ذلك، فقد جاءت الترجمة كحاجة ملحّة لعرب العصور الوسطى لأنهم كانوا بحاجة إلى أن ينهلوا من العلوم الأخرى كالفلسفة والطب والفلك وغيرها. ومما أسهم في رواج حركة الترجمة وازدهارها هو قدوم صناعة الورق التي جاءت من الصين إلى بغداد، ومن بغداد وصولاً إلى الأندلس حيث انتقلت من الأندلس إلى الغرب وأوروبا.

## ثانياً: دور الخلفاء العباسيين

العامل الثاني الذي أدى إلى نجاح حركة الترجمة العربية في العصور الوسطى يكمن أيضاً في الدعم المادي الكبير الذي حظي به المترجمون في بداية عملهم من قبل الخلفاء العباسيين، وهذا بدوره جعل مهنة الترجمة عملاً مربحاً ومهماً في الدولة العباسية، وبذلك تشجّع العلماء والمترجمون على مزاولته مهنياً. فعلى سبيل المثال، كان الخليفة العباسي هارون الرشيد يرسل العلماء إلى شتى أصقاع العالم بحثاً عن العلم والمخطوطات، وفيما بعد، جنّد ابنه المأمون أفضل العلماء والمترجمين للقيام بهذا المشروع، الذي يهدف إلى نشر العلم والمعرفة، وتكلل هذا الجهد بإنشاء (بيت الحكمة). ومنح المأمون في أثناء خلافته المترجمين أعلى المناصب في البلاط تكريماً وتقديراً لجهودهم الحثيثة في إثراء التراث الإسلامي والعربي بفروع المعرفة الجديدة آنذاك، وفي هذا الخصوص يعلّق الباحث ديمتري جوتاس Dimitri (Gutas) 1998 قائلاً: في أوائل الخلافة العباسية مُنح المترجمون مناصب إدارية عالية في البلاط، وتلقوا الدعم السياسي والمادي للقيام بهذا العمل. (1998: الصفحة 54)



إذاً، فقد قدّم الخلفاء العباسيون لحركة الترجمة هذه كل الدعم المعنوي والمادي للحفاظ على دولتهم قوية ومعاصرة قدر الإمكان، لأنهم أدركوا أهمية المعرفة والعلوم في جعل دولتهم قوية وعظيمة، و لذلك غدت أمة الإسلام قوية مسلحة بالعلم والمعرفة بفضل ترجمة أشهر كتب علماء اليونان وفلاسفتهم، وهنا تقول آن آشفورد (Ann Ashford( 2004: «برزت حركة الترجمة في بغداد في القرن التاسع الميلادي نتيجة حاجة الحكّام إلى إمبراطورية قوية، وقد كانت شبكات التواصل التجارية التي لعبت دوراً أساسياً في نمو الإمبراطورية الإسلامية وتطورها كفيلة بحمل الأفكار الجديدة إلى كل أرجاء العالم».

### ثالثاً: دور المترجمين والباحثين

بالإضافة إلى ما سبق ذكره من عوامل أدّت إلى ازدهار حركة الترجمة والتعريب في العهد العباسي، لا بد لنا أن نذكر أن هذه الحركة بلغت ذروتها وأوجها بفضل الجهود الكبيرة التي بذلها المترجمون والباحثون في تلك الحقبة من الزمن.

وهنا نذكر على سبيل المثال لا الحصر مفكرين بلغت شهرتهم العالم كلّه، ماضيه وحاضره، أمثال حنين بن إسحاق والكندي وابن سينا وابن رشد والفارابي والرازي وغيرهم من علماء العهد العباسي ومترجميه، ممن كان لهم الأثر الكبير ليس فقط في حركة الترجمة في العصور الوسطى فحسب، بل في اكتشافات علمية بارزة تم التوصّل إليها في الغرب وأوروبا فيما بعد بفضل ترجماتهم وأبحاثهم.

لم يكن هناك أي شيء آخر سوى تعطّش هؤلاء العلماء والمترجمين للمعرفة ومهنيتهم ما أوقد في نفوسهم جذوة الحماس، التي جعلتهم يقومون بهذا العمل الشاق والمحفوف بالتحدي والمصاعب، ولذلك ينبغي للعالم كلّه حقاً أن يعترف على الملأ بالحقيقة الثابتة، وهي أنه دون جهود مترجمي العصور الوسطى العرب وأعمال علماء تلك الحقبة من الزمن لما تمكّن العالم اليوم من بلوغ هذا التقدم التكنولوجي على الإطلاق، وفي هذا الخصوص يقول جاتسون فيت (Gatson Weit)1973: «لم يكن هناك نقص في الرجال الموهوبين، فقد كان التدفق على بغداد هائلاً جداً كسرعة الخيّالة في أنحاء المعمورة كلها خلال الفتح العربي، أما علماء بغداد و مفكروها فقد شرعوا باكتشاف الأفكار القديمة (اليونانية والرومانية)».

### رابعاً: أهم عوامل انحدار حركة الترجمة

وكما هو الحال مع كل حركة إنسانية فكرية كان على حركة الترجمة العربية في العصور الوسطى، والتي دامت قرابة قرنين من الزمن، أن تتلاشى وتنتهي، في الحقيقة، بدأت حركة الترجمة بالتراجع تدريجياً ليس بسبب تناقص عدد المترجمين المحترفين، أو بسبب قلّة الدعم المادي ولكن بسبب عدم وجود أعمال وكتب مناسبة يمكن ترجمتها، إذ إن معظم كتب الطب والفلك و الفلسفة كان قد تم ترجمتها إلى اللغة العربية آنذاك.

وفي هذا الخصوص يعلّق ديمتري جوتاس (1998) قائلاً: «لم يكن هنالك ما تقدّمه (حركة الترجمة) ليس بمعنى أنه لم تكن هناك كتب يونانية دنيوية يمكن ترجمتها، بل بمعنى أنه لم توجد هناك كتب يونانية أخرى تقدمها الحضارة اليونانية على صلة وثيقة باهتمامات ومتطلبات كل من الباحثين والعلماء والمترجمين ورعاة الترجمة على حد سواء». (1998: الصفحة 152)

بالإضافة إلى ذلك، أضحت اللغة العربية في ذلك الوقت اللغة المهيمنة، كما توفّرت أيضاً أهم الكتب العلمية والفلسفية باللغة العربية توفّراً غزيراً، و بعبارة أخرى، كان دور اللغة العربية في أن تكون بؤرة الاهتمام والبحث العلمي، أي أن يتم ترجمة اللغة العربية وعلومها وثقافتها إلى لغات حيّة أخرى في ذلك الوقت، ومن جديد يعلّق ديمتري جوتاس (1998) على هذه النقطة قائلاً: «توقفت حركة الترجمة أو انتهت لأن البحث العربي الفلسفي والعلمي الذي أوجد الحاجة إلى حركة الترجمة منذ البداية قد أصبح الآن مستقلاً (عن فلسفة الشعوب الأخرى وعلومها)». (1998: الصفحة 152)

### الخاتمة

وأخيراً يمكننا أن نقول وبكل ثقة: إن حركة الترجمة العربية في العصور الوسطى أسهمت في العلوم والمعارف الإنسانية وأثرتها أيضاً، فقد حثت مصادر التشريع الإسلامي الأساسية المتمثّلة في القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة المترجمين العرب في العهد العباسي على السعي لاكتساب المعارف والعلوم، كما تم الإشارة إليه سابقاً، كما أن الخلفاء العباسيين أظهروا إعجاباً وشغفاً بالعلم والمعرفة، وترجموا هذا الإعجاب والشغف إلى فعل حقيقي، عندما تبنّوا ودعموا وأشرفوا أيضاً على عملية الترجمة بأنفسهم، فهم أي الخلفاء العباسيين، لم يدعموا المترجمين في عملهم الصعب دعماً مادياً فحسب، بل منحوهم منازل مرموقة في إدارة الدولة، وبالطبع لولا وجود علماء ومترجمين متمكّنين لما كان بالإمكان الشروع بأي مشروع ترجمة على هذا المستوى، وعندما أصبحت اللغة العربية لغة بارزة وسائدة في تلك الحقبة ومع تناقص المصادر التي ينبغي ترجمتها أخذت حركة الترجمة العربية في العصور الوسطى بالاضمحلال رويداً رويداً إلى أن انتهت.

**«لم يكن هناك أي شيء آخر سوى تعطّش هؤلاء العلماء والمترجمين للمعرفة ومهنيتهم ما أوقد في نفوسهم جذوة الحماس التي جعلتهم يقومون بهذا العمل الشاق والمحفوف بالتحدي والمصاعب»**

# الأعمال الأدبية
# بين تقديم أجوبة عن أسئلة قرائها وتأجيلها




بقلم: د. رشيد وديجي

الكلية المتعددة التخصصات

الرشيدية/ المغرب


إن قيمة العمل تكمن في الواقع الذي ينتجه ذلك العمل، وكذا من خلال تفاعله التاريخي مع قرائه المتعاقبين، هذا التفاعل هو الذي يبرز غنى الأثر الأدبي، ومدى قدرته على الاستمرارية من خلال الإجابة على الأسئلة الراهنة والمحتملة.

فقيمة العمل الأدبي تبقى رهينة بالقارئ وتفاعله مع هذا العمل، على اعتبار أن كل نص أدبي جديد، ومهما بلغت جدته تتعايش داخله معايير جمالية قديمة وأخرى حديثة، فأفق التوقع السائد لا يمكنه أن يكون ثابتًا ومشتركًا بين جميع القراء، لأنه إدراك نسبي يتمظهر بطرق مختلفة حسب الشروط الثقافية والتاريخية، وحسب المناخ السياسي والاجتماعي للذات المدركة.

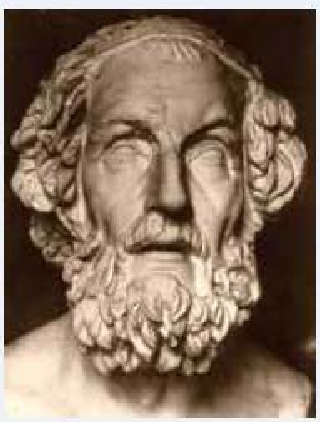
إن النص الأدبي يحمل في طياته إجابات عن أسئلة ماضية وأخرى آنية، باعتبار أن إعادة تشكيل أفق التوقع للجمهور الأول لا تكمن فقط في قياس المسافة الجمالية، ولكنها تكمن أيضًا في استخلاص الأسئلة التي أجاب عنها النص في الماضي مع الأخرى التي أجاب عنها في الحاضر قصد إبراز الاختلاف التأويلي في فهم الأثر الأدبي بين الأمس واليوم، هذا يعني أن النص الأدبي لا يحمل في داخله معنى جوهريًا خالدًا، و أنه ليس كتلة جامدة، ولكنه كيان حيوي متجدد بتجدد أسئلتنا الموجهة إليه وبتجدد إجاباته على الدوام، فكل نص أدبي هو جواب عن سؤال تقديري لقارئ مفترض، ويبقى هذا السؤال مشروط بمجموعة من الشروط التي أحاطت بالقارئ وقت طرحه لهذا السؤال إلا أن الاختلاف يكمن في الأجوبة، حيث نجد نصوصًا تتغير إجاباتها بتغير واقع قرائها، فتقدم بذلك أجوبة متعددة تجيب على راهنية السؤال، فمثلاً: النصوص الملحمية نموذج (الإلياذة) و (الأوديسة) قدمت أجوبة لأسئلة الإنسان الإغريقي المحمل بالفكر الديني والميثولوجيا والمتجذر في الواقع اليوناني، لهذا كانت أجوبة هذه النصوص مقنعة لمتلقي يبحث عن النفس الدرامي، وتعدد الآلهة، ويؤمن بقداسة الأبطال المخلصين و المدنين.

«إن النص الأدبي يحمل في طياته إجابات عن أسئلة ماضية وأخرى آنية، باعتبار أن إعادة تشكيل أفق التوقع للجمهور الأول لا تكمن فقط في قياس المسافة الجمالية»

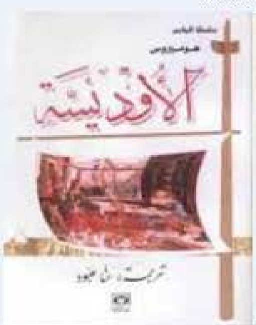
أما إذا رجعنا إلى تلقي هذه الأعمال في الثقافة الغربية، سنجدها تقدم إجابات أخرى مخالفة نظرًا لطبيعة السؤال المقدم إليها، فمتلقي هذه الأعمال يبحث فيها عن الجمالية الشعرية كون الإنسان الغربي في حقبة ما بين الحربين بدأت تشغله قضايا إنسانية جديدة شرع يبحث لها عن إطار فوجده في الدراما والميثولوجيا الإغريقية.

وأما إذا عدنا إلى تلقي هذه الأعمال في المجتمعات العربية الإسلامية، فالأمر سيختلف حتمًا فلا مجال هنا للحديث عن موضوعات كبرى: الإله، والقضاء والقدر، والعدالة الإلهية، والأخلاق... لأن طبيعة المتلقي العربي الإسلامي وخصوصياته لا تسمح بالتعدد في الآلهة، ولا بعبثية القدر والقضاء إذا نتحدث هنا عن مجموعة من الطابوهات، لهذا جاءت مساءلة هذه الأعمال من جوانب مختلفة، حيث كان البحث عن إجابة مخالفة لارتبطت بالواقع العربي وهزاته، ونكباته، وإحباطاته الفكرية والثقافية، وقد نجد أن بعض الأعمال الأدبية لا تلقى اهتمامًا، لأنها لم تقدم أجوبة عن أسئلة قرائها وقت صدورها، بل أجلت هذه الأجوبة إلى وقت لاحق.

وهكذا، سيبقى قارئ هذه النصوص مؤجلاً إلى أن تجيبه هذه النصوص عن أسئلته، أخذًا بمسلمة أن كل نص هو جواب عن سؤال، فالسؤال قد يكون قراءة جديدة، وإعادة فهمه وتأويله.



هوميروس






# مجددًا أنا وليلى!



بقلم: عماد أحمد العالم

يقولون: ليلى في العراق مريضةً؛ فيقول يا ليتني كنت الطبيب المداويا....

هي ليلى مجدداً التي أتحدث عنها وأجعل منها رمزاً خصصته، ليكون أيقونة العشاق من الرجال المحبين والمصابين بجنون الهوى، الذي لا يعرف الحدود والفواصل، فهوى أنفسهم أقوى من أن تحجر عليه ظروف قاهرة، على الرغم من أنها الظروف نفسها التي ستنجح يوما في منعهم من تحقيقهم مرادهم ونيلهم ود محبوبتهم وخطفهم لها؛ ولن أقول: على حصانٍ أبيض، فتلك رؤى باتت مستهلكة، ولا تعبر عن جموح عاشق ومحبة لم يكن الحظ بجاورهما أو يمر بجانبهما، لينالا وداً تمنيا أن يجمعهما سويةً.

ليلى الأنثى هي واحدة كاسم، وإن تعددت مسمياتها وأزمان تواجدها، من العامرية ليلى التي تصغر عاشقها قيس بأربعة أعوام، وولدت في بلدة اسمها النجوع وتسمى اليوم باسمها، والتي هي عاصمة محافظة الأفلاج بمنطقة الرياض، تربت مع قيس ورعيا الغنم سويةً، فلما كبرت حجبت عنه فازداد هيامًا بها، ورفض أهلها أن يزوجوها به ليس لأنها غنية وهو فقير كعادة المسلسلات العربية، وإنما لاشتهار حبهما بين العرب، فهام المسكين على وجهه ينشد الأشعار، ويتغنى بحبها إلى أن وجد ملقى بين أحجار وهو ميت فيها، ومما قال أذكر يائيته التي أورد بعض أبياتها:

أَعُدُّ الليالي لَيلَةً بَعدَ لَيلَةٍ
وَقَد عِشتُ دَهراً لا أَعُدُّ اللَياليا

وَأَخرُجُ مِن بَينِ البُيوتِ لَعَلَّني
أُحَدِّثُ عَنكِ النَفسَ بِاللَيلِ خالِيا

أَراني إِذا صَلَّيتُ يَمَّمتُ نَحوَها
بِوَجهي وَإِن كانَ المُصَلّى وَرائِيا

وَما بِيَ إِشراكٌ وَلَكِنَّ حُبَّها...
وَعُظمَ الجَوى أَعيا الطَبيبَ المُداوِيا

أُحِبُّ مِنَ الأَسماءِ ما وافَقَ اسمَها
أَوَ اشبَهَهُ أَو كانَ مِنهُ مُدانِيا

إِذا اكتَحَلَت عَيني بِعَينِكِ لَم تَزَل
بِخَيرٍ وَجَلَّت غَمرَةً عَن فُؤادِيا

هِيَ السِحرُ إِلّا أَنَّ لِلسِحرِ رُقيَةً
وَأَنِّيَ لا أُلفي لَها الدَهرَ راقِيا

عَلى مِثلِ لَيلى يَقتُلُ المَرءُ نَفسَهُ
وَإِن كُنتُ مِن لَيلى عَلى اليَأسِ طاوِيا

حاول والده كما يُقال أن ينسيه محبوبته، فأخذه لمكة، فما كان من العاشق الولهان أن تعلق بأستار الكعبة وقال:

اللهم زدني بليلى حبًا و بها جنونًا
و كلفا ولا تنسني ذكرها أبدا

في زمنٍ آخر وفي قصيدة مصطفى محمود التي لا تنسى (الليل يا ليلى) كانت ذكرى ليلى مسائية، يعاتب المساء فيها محبًّا ويسأله عن ليلى، فيما طيور باحته تفتقد ليلى وذكراها، وتسأل المحب لها عن حالها، أو يا تُرى إن كانت قد سافرت ليلى....! يعود بعدها وبمدة حسن المرواني ليحكي لنا قصة (أنا وليلى) التي عذبت محبها بعد أن تركته يعاقر حزنه الذي يعصره في مقبر آهاته...هي ليلى الاسم نفسه ولكنها ليلى أخرى فاتنة بشفاه مختلفة مكتنزة، ظن معشوقها أن رحيقها سيكون من نصيبه، لكن ضعف الحال أو قلته كانت سبباً لتكون ليلى من نصيب غيره من الرجال الذين تمتلئ جيوبهم بما يزغزغ عيون أي ليلى ويجعلها تؤثر راحتها على نيل قلب محبوبها!

اسم ليلى لمن لا يعرف معناه، يعني نشوة الخمر أو بدء السكر أو النشوة، وأم ليل هي الخمر السوداء، وقد يكون الاسم المختوم بالألف الممدودة دالاً على الليلة الواحدة، فيكون أصله (ليلة)، وعلى هذا المعنى نُقل الاسم إلى الإنكليزية.

يبدو أن اسم ليلى ارتبط لدى المحبين بالشقاء والعذاب، فكل محبي ليلى أو على الأقل من تداعوا لمسامعنا تجرعوا مرارة الهوى وحسرة الفراق وألم البعاد؛ لكنهم وفي الوقت نفسه ودون أن يعوا قد تركوا لنا تراثاً شعرياً يحيينا بليلى وكل ما يمت لليلى، فقيس العاشق العظيم الذي اتهموه ظُلماً وبُهتاناً بالجنون، وقد كان عاقلاً مُخلصاً في حبه ذاق من هوى ليلى ما كفل له المرارة أن تكون مزامنة لاسمه كلما ذُكر، والشاعر المرواني وكما يُقال (وقد يكون إشاعة) فرض قصيدته بعد تجربته الشخصية التي مرّ بها، ويُقال أيضًا: إن ليلى الحقيقية محبوبته قد بكت حين استمعت لها في الأمسية الشعرية التي قرأ بها القصيدة!!

طبعاً قد يكون هذا القول أو تلك القصة من نسج خيالنا الذي يرى في لوعة الحب إحساساً أجمل من الحب ذاته؛ لكن إحساسي يقول لي دوماً أن الليل وليلى مرتبطان ومتلازمان وبينهما عهد من عهود الهوى الغير المعلن، ولهما وقعٌ وهاجسٌ في نفس المُحب، وإن لم يكن من العدل حصر الهوى بليلى، إلا أني أجد أنها «أي ليلى» أسعدتنا برمزية الحب لها وإن كانت قد لوعت محبيها..

«يبدو أن اسم ليلى ارتبط لدى المحبين بالشقاء والعذاب، فكل محبي ليلى أو على الأقل من تداعوا لمسامعنا تجرعوا مرارة الهوى وحسرة الفراق وألم البعاد»

# قصيدة الحمامة للشاعر السوري أنور العطّار



**هاني أنور العطار**

كأني بشاعر دمشق وغرّيدها المِفَن أنور العطار رحمه الله يعبر عن أحزان أهل الشام اليوم لمفارقتهم الوطن وتشردهم في البلدان وذلك على لسان حمامة نائحة في قصيدته البديعة الحمامة التي يناهز عمرها السبعين عاماً ونيفاً، وهي من ديوانه (ظلال الأيام) الصادر في دمشق عام 1367هـ / 1948م والذي أعيدت طباعته في عام 1434هـ - 2013م في الرياض.

وفي أحد عشر بيتاً شعرياً تخص الشاعر أنور العطّار في قصيدته هذه وفي نبوءة عجيبة آلام أهل الشام في يومنا هذا على لسان حمامة نائحة من بنات الهديل، وهي تودع بستانها، و بلسان المجهول الغائب يروي لنا بأن الحمامة، و هي هنا كناية عن كل سوري لم تجد من يسمع آلامها إلا بستانها، وهنا الرمز للبستان إلى سورية جمعاء...

وفي الأبيات الثلاث الأخيرة، نرى الشاعر أنور العطّار يشير إلى سبب كل هذا الألم، ويتساءل؟ هل زمر القانصين الذين جاؤوها من كل حدب وصوب.

خطَّ هذه القصيدة بريشته المبدعة على ورق البردي المذهب الفنان المصري الحاذق (طاهر عبد القادر عمارة) خطاط مصحف الفيصل..

وكل الشكر للعلامة النبيل الوفي د. يحيى محمود ابن جنيد الأمين العام لمركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية.



## الحَمامَة

ونائحةٍ من بناتِ الهديلِ — تبثُّ إلى الروضِ أحزانها
عَراها من الدهرِ غُلبُ الخطوبِ — فهبّتْ تودّعُ بستانها
وفي الصدرِ من وجدها حسرةٌ — تكادُ تفتّتُ جثمانها
وعزَّ عليها فراقُ الغصونِ — وما يملكُ القلبُ هجرانها
ففيها مغارسُ عهدِ الهوى — سقتها الغمائمُ هتّانها
وفيها سريرُ الصِّبا ما يزالُ — يحنُّ فيرجعُ ألحانها
فأذرتْ مدامعها الغالياتِ — وقد خضّبَ الدمعُ أجفانها
وأهوتْ على النهرِ تخفي الدموعَ — وتودعُ جنبيه تحنانها
أطافتْ بها زمرُ القانصين — وأفقدها الدهرُ أعوانها
فضمّتْ إلى صدرها أفرخاً — أثارَ التفرّقُ أرنانها
وراحتْ تنوحُ فسيحَ الغياضِ — وتبكي مدى العمرِ أوطانها

من ديوان ظلال الأيام للشاعر أنور العطّار

# بطاقات




**شعر: محمود أسد**

سوريا - حلب


.1.

كلَّ عامٍ أسكبُ الشوقَ
و أرمي زهرةً قبلَ حضوري
للمقابرْ
ثمَّ أبكي مُنتحِماً
بحديثٍ أو رسالاتٍ
مضَتْ عَنْها عقودٌ
لم نُسافرْ..

.2.

كلَّ يومٍ أسمَعُ الصوتَ
أنيناً.
أستدينُ الحزنَ
أسعى بانكسارٍ و هسيسٍ
صوبَ قلبٍ
قد أتاني مُنتبِحاً
كلَّ أركانِ فراغي
زارعاً بعضَ المواجعْ..

.3.

كلُّ أيامي
و ساعاتِ انتظاري
تحتويني في زوايا الهجرِ
والوجهُ حزينٌ
و صديقي يَشْتَعِلُ الدفءَ
و الحبُّ أمامي.
يُشْتهيني للمكائدْ
أجمَعُ الحبَّ و أرويهِ
و أبقى ظامئاً
تحرقني ريحُ همومي..

.4.

كنتُ شخصينِ
و كنّا في هدوءٍ
نتغنّى، أتلوّى
قذَفَتْنا نظرةٌ قبلَ الحوارِ..
كان يحكي
كنتُ أُصغي.
كنتُ أشكو
كان يمضي،
مُقلتانا في احتراقٍ،
أخذَ العمرُ صديقي
فأتى يحمِلُ جاهاً
و مضى دونَ الثقافةْ..

.5.

هرّةٌ قد لكزَتْني
لم تقلْ. عفواً
و لم تبدِ انزعاجاً
و كأنّي قطعةٌ
قبلَ رحيلِ الوقتِ
فتّشتُ طويلاً
في ثقوبِ القلبِ
راحتْ منْ زمانٍ
غيرَ أنّي لم أزلْ في وجعِ
منذ الفراقِ..

.6.

قبلةٌ نامَتْ
على أرصفةِ العمرِ
كعصفورٍ يبيعُ الخوفَ صيفاً
ثمَّ يحبو في احتراقٍ
لرمادِ الوقتِ
و الجمرُ لسانٌ
قيّدوهُ بالمخاوفْ..

.7.

نشرةُ الأخبارِ ضاعَتْ.
بعضُهُمْ قال: ابحثوا عنها
فإنَّ الوقتَ يمضي
و عيونُ الناسِ غامتْ..
بعضُهمْ قال: أعيدوا
نشرةَ الأمسِ
وبعضٌ قالَ: ماتَتْ
قال طفلٌ: لا أريدُ الموتَ
إنْ حلَّ حُرِمتُ الأمْنَ
غابَتْ عن عيوني
ضحكةٌ بين الدفاترِ

.8.

عادَ حزني ببريدِ
نامَ دهراً
عادَ قلبي مُفلساً
يحمِلُ زاداً منْ نُعاسٍ
يركبُ الخوفَ، و يُغطّي
نُزُفَ عينٍ
داهَمَتْها تُركاتٌ منْ قبائلَ..
عُدتُ للنفسِ حسيراً
عُدتُ مخموراً
فكانتْ تغزلُ الدمعَ
و ترمي شالَها فجراً
و تجري للبيادرْ..

.9.

خرجَ الطفلُ بعيداً
أطلقَ الضحكةَ
و اصطادَ فراشاتٍ،
جرى خلفَ كنارٍ
فإذا بالذئبِ ينقضُّ سعيداً
سارقاً بَسْمَتَهُ
ثمَّ الفراشةَ..

.10.

بيتُهُ كان بعيداً و بسيطاً
ربّما كان وضيعاً.
بسمةُ الأولادِ و الأمُّ
و شيءٌ منْ صفاءٍ
و كثيرٌ منْ قناعةْ.
قد أحالَتْهُ نعيماً و رياضاً
يسكنُ الحبُّ على الرملِ
و تشدو فوقَهُ
آلامُ طفلٍ
و عدوهُ بالإمارةْ..

# غازي القصيبي .. المثير للجدل دائماً



**مثير للجدل دائماً... هو غازي القصيبي، في غيابه كما في حضوره. لطالما كان الأديب والوزير السعودي «صانع» سجالات في السياسة والأدب والشعر والفكر... وحتى الدبلوماسية، هو الذي تبوأ منصب سعادة السفير مرتين: الأولى لدى البحرين عام 1984، والثانية لدى بريطانيا عام 1992.**

القصيبي شاعر له نتاج في فن الرواية والقصة، مثل: (شقة الحرية)، و(دنسكو)، و(أبو شلاخ البرمائي)، و(العصفورية)، و(سبعة)، و(سعادة السفير)، و(الجنيّة)، و(العودة سائحاً إلى كالفورنيا)، و(هما) و(حكاية حب)، و(رجل جاء وذهب) آخر أعماله كانت (أقصوصة الزهايمر) التي نشرت بعد وفاته. أما في الشعر فلديه دواوين (معركة بلا راية)، و(أشعار من جزائر اللؤلؤ)، و(للشهداء)، و(حديقة الغروب)، وله إسهامات صحافية متنوعة أشهرها سلسلة مقالات في عين العاصفة، التي نُشرت في جريدة الشرق الأوسط إبان حرب الخليج الثانية، التي نشرت مؤخراً في كتاب. كما أن له مؤلفات أخرى في التنمية والسياسة وغيرها منها: (حياة في الإدارة)، و(التنمية)، و(الأسئلة الكبرى) و(عن هذا وذاك)، و(باي باي لندن) ومقالات أخرى (الأسطورة ديانا)، و(100 من أقوالي غير المأثورة)، و(ثورة في السنة النبوية)، و(حتى لا تكون فتنة).

ذكره معلمه والأديب الراحل عبد الله بن محمد الطائي ضمن الشعراء المجددين في كتابه (دراسات عن الخليج العربي) قائلاً:

«أخط اسم غازي القصيبي، وأشعر أن قلبي يقول ها أنت أمام مدخل مدينة المجددين، وأطلقت عليه عندما أصدر ديوانه أشعار من جزائر اللؤلؤ الدم الجديد، وكان فعلاً دماً جديداً سمعناه يهتف بالشعر في الستينيات، ولم يقف، بل سار مصعداً، يجدد في أسلوب شعره، وألفاظه ومواضيعه».

يعد كتاب حياة في الإدارة أشهر ما نشر له، وتناول سيرته الوظيفية وتجربته الإدارية حتى تعيينه سفيراً في لندن، وقد وصل عدد مؤلفاته إلى أكثر من ستين مؤلفاً. له أشعار لطيفة ومتنوعة ورواية سلمى، وترجم كتاباً للمؤلف اريك هوفر باسم المؤمن الصادق.

كان لغازي ميول أدبية جادة، ترجمها عبر دواوين أشعار كثيرة، وروايات أكثر، وربما يعدّ بسببها أحد أشهر الأدباء في السعودية، ويظل رمزاً أو نموذجاً جيداً لدى الشباب منهم، وكالعادة، فالمبدعون لابد أن تحاصرهم نظرات الشك، وتلقى إليهم تهم لها أول لكنها بلا آخر، لا سيما وأن متذوقي الأدب قلة، ومحبي حديث الوعاظ المتحمّسين غالبية، وابتدأت تلك المشاحنات من جانب بعض الوعاظ مع إصداره لديوانه الشعري الثالث (معركة بلا راية) عام 1970، إذ ساروا في وفود وعلى مدى أسابيع عدة، نحو الملك فيصل لمطالبته بمنع الديوان من التداول، وتأديب الشاعر، فأحال الملك فيصل، الديوان، لمستشاريه ليطلعوا عليه ويأتوه بالنتيجة، فكان أن رأى المستشارون أنه ديوان شعر عادي لا يختلف عن أي ديوان شعر عربي آخر، إلا أن الضجة لم تتوقف حول الديوان واستمرت الوفود بالتقادم للملك فيصل، فما كان منه سوى أن شكل لجنة ضمت وزير العدل ووزير المعارف ووزير الحج والأوقاف، لدراسة الديوان أو محاكمته بالأصح، وانتهت اللجنة إلى أن ليس في الديوان ما يمس الدين أو الخلق، ولا تمر هذه الحادثة في ذهن القصيبي إلا ويتذكر موقف الملك عبد الله بن عبد العزيز من هذه القضية، إذ يقول غازي: «سمعت من أحد المقربين إليه أنه اتخذ خلال الأزمة موقفاً نبيلاً وحث الملك فيصل على عدم الاستجابة إلى مطالب الغاضبين المتشنجة».

فيما بعد توالت الإصدارات بين دواوين الشعر والروايات والكتب الفكرية، ومن دواوينه الشعرية : (صوت من الخليج)، الأشج، (اللون عن الأوراد)، (أشعار من جزائر اللؤلؤ)، (سحيم)، و(للشهداء)، ومن رواياته (شقة الحرية)، (العصفورية)، (سبعة)، ( هما)، ( سعادة السفير)، ( دنسكو)، (سلمى)، (أبو شلاخ البرمائي)، وآخر إصداراته في الرواية: (الجنية)، وفي المجال الفكري له من المؤلفات :(التنمية)، (الأسئلة الكبرى)، (الغزو الثقافي)، (أمريكا والسعودية)، (ثورة في السنة النبوية).

والكتاب الذي وثق فيه سيرته الإدارية والذي حقق مبيعات عالية: (حياة في الإدارة) وكذلك كتاب (الوزير المرافق) الذي وثق فيه سيرته كمسؤول في وزارة من خلال بعثات الوفود الرسمية ومرافقته للضيوف الرسميين.

وأحدثت معظم مؤلفات الشاعر والروائي والمفكر غازي القصيبي ضجة كبرى حال طبعها، وكثير منها مُنع من التداول في السعودية لا سيما الروايات، ثم فسحت لتداولها.

وعلى المستوى الروائي يكاد يُجمع المهتمين بأن روايتي (شقة الحرية) و(العصفورية)، هما أهم وأفضل وأشهر ما كتب القصيبي، في حين احتفظ ديوان معركة بلا راية بمرتبته المتقدمة بين دواوين الشعر الأخرى، وفي المؤلفات الأخرى، يبقى (حياة في الإدارة) واحداً من الكتب التي حققت انتشاراً كبيراً على الرغم من أن ثقافة القراءة كانت شبه معدومة حينها في المجتمع؛ حيث نشر الكتاب عام 1998.

وفي الشأن الأدبي، لا تخلو سيرة غازي الوزير من مواقف طريفة تسبب بها غازي الأديب، إذ يروي القصيبي أنه في أحد الأيام إبان وزارته في الكهرباء والصناعة حصل انقطاع للكهرباء في أحد أحياء الرياض، وكان القصيبي يذهب إلى مقر الشركة ويتلقى الشكاوى الهاتفية مع موظفي السنترال كلما حدث انقطاع، فلما كان ذاك اليوم، وفي أثناء تلقيه للاتصالات على سنترال الشركة، حادثه مواطن غاضب قائلاً: «قل لوزيركم الشاعر أنه لو ترك شعره واهتم بعمله لما انقطعت الكهرباء عن الرياض»، يقول غازي، «فقلت له ببساطة: شكراً.. وصلت الرسالة! فقال: ماذا تعني؟ قلت: أنا الوزير! قال: أحلف بالله! فقلت: والله. وكانت هناك لحظة صمت في الجانب الآخر قبل أن تهوي السماعة».

ودارت نزاعات فكرية ثقافية بين غازي ومجموعة من الصحويين في أواسط التسعينيات، حولها الصحويون من اختلافات إلى خلافات، ووصلوا فيها إلى مراحل متقدمة من الطعن في غازي عبر المنشورات والمنابر وأشرطة الكاسيت، فأصدر غازي حينها كتابا بعنوان (حتى لا تكون فتنة) وهو بمثابة الرسالة، يوجهها نحو من جعلوا أنفسهم خصوماً له، وانتهت تلك المرحلة بسلام.

وعلى الرغم من أن البعض يرى أدب غازي متطرفاً نحو اليسار، إلا أن لآخرين رأيهم بأنه متطرفاً لليمين، لا سيما في أدبياته الأخيرة، وخصوصاً (قصيدة الشهداء) التي مجّد فيها غازي للعمليات الانتحارية في فلسطين، وأشاع بعضهم حينها أنها كانت سبباً لتدهور علاقاته الدبلوماسية في بريطانيا، فكان أن نقل من السفارة عائداً إلى الوزارة، وذلك بعد نحو عام من نشر القصيدة.

وهنا يستشهد القصيبي بقول الأديب السوري محمد الماغوط: «ما من موهبة تمر دون عقاب»، ويضيف عليها: «وما من موقف يمر بلا ثمن»!

توفي عن عمر يناهز السبعين عامًا في يوم الأحد 5 رمضان 1431 هـ الموافق 15 أغسطس 2010 الساعة العاشرة صباحاً في مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض بعد معاناة طويلة مع المرض.

وعندما بلغ الشاعر غازي القصيبي 65 عاماً كتب هذه القصيدة (حديقة الغروب) التي نُشرت في 22 أيار/مايو 2005:

خمسٌ وستُّونَ.. في أجفان إعصارِ ... أما سئمتَ ارتحالاً أيّها الساري؟
أما مللتَ من الأسفارِ.. ما هدأت ... إلا وألقتك في وعثاءِ أسفارِ؟
أما تَعبتَ من الأعداءِ.. مَا برحوا ... يحاورونكَ بالكبريتِ والنارِ
والصحبُ؟ أين رفاقُ العمرِ؟ هل بقيَتْ ... سوى ثُمالةِ أيامٍ.. وتذكارِ
بلى! اكتفيتُ.. وأضناني السرى! وشكا ... قلبي العناءَ!... ولكن تلك أقداري
أيا رفيقةَ دربي! لو.. لديّ سوى ... عمري.. لقلتُ: فدى عينَيْكِ أعماري
أحببتني.. وشبابي في فتوّته ... وما تغيّرتِ.. والأوجاعُ سُمّاري
منحتني من كنوز الحُبّ.. أنفَسها ... وكنتُ لولا نداكِ الجائعَ العاري
ماذا أقولُ؟ وددتُ البحرَ قافيتي ... والغيم محبرتي.. والأفقَ أشعاري
إنْ سألوكِ فقولي: كان يعشقني ... بكلِّ ما فيهِ من عُنفٍ.. وإصرارِ
وكان يأوي إلى قلبي.. ويسكنه ... وكان يحمل في أضلاعهِ داري
وإنْ مضيتُ.. فقولي: لم يكن بَطَلاً ... لكنه لم يقبّل جبهةَ العارِ
وأنتِ!.. يا بنت فجرٍ في تنفّسه ... ما في الأنوثة.. من سحرٍ وأسرارِ
ماذا تريدين مني؟! إنّني شَبَحٌ ... يهيمُ ما بين أغلالٍ.. وأسوارِ
هذي حديقة عمري في الغروب.. كما ... رأيتِ... مرعى خريفٍ جائعٍ ضارِ
الطيرُ هَاجَرَ.. والأغصانُ شاحبةٌ ... والوردُ أطرقَ يبكي عهدَ آذارِ
لا تتبعيني! دعيني!.. واقرئي كتبي ... فبين أوراقِها تلقاكِ أخباري
وإنْ مضيتُ.. فقولي: لم يكن بطلاً ... وكان يمزجُ أطواراً بأطوارِ
ويا بلاداً نذرت العمر.. زَهرتَه ... لعزّها!... دُمتِ!... إني حان إبحاري
تركتُ بين رمال البيد أغنيتي ... وعند شاطئكِ المسحورِ.. أسماري
إن ساءلوكِ فقولي: لم أبعْ قلمي ... ولم أدنّس بسوق الزيف أفكاري
وإن مضيتُ.. فقولي: لم يكن بَطَلاً ... وكان طفلي.. ومحبوبي.. وقيثاري
يا عالم الغيبِ! ذنبي أنتَ تعرفُه ... وأنت تعلمُ إعلاني.. وإسراري
وأنتَ أدرى بإيمانٍ مننتَ به ... عليّ.. ما خدشته كل أوزاري
أحببتُ لقياكَ.. حسن الظن يشفع لي ... أيرتُجَى العفو إلاّ عند غفّارِ؟

بعد خمس سنوات، كتب قصيدته الجديدة (سيدتي السبعون) في 7 آذار/مارس 2010، وقد بلغ السبعين من عمره:

ماذا تريدُ من السبعينَ.. يا رجلُ؟ ... لا أنتَ أنتَ.. ولا أيامك الأُوَلُ
جاءتك حاسرةَ الأنيابِ.. كالحةً ... كأنّما هي وجهٌ سَلّه الأجلُ
أوّاه! سيدتي السبعونَ! معذرةً ... إذا التقينا ولم يعصفْ بيَ الجَذَلُ
قد كنتُ أحسبُ أنّ الدربَ منقطعٌ ... وأنّني قبل لقيانا سأرتحلُ
أوّاه! سيدتي السبعونَ! معذرةً ... بأيِّ شيءٍ من الأشياءِ نحتفلُ؟!
أبالشبابِ الذي شابتْ حدائقُهُ؟ ... أم بالأماني التي باليأس تشتعلُ؟
أم بالحياة التي ولَّتْ نضارتُها؟ ... أم بالعزيمة أصمت قلبَها العِلَلُ؟
أم بالرفاقِ الأحباءِ الأُلى ذهبوا ... وخلّفوني لعيش أُنسُه مَلَلُ؟
تباركَ الله! قد شاءتْ إرادتُه ... ليَ البقاءَ.. فهذا العبدُ ممتثلُ!
والله يعلمُ ما يلقى.. وفي يدِه ... أودعتُ نفسي.. وفيه وحدَه الأملُ

كتب غازي القصيبي هذين البيتين:

أغالب الليل الحزين الطويل
أغالب الداء المقيم الوبيل
أغالب الآلام مهما طغت
بحسبي الله ونعم الوكيل

# (هنري الرابع) نموذج لمسرح شكسبير



إبراهيم عبد الله الخويطر
كاتب ومفكر

يقول العقاد: «كاتب الأعاجيب ليس في سيرته خبر عجيب من يوم مولده إلى يوم وفاته».

مولده: ولد وليم جون شكسبير في قرية (سترا تفورد اون أفون) في بريطانيا في 23 نيسان/أبريل عام 1564م، ودرس الابتدائية في تلك القرية التي أصبحت فيما بعد مزاراً للمهتمين بالأدب والثقافة في العالم.

يحدثنا لويس عوض عن شكسبير إلى إنكلترا موفداً من قبل (الأهرام) ليشارك في الاحتفال على مرور أربعمائة عام على مولد شكسبير وذلك في عام 1964م. وكان الاحتفال بقرية الشاعر، كانت الوفود المشاركة تزور قبره، وبيته الذي نشأ فيه، ومدرسته التي درس فيها الابتدائية والكنيسة التي فيها قبره.

لقد درس الابتدائية في قريته، وعمل فيها مدة بعد تخرجه، وتزوج في تلك القرية، ثم تركها إلى (لندن) بعد الزواج عام 1584م. غادر القرية بعد الزواج بثلاث سنوات، ولم يعد إليها إلا بعد أن اعتزل العمل وعمره 48 عاماً وذلك قبل وفاته بأربع سنوات فقد توفي عام 1616م، ودفن في قريته.

والده: (جون) ابن مزارع يعد برجوازياً محترماً لأنه إحدى بنات (روبرت اردن)، وهو رجل صاحب مزرعة وجذوره تعود إلى نبيل كاثوليكي، وقد حصلت والدته من والده على إرث على بعض الأموال، و50 هكتاراً من أرض زراعية، من هنا جاءت لأبيه البرجوازية، وقد استغل والده الأرض في الزراعة ولعله لم يوفق، فاشتغل بأموال زوجته التي ورثتها من أبيها في صناعة القفازات ثم في صناعة الصوف، وقيل إنه يملك ثلاثة منازل يؤجرها غير منزله الذي يسكن وقد عمل ذواقة للجعة ثم شرطياً ثم أمين صندوق ثم عضواً في المجلس التشريعي، وأخيراً عمل مشرفاً على أملاك الملك.

إخوته: ثمانية، مات منهم ثلاثة في سنّ الطفولة وبقي منهم خمسة، أربعة أبناء وبنت، كان (وليم) أكبر الأخوة الباقين.

عصره: هو العصر المتعارف عليه بعصر النهضة الذي يبدأ من منتصف القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن السابع عشر فبعد وصول أسرة (آل تيودور) إلى الحكم حيث وضعت للاقتتال بين الأسرة الحاكمة والصراع على الحكم، واستبدلت بالقتال الحوار، فاستقرت الدولة واتجه الحكام إلى التعليم والثقافة، ولعل وصول (إليزابيث) إلى الحكم عام 1559م وذلك قبل مولد «شكسبير بخمس سنوات يعد فتحاً مبيناً للتعليم والثقافة فشملت المدارس جميع القرى وأصبح العصر يعرف بالعصر الاليزابيثي، وكانت من ضمن الاهتمامات الثقافة، افتتاح المسارح للترفيه عن كبار الدولة وأصحاب التجارة والنفوذ؛ والفضل يعود لتطور المسرح لـ(إليزابيث) الملكة فقد كان المسرح محارب قبلها من قبل رجال الدين فهم يصفون الممثلين بالمتعجرفين وشذاذ الآفاق؛ وكانوا يطاردونهم في كل مكان، ففي عام 1572م صدر قانون حيث يُسمح للممثلين بتأليف جمعيات لتسلية الكبار (في الدولة) ومن هنا أصبح المسرح مرعياً من قبل الدولة والأرستقراطيين ثم بدأت الفِرَق تستغل أوقات فراغها بين الخصلات لتقديم عروضهم في الأرياف، وكان والد شكسبير يشرف على الفندق الذي تقام فيه المسرحيات، وكان معجباً ومحباً للمسرح.

أما ابنه (وليم) فكان هو الآخر معجباً بالفرق الممثلة ولكن لا يسمح له بالدخول، فكان عمله هو الانتباه للخيول والمحافظة عليها وسياستها حتى يخرج أصحابها من مشاهدة المسرح، ثم أصبح يحضر المسرح ويعطي دوراً ثانوياً، ثم استعان به أعلام المسرح آن ذاك بالمراجعة لبعض النصوص المسرحية، ثم مشاركتها في التأليف، وقد كان التأليف المسرحي محتكراً على أسماء لامعة أبرزها ثلاثة، مالرو، و بيل، وجرين؛ وكان مالرو أبرزهم وقد لمح في الفتى الناشئ ملامح الذكاء، فقربه وبدأ يعطيه بعض النصوص ليراجعها تحت إشرافه، ولما جاء دور مسرحية هنري السادس بأجزائها الثلاثة التاريخية.

فاقتسمها المؤلفون الثلاثة فيما بينهم، فكان نصيب الجزء الأول مالرو و بيل الجزء الثاني، والجزء الثالث من نصيب مالرو وتعد مسرحية (هنري السادس) أول جهوده المسرحية، فقد أسند إليه مالرو و بيل، نصوصاً من الجزء الثاني والثالث، فكان مجهوده فيهما كبيراً أما الجزء الأول الخاص بـ(جرين) فلم يشارك فيه بادئ الأمر لأن جرين يحسد هذا الفتى ويخاف تفوقه، لكن جرين ما استطاع أن ينجز ما أسند، فأسند الجزء إلى (الفتى شكسبير) لذا أصبحت مسرحية هنري السادس تُعد أول أعماله المسرحية لأن الجزء الأول بكامله من جهوده والجزء الثاني والثالث أنجز ما يقارب من ثلثيهما والمتتبع لسيرة هذا العبقري لا يجد فيها شيئاً خارجاً عن المألوف، لا في تعليمه ولا في بداياته المسرحية.

أقوال شكسبير وأعماله

لعل من نبّه إلى نبوغ شكسبير وعبقريته معاصره المؤرخ (كلمدن)، إذ ذكره بين نوابغ الفكر.

قال فولتير: «إن شكسبير الذي يعده الإنكليزي ك، سوفوكلي أبدع مسرحاً، وكان يملك موهبة غنية بالقوة والخصب، دون أقل شرارة من الذوق، ودون أقل معرفة للقواعد».

ملاحظة: أما قول فولتير: إن أدب شكسبير من الذوق فروعة أدبه تدل على روعة في الذوق، أما القواعد التي يشير إليها، فهي الوحدات الثلاث التي وضعها أرسطو، ولو لم يخرج لم يكن رائداً للمسرح الحديث: أما مدام دي شتايل الكاتبة الفرنسية فتقول يبدأ شكسبير أدباً جديداً، لا شك أنه تأثر بروح قصائد الشمال وشكلها ولكنه هو الذي أعطى للأدب الإنكليزي حافزه، وللفن المسرحي الانكليزي طبيعته، وقال الأديب الفرنسي ستاندهال: «يزداد إعجابي بشكسبير في كل يوم، لا أمل أبداً من قراءة أعمال هذا الرجل لأنه يعطينا أكمل صورة للطبيعة إنه الدليل الذي يناسبني»، وقال الفرنسي ساتوبريان: «يعد شكسبير واحداً من بين خمسة أو ستة أدباء أوفوا باحتياجات وغذاء الفكر ويبدو أن هؤلاء النوابغ أنجبوا وأرضعوا كل النوابغ الآخرين»، أما فيكتور هوجو فقال: «إن كل الحياة سر مغلق بين الولادة والأثم، وبين العين التي تفتح والعين التي تغلق: في أعمال شكسبير تغني الطيور، وتخضر الأعشاب وتحب القلوب، وتتحدث الغابات والجموع، ويطفو الحلم الواسع الأبدي: مَلَك شكسبير ناصية التراجيديا والكوميديا، والنغم والمهزلة والخوف والرعب، أي بكلمات أخرى الفن المسرحي بالكامل، نرى في شكسبير انتشار شعاع النبوغ في كل اتجاه» ولعل هوجو قد أوفاه حقه.

وقال الأديب الإنكليزي برادبروك: «إن شكسبير لبلادي كنسمة الهواء بالنسبة للمصاب بالاختناق، إنه نابغة الدهور»، وقال الإنكليزي كاتنهام: «لو أردت أن أوفي شكسبير حقه في إنهاض المسرح وتحبيب الشعر لدى العامة لما كفاني عشرون مجلداً، إنه موهبة،، لا يمكن سبرها ويظل السر المغلق الذي حيّر الباحثين».



وليم شكسبير

وقال الأمريكي هاري ليفن: «عندما أزور (ستراتفورد أون أفون) قرية شكسبير – أقف مشدوهاً في شوارعها وأزقتها، وأتعجب كيف أنجبت هذه الأرض العاقرة مثل هذا الخصب في الفكر».

وقال الأمريكي فارنهام حول مآسي شكسبير: «لقد وصل شكسبير إلى الحدود المأساوية، يصف لنا في مؤلفاته الأحاسيس، والمشاعر الدقيقة الموجودة في قلب الإنسان التعيس، المعذب، التواق إلى الموت للخلاص من محنته إنه في بعض المقاطع من مآسيه يجعلني أبكي»، وقال أخيراً الأديب الفرنسي الفريد دي فيني: «لا يكفي معرفة اللغة الإنكليزية لفهم هذا الرجل العظيم يجب أيضاً فهم شكسبير لأنه لغة أيضاً، ولا شك أن روح شكسبير هي لغة في حد ذاتها».

هذه الأقوال هي فيض من الإعجاب من كبار الأدباء في أنحاء العالم وهو إعجاب لم يسبقه إليه أحد ولم يلحق به أحد وشكسبير طرق جميع أنواع المسرحيات من كوميديا وتراجيديا، وتاريخية، وكان في كلها منقطع النظير، ولعلنا نأتي بنماذج من كل نوع:

نبدأ بـ(هنري الرابع): لأنه جاء بمؤامرة، وأسس لمعارك ومؤامرات دموية بين أسرتين من الأسر الحاكمة تتنافسان على الحكم فيما عُرف فيما بعد بـ(حرب الوردتين) التي استمرت ثلاثين عاماً، ولم تتوقف إلاّ عندما جاءت أسرة (آل تيودور) التي وصلت إلى الحكم عام 1485م قبيل عصر شكسبير وجعلت حدّاً للخلاف الدموي الذي عاش ثلاثين عاماً، وجعلت من الحوار طريقاً لحل الخلافات، والتي أنجبت (إليزابيث) التي يُنسب عصر النهضة التي عايشها شكسبير إليها، فيقال لـ(العصر الإليزابيثي) فقد توجت ملكة 1559م قبيل ولادة شكسبير بخمس سنوات فقد ولد عام 1564م.

فهنري الرابع والده جون كبير أسرة لنكستر التي تبنّت فيما بعد (الوردة الحمراء) شعاراً لها، كان هنري هذا دوق هرفورد ويلقب قبل أن يصبح ملكاً بـ(بولنجبروك) وكان منافسه دوق أسرة نورفوك (توماس موبري) وهم أسرة (يورك) التي أصبح شعارها فيما بعد (الوردة البيضاء) هنري هذا اتهم بتآمره على الملك (ريتشارد) وقد أنكر ذلك واتهم بدوره (توماس موبري) واسترعاهما الملك ريتشارد ليتقابلا وجهاً لوجه ليعرف الحقيقة، ولكنهما أنكر، فطلب منهما المبارزة بحضور الملك، وعندما بدأت المبارزة جادة أوقفها الملك، وكان الملك يشك في هنري لكن ينقصه الدليل، فنفاهما، وفي أثناء انشغال الملك ريتشارد بحربه مع فرنسا، تسلل هنري راجعاً بمساعدة اللوردات الغاضبين على الملك، ورجع من منفاه ولمّا رجع الملك قبض عليه هنري، وأودعه السجن وحاول أن يتخلص منه بالسم، فلما قدم الخادم له الطعام طلب الملك أن يذوقه أولاً كعادة الملوك، ولكن الخادم رفض، فكانت مشادة بين الملك والخادم، فقتله الملك بضربة من بلطة كانت قريبة منه فتدافع حراس السجن على الملك وقتلوه بنفس البلطة التي قُتل فيها الخادم فأصبح هنري ملكاً وعُرف بـ(هنري الرابع) ولأنه خائف من اللوردات الذين ساعدوه وتخلى عنهم أراد أن يصرفهم بالاستعداد للحرب المقدسة لإخراج الكفرة من بيت المقدس من هنا تبدأ المسرحية تقول المسرحية (هنري الرابع) في القصر ،،

الملك: أما من سبيل، وقد زلزلتنا الإحن، وأوهنتنا الهموم أن نحمل السلام الذي طاردته حروبنا الأهلية على أن يطمئن ويهدأ ويتنفس الصعداء من هذا الطراد الطويل، وأن يهمس في عبارات لاهثة شائعات حرب جديدة نشنها في شواطئ سحيقة بعيدة عن ديارنا ... كي لا تعود هذه الأرض الظامئة ،، إلى تدنيس أفواهها بشرب دماء أبنائنا، ولترد يدُ الدمار عن حياضها التي أضرت بها الخنادق ،، والمتاريس،،، ولتكف سنابك الخيل المتحاربة عن إهلاك حرثها ونباتها، وليقف هؤلاء المتخاصمون من أبنائها الذين قطعتهم الإحن، واندلع بينهم لهيب الحقد كم يندلع لهيب الشهب في سماء ثائرة عاصفة ليقف هؤلاء الأبناء الذين اشتبكوا أخيراً في قتال عنيف، وحرب أهلية عاتية أثخنت فيها الجراح، وأزهقت الأرواح مع أنهم جميعاً من جبلة واحدة، تجمعهم أروحة مشتركة ليقفوا صفاً واحداً على اختلاف نزعاتهم، ويسيروا معاً مؤتلفين إلى هدف مشترك متناسين خلافاتهم، وغير متنكرين لوشائج الدم والألفة والجوار التي تربطهم، وهكذا يكف سيف الحرب عن أن يرتد في نحر صاحبه، كما ترتد السكين التي لم يحسن صاحبها غمدها في يده،، فتجرحها ،، فهيا بنا أيها الأصدقاء نجند قوة من الإنكليز ونقودها إلى الأرض المقدسة حيث قبر المسيح الذي نحن جنده الآن، والذي تعاهدنا وارتبطنا تحت الصليب المقدس أن نحارب في سبيله هيا نقود هذه الحملة من الرجال.

***

(لكن ابن عمه اللورد «وستمورلند» المكلف بتنظيم الحملة) يفاجئه بقوله:

– وستمورلند: مولاي، لقد كان إنقاذ هذه الحملة على الفور موضع البحث الجدي، واتخذت عدة من التدابير لمواجهة تكاليف الحملة وتعيين قوادها ولكن أمس انقلب

الأمر .... حين وفد رسول من الغال يحمل أنباء سيئة (الخبر السيئ أفشل الحملة هم اللوردات الذين غدر بهم ثاروا ضده ولعل ما زاد من غضب الملك أن الذي قاد الحملة ضده هو ابن أحد اللوردات (هنري برسي، ويلقب «هوتسبر» هذا الشاب الفارس الشجاع، أوقع لغريمه هزيمة منكرة في جيش الملك بينما أكبر أبناء الملك «هال أو هنري» أمير ويلز يلهو ويمرح في المواخير يمارس الدعارة وقطع الطرق، فنقلت إليه أخبار ما قام به ذلك الفارس المغوار فقال):

– الملك: لشد ما يحزنني قولك هذا، ويحملني على أن أرتكب خطيئة الحسد للورد (نورثمبرلند) يقصد والد هوتسبر على أن يكون له مثل هذا الابن المبارك الذي يلهج المجد بذكره هذا النبت المستقيم العود وسط الأحراش المليفة.

***

إني لأقرأ آيات جده بينما أنظر لأرى ابني هاري الشاب وقد تلطخت صفحته بالشقوة والعار.

(لورد شكسبير حوار يدور بين (هال) وصديقه الماجن المستهتر الذي لا يعرف من اليوم إلا ليله، لقطع الطريق أو اللهو مع النساء صديق الأمير يدعى «فولستاف»).

– فولستاف «وهو يستيقظ» هيه ياهال في أي ساعة من النهار نحن يافتى.

– الأمير: يالك من غبي تبلد ذهنك من طول معاقرتك للنبيذ المعتق، وحل إزارك بعد العشاء، ونومك على المقاعد بعد الظهر .... ألخ.

– فولستاف: لقد أصبت الهدف حقاً، وكدت تفهمني الآن ياهال فنحن الذين نسرق الأكياس، لا نعمل إلا في ضوء القمر، ولا نحسب أوقاتنا إلا به وبالنجوم السبعة ...

(يدخل واحداً من أصحابهما واسمه (بوان) يخبرهم بصيد ثمين تجار وحجاج قادمون، للتخطيط لسرقتهم)

– بوان: ... اسمعوا أقول لكم يافتيان ستجدون غداً صباحاً في الساعة الرابعة مع البكور في (جادزهيل) حجاجاً في طريقهم إلى (كانتربري) وقد حملوا معهم قرابين ثمينة كما تجدون تجاراً مسافرين إلى لندن وقد ورمت أكياسهم من النقود، لقد أعددت لكم جميعاً أقنعة تستخفون بها، وما عليكم إلا أن تعدوا خيولكم ...

(ولأن (فولستاف) ذلك البطين في منتهى الجبن وإن كان يدعي خلاف ذلك فأراد «بوان مع الأمير» أن يكتشفاه على حقيقته فدبرا له مزحة، نوردها في هذا المقطع).

– بوان: والآن ي أميري المحبوب، اركب معنا غداً، فإن لديّ مزحة ولكني لا أستطيع أن أقوم بها وحدي. سنترك (فولستاف) و باردولف و بيتو، وجادشل، يسرقون هؤلاء الرجال الذين أعددنا لهم كميناً من قبل.

ويستغرق شكسبير في أحوال هذه الجماعة في وصف ما يحدث بينهم من خلافات في الحان من سخرية بعضهم من بعض على سبيل المثال، ليقول لنا كم هذا الأمير غارق في غيّه بعيد كل البعد عما يتطلبه الملك من جدية وتضحيات خصوصاً في هذه الأيام العصيبة التي يكون فيها أبوه الملك في أشد الحاجة إلى أبنائه وفي مقدمتهم ولي عهده. فالملك تكالبت عليه الظروف ما بين جماعة ثائرة ضده بما فيهم الأسقف الكبير وبين المرض الذي أخذت نوباته تصرعه بين مدة وأخرى. وسنورد مقاطع أخرى تحكي عن مجالس أنسه ودعابات أصدقائه، وبين مواقف الأمير الأخيرة مع أبيه عندما رجع بصدق التوبة وبجدية الشاب المخلص المهيأ للملك.

يقول فولستاف – وهو كبيرهم الذي علمهم المجون والاستهتار.

– فولستاف: إني أحدثك يا هاري بحرقة الدمع لا بنشوة الشراب، وبلوّعة الأسى لا يغمره السرور أحدثك لا بلساني فحسب، ولكن بآلامي أيضاً. ومع ذلك فهناك رجل فاضل (يقصد نفسه) طالما لاحظته في صحبتك ولكني لا أعرف اسمه.

– الأمير: أي نوع من الرجال هو إن أذنت لي يا مولاي؟

– فولستاف: رجل طيب ذو مهابة مفرط في السمن طلق المحيّا ضاحك السن عليه سمة النبلاء، عمره يجاوز الخمسين فيما أظن، أو يقترب من الستين. لقد تذكرت اسمه الآن فهو يدعى فولستاف، فإذا كان هذا الرجل منغمساً في الشهوات، فقد خدعني مظهره. لأني توسمت الفضيلة في يا هال. وإذا كانت الشجرة تعرف بثمارها، وكانت الثمرة تنم عن أصلها فقد حق لي أن أؤكد لك أن فولستاف هذا تنطوي جوانحه على الفضيلة. فاحتفظ به لنفسك وخلّ بينك وبين الآخرين.

(العتاب المر من الملك – هنري الرابع – لابنه (هاري) أمير ويلز وأمير الغال أي (فرنسا)).

الملك: (يخاطب ابنه) لست أدري أهي مشيئة الله أن تجري الأمور على هذا النهج تكفيراً لذنب جنيته فيما سلف... فقضى في غيبه الذي لا يرد أن يخرج من صلبي.. من ينتقم لخطيئتي ويكون عليّ سوط عذاب بلى ... إن سلوكك في أمور حياتك يحملني على الاعتقاد بأن عناية الله قد اختارتك لتكون آلة الانتقام الرهيب، والسيف المسلط على رأسي للتكفير عن آثامي، وإلاّ فقل لي: بأي شيء آخر يمكنك أن تفسر هذه الشهوات الجامحة الدنيئة... وهذه النزوات والفعال الرخيصة المبتذلة السوقية، وهذا الانغماس في الملذات النابية والصحبة الجافية كتلك التي تسوقك وتجري في عروقك .. وكيف يمكن أن تتمشى هذه السقطات وكيف يساير قلبك النبيل هذه المباذل إلا إذا كان هو نفسه مبتذلاً ساقطاً.

(مقطع وهو يشكو الأرق ويحسد الفقير على راحة البال والصحة) يقول:

الملك: «مخاطباً نفسه: ترى كم ألف من أفقر رعاياي في هذه الساعة نائمون.

أيها النوم .. أيها النوم الجميل يا ظئر الطبيعة الحاني» بالله ألا قلت لي، كيف أزعجتك وحرمت أجفاني لذة الرقاد .. وسلبت حواسي نعمة النسيان؟

ويحك أيها النوم كيف تؤثر الجحور الجسية برعايتك وتهجر القصور الفسيحة المعطرة .. ويحك أيها النوم .. كيف تغشى عيون النوّام فوق الوسائد الخشنة المقلقة وتغرقهم لجنة النعاس والذباب من حولهم يطن طنيناً يؤرق الجفون وتفضلها على الأسرة العالية ذات الكلات النفيسة التي تضم مخادع الملوك ومن حولك أنغام حلوة تنساب في رقة تغري بالسبات العميق.

ويحك أيها الإله الوسنان لمَ تختار مثولك بين الرعاع والسوقة وعلى الفرش الخشِنة الكريهة، وتذر مخادع الملوك ذات الستر الذهبية المبرقة قلق أصحابها مؤرقون لا يهدأون، كأنما هي آلة حساب الزمن في علبتها، إذا الناقوس دق لا يغفل لهم جفن أبداً. ما لك أيها النوم تداعب عيني في السفينة وتغرقها في سبات عميق، وهو جاثم فوق الصارية العالية التي تتأرجح فوق مهد من اللجة العاتية. والريح من حولها تعصف وتثور في غير انقطاع وتمسك بناصية الأمواج العاتية.

***

تتأبّى على ملك بلمسة لجفونه المؤرقة في هدأة الليل وبالغ السكون حيث الراحة مكفولة والوسائل كلها متوافرة! ألا فلتهنأ بالنوم أيها الحقير السعيد، وما أشقى الرأس الذي يلبس التاج.

(وهذا المقطع للملك عندما جاءته أخبار سارة، بانتصارات ابنه هاري على الخصوم) يقول:

الملك: ما لهذه الأنباء الطيبة السارة؟

أوَ حتم ألاّ يواتي الحظ كاملاً أبداً، فيأتي بالخبر ملّ يديه أم لا بد من نقصان يشوبه فيخط الكلمات الطيبة الجميلة بحروف مشوهة كريهة؟

فالحظ إما أن يواتي بالشهية وينقص الطعام، كما هي الحال مع الفقراء حين يمنحهم الصحة ويحرمهم الزاد الزفير، وإما يكثر الأرزاق ويحرم الشهية كما هي الحال مع الأغنياء، حين يعطيهم السعة في العيش، ويسلبهم نعمة الاستمتاع بها.

لقد حق لي أن أحتفي الآن وأبتهج بهذه الأنباء السعيدة. ولكن بصري يضعف فلا أكاد أرى وعقلي يضرب فلا أكاد أعي.

أواه، يا رباه، أمسكوني، واقتربوا مني، فإن العلة قد اشتدت بي.

(الملك وهو على فراش الموت في قصره، وتاجه بجواره)

الملك [يخاطب المحيطين به]: أرجو أن تعفوني من كل ضجيج أيها الأصدقاء الكرام إلا أن تكون أنغاماً موسيقية هادئة تعزفها يد حانية رقيقة، لتنعش روحي المعذبة ورك (أحد اللوردات) أهدوا الموسيقى في قاعة أخرى.

الملك: ضعوا التاج هنا إلى جانبي على هذه الوسادة.

الأمير (يدخل) كيف حال الملك؟

جلوستر: في شدة المرض.

الأمير: وهل بلغته الأنباء السارة؟ أبلغوه إياها.

جلوستر: لقد تغير كثيراً حين سمع بها.

ورك: خفضوا الضجيج يا سادة.

خفض من صوتك يا سيدي الأمير.

فإن الملك، والدك يتداعى للنوم.

كلارنس: هيا نتسحب إلى القاعة الأخرى.

ورك: أتأذن يا صاحب السمو أن تصاحبنا إلى هناك.

الأمير: لا. لا. أجلس هنا وأسهر إلى جانب الملك.

يخرجون من (الباب الأيسر) لماذا يرقد التاج هنا فوق وسادته وهو رفيق، جد متعب مؤرق لصاحبه في الفراش؟

إيه أيها القلق البراق – إيه أيها الهم الذهبي، يامن تنفي الرقاد من العيون وتشهدها مفتحة الجفون مؤرقة ليالي طوال، أينام أبي وأنت جانبه؟

ولكنه نوم على أي حال ليس في نصف حلاوة نوم الخلي الذي غطى رأسه واستغرق في نوم هنيء طوال الليل. إيه يا تاج الملك!

إنك حين تشقي وتعذب حاملك تحل فوق رأسه كدرع سميك يلبس في حر النهار، فيشوي صاحبه لظاه وإن ضمن له الحماية والأمن.

(يقترب من فراش الملك) إن بالقرب من شفتيه ومخرج أنفاسه زغب ريشه، ولكنها ساكنة لا تتحرك: ترى هل يتنفس؟ لو كان يتنفس لتحركت بالضرورة هذه الخفيفة التي لا وزن لها. (يصرخ) مولاي الكريم أبتاه.

هذا هو النوم العميق بحق، هذا هو النوم السرمدي الذي أخرج عدداً كبيراً من ملوك إنجلترا من هذه الدائرة الذهبية.

إن حقك علي أن أذرف الدموع، وأن يملأ الحزن جوانحي كمداً وهذا يا أبتاه العزيز ما سأوافيكه بسخاء بدافع من طبيعتي وحتى وبنوتي الحنونة المخلصة لك: أما حقي عندك فهو هذا التاج العظيم الذي ينحدر إليّ لأني خليفتك الطبيعي وأقرب الناس إليك مكانة ونسباً.

(يضع التاج على رأسه) انظر أين حل التاج؟

إنه حيث حل حرسته عناية الله! ومهما تجمعت قوى الدنيا كلها وتركزت في ذراع مارد جبار فلن تستطيع أن تغتصب هذا الشرف الموروث أباً عن جد مني هذا التاج الذي ورثته عنك سأورثه خليفتي وأتركه له سليماً كما تركته لي (يركع على ركبته لحظة في صلاة وخشوع، ثم يقبله الأسى، فينسحب في هدوء من الباب الأيمن، سكون)

الملك: (يتحرك) ورك، جلوستر، كلارنس (يعود ورك والأمراء الصغار على عجل)

كلارنس: أينادي الملك؟

ورك: ما هي مشيئتك يا صاحب الجلالة وكيف حالك يا مولاي.

الملك: لمَ تركتموني هنا وحيداً يا سادتي؟

كلارنس: تركنا الأمير أخي هنا يا مولاي فقد أخذ على نفسه أن يجلس معك ويسهر إلى جانب فراشك.

الملك: أمير ويلز أين هو دعوني أراه إنه ليس بينكم هنا.

ورك: (مشيراً إلى الباب الأيمن) إن هذا الباب مفتوح ولا بد أنه خرج منه.

جلوستر: إنه لم يخرج إلى القاعة التي كنّا نجلس فيها.

الملك: وأين التاج؟ من أخذه من فوق وسادتي؟

ورك: حين خرجنا تركناه هنا في موضعه يا مولاي.

الملك: إذن لقد أخذه الأمير، اذهب وابحث عنه أهو متعجل إلى هذا الحد حتى يظن أن نومي موتي؟

ابحث عنه يا لورد ورك وأرسله إلى هنا، ولمه على ما فعل.

(يخرج ورك) هذه العجلة من جانبه تتحالف مع دائي وتعجل بآخرتي.

تأملوا يا أبنائي أي شيء أنتم! وانظروا كيف تسارع الطبيعة إلى الثورة والانتفاض حين يكون الذهب هو الهدف والغاية!

ألمثل هذا أفنى الآباء الحمقى الملهوفون مضاجعهم بالسهر والضني لصالح أبنائهم، وكدّوا أذهانهم بالهموم وهدّوا عظامهم في السعي والعمل؟

ألمثل هذا جمعوا وكدسوا أكوام الذهب التي حصلوها بشق الأنفس وأثقلوا ضمائرهم بخطايا جمعها بشتى الأساليب؟

و ألمثل هذا تحملوا همّ تثقيف أبنائهم، بالآداب وفنون الحرب.

إننا كالنحلة التي تشتار الرحيق من كل زهرة، حتى إذا امتلأت أفواهنا بالشهد، وأثقلت أفخاذنا بالشمع عدنا إلى الخلية لتضع حمتنا فيها وجزاؤنا على هذا الكد لا يختلف عن جزاء النحل، فنحن مثله نقتل كي يفوز غيرنا بالشهد.

إن هذا هو العلقم الذي يتجرعه الآباء على فراش الموت.

(يعود ورك) هيه أين هو ذلك الذي لم يطق صبراً حتى يقضي صفيّه المرض أمره فيّ ويسلمني للموت؟

ورك: مولاي! لقد وجدت الأمير في الغرفة المجاورة يغسل خدّيه الرقيقتين بدموع الوفاء وقد بدا الحزن المرير على ملامحه بوضوح مؤثر...

الملك: ولكن لمَ أخذ التاج من هنا؟

(يدخل الأمير هنري) انظروا ها هو ذا قادم. تعال هنا يا هنري اقترب مني. اخرجوا من هذه الغرفة ودعونا وحدنا (يخرج ورك والآخرون).

الأمير: ما ظننت قط أعود فأسمعك تتكلم ثانية.

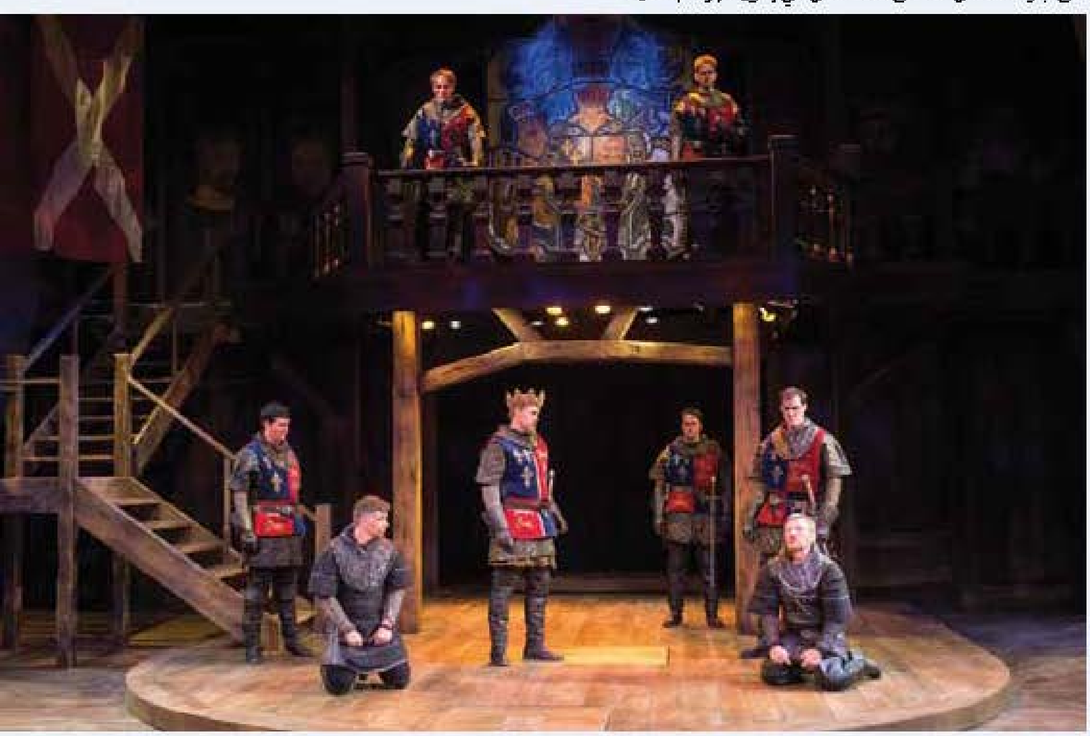
الملك: هذا الظن من بنات رغباتك يا هنري!

هل أنت متعطش إلى هذا الكرسي لا تطيق صبراً على بعده حتى لتعجل بإلباس نفسك إمارة وتاجي أتسعى إلى العظمة التي ستهلكك؟

تمهل قليلاً فإن سحابة عظمتي لم تزل تمسكها أنفاس ضعيفة، لن تلبث أن يتساقط ماؤها، وتقضي سريعاً إن نهاري قد أظلم لقد سرقت التاج الذي سيصبح بعد ساعات معدودات ملكاً لك دون حاجة إلى أن ترتكب إثماً.

وها أنت ذا قد أثبتّ ساعة موتي أن ظني فيك كان حق حقاً، فقد كانت حياتك تشهد بأنك لا تحبني وأنك أردتني على أن أموت متيقناً من هذه الحقيقة فقد كنت تخفي لي العداوة والقلى وتضمر لي الشر في أفكارك وتشحذ خناجر بعضك على قلبك الحجري لتكيل لي طعنات قبل أن أقضي بنصف ساعة إذن عجل بي واحفرْ قبري بيديك...

نكتفي بهذا الاقتباس كنموذج لمسرح شكسبير.



مشهد من إنتاج مسرح شكسبير مسرحية هنري الرابع الجزء الأول (تصوير كارل هيو)

# تاريخ جراحة التجويف البطني - الإسهامات العربية (2-2)



البروفيسور: مهند الفلوجي

لندن

أستاذ الجراحة والمشرف على:

معهد تاريخ الطب والعلوم

عند العرب والمسلمين

(www.ihams.org)

**هذا بحث تاريخي أصيل مُعمق عن الإسهام العربي في جراحة التجويف البطني مع تسليط الضوء على إنجازهم في فتح البطن جراحياً.**

**لقد أبدع أبو القاسم الزهراوي (636 – 1013 ميلادي) في كتابه: (التصريف لمن عجز عن التأليف) في أول وصف لجراحة البطن الذي لم يرد في بحوث الطب سابقاً. كما وصف طُرق إرجاع الأمعاء وتخييط جدار البطن وغلقه. وابتكر أبو القاسم الزهراوي استخدام كماشات النمل العربي لتخييط مفاغرة الأمعاء، وكان أول من خاط الأمعاء بخيوط دقيقة مستخرجة من أمعاء الحيوان.**

قلنا في الجزء الأول: إن العرب وضعوا ضروريات خمسة لإجراء العملية الجراحية الناجحة:

معرفة علم التشريح، ومعرفة العدوى والوقاية منها (التعقيم)، والتخدير لقتل الألم، والسيطرة على النزيف الدموي (ايقاف النزف)، وأخيرًا الأدوات الجراحية المناسبة للتداخل الجراحي.

شرحنا في الجزء الأول معرفة علم التشريح عند العرب والمسلمين بإسهاب.

وفي هذا الجزء الثاني (والأخير) نتناول الضروريات الأربعة الأخرى:

2. العدوى والتعقيم:

منع الإسلام اختلاط المرضى (المصابين بالأمراض المعدية) بالأصحّاء تحوّطاً؛ فكما أن الإسلام يحثّ أتباعه بعلاج المرض بأخذ الدواء ومراجعة الطبيب، فإنه أيضاً ومن باب الأخذ بالأسباب لمنع العدوى، يرشد أتباعه بالفرار من مرضى الجُذام بالطريقة التي يفرّون بها من الأسد (كما جاء في الأحاديث النبوية المتفق عليها: «فر من المجذوم كما تفر من الأسد».

وقال أيضاً: «لا يورد ممرض على مصح».

كما وينصح الإسلام بعدم الدخول إلى المناطق الموبوءة بالطاعون، أو الخروج منها وبذلك يقرر ولأول مرة بوضوح علمي مبدأ الحجر الصحي (كرنتينه) في مكافحة الأمراض المعدية (كما جاء في الحديث النبوي الذي رواه أحمد، والبخاري ومسلم عن الطاعون:

«إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا، فراراً منه» أي منعاً لسريان عدوى الطاعون).

في الواقع، عندما جاء الرازي إلى بغداد، تمّ اختياره من قبل الخليفة (من أصل 100 الأطباء) ليكون صاحب القرار لموقع المستشفى التي بدأ تأسيسها حديثا، والمسماة باسم الخليفة المعتضد (892 - 902 م).

قام الرازي بتعليق قطع من اللحم في أنحاء بغداد وزواياها المختلفة واختار مكان قطعة اللحم التي كانت آخر من تحللت وتفسخت ليكون موقع تأسيس المستشفى (دليلا على أن نقاوة هواء هذا الموقع كانت الأفضل بين المواقع كلها وأقلّها كثافةً بجراثيم التفسخ)، ومن ثم صار الرازي رئيس هذه المستشفى.

كان الرازي كيميائيا أيضاً، وقام بتحضير الكحول عن طريق التقطير (من العصير الحلو المُخمّر) وللمرة الأولى في التاريخ، ومن ثم استخدم الكحول كمطهر للجروح.

علاوة على ذلك، فإن العرب كانت تستخدم الخبز المتعفن المسحوق لذرّه في علاج التهاب اللوزتين، ومن ثم بقصد أو من دون قصد، لهم الفضل في إدخال المضادات الحيوية قبل الكسندر فليمنغ بوقت طويل.



الرازي رئيس المستشفى المعتضدي في بغداد (نسبة للخليفة العباسي المعتضد) ويُشاهد وهو يحضّر الكحول بالتقطير

ومن طرائق تطهير الجروح قبيل العمليات ما يلي:

- تطهير الجلد بالكحول (الذي اكتشفه واستعمله الرازي).
- تطهير الجلد بالصابون والماء، بدايةً، اكتشف العرب القوة التطهيرية لرغوة أوراق النبق أو السدر، ومن ثم قام كيميائيو العرب بتصنيع الصابون.
- تطهير الجلد بالقطن المغموس أو المنقوع بزيت الورد.
- تطهير الجلد بالماء والعسل.

3. التخدير:

كان استخدام نقيع الأفيون خلال العمليات الجراحية (قُبيل، في أثناء، وبُعيد العملية) شائعًا في حالات الالتهابات المصحوبة بالألم الشديد، فضلاً عن إجراء العمليات الجراحية المؤلمة، مثل قلع الأسنان وتعديل الكسور.

واستخدمت بذور الخشخاش عن طريق الفم قُبيل وبُعيد العمليات الجراحية كشراب مُسكن أو كمعجون، وغالباً ما تستخدم محلولها المغلي للاستنشاق.

ومع ذلك تحتوي ألف ليلة وليلة (ترجمة السير ر. بيرتون) إشارة إلى التخدير عن طريق الاستنشاق.

يرتبط اسم الجراح ثيودوريك البولوني (من بولونيا في إيطاليا 1206-1298)، مع الإسفنجة المنومة، ولكنه استقى معلوماته من المصادر العربية، حيث تُغمس الاسفنجة في المعطرات والمنومات ثم تُجفف؛ وتُبلل بالماء عند الحاجة وتوضع على شفاه الفم وفتحة الأنف.

وهذا الابتكار العربي يقتضي غمر ما يسمى بـ (الإسفنجة المخدرة) في محلول من الماء المغلي المخلوط بمزيج فريد من الحشيشة (من العربية الحشيش) أوبيوم

أي الأفيون (من العربية أفيون)، سي-هيوسين (من العربية ست الحسن)، و زوان (عربي يعني محلول القمح



الإسفنجة المخدِّرة (بموادها الطبية المجففة: الحشيش والأفيون وست الحسن مع الزوان) قيد الاستعمال حيث تُرطَب الإسفنجة بالماء وتوضع على فتحتي الفم والأنف للمريض، ويُشاهد في الصورة الجراح العربي المسلم أبو القاسم الزهراوي يُجري عملية فتح التجويف البطني للمريض في قرطبة الأندلس.

كحامل وناقل للمواد الفعالة بعد تبخر الماء).

كما أن العرب في الأندلس كانوا الرواد الأوائل في تصنيع الثلج الاصطناعي، وصار التجميد بالثلج يستخدم في التخدير الموضعي في العمليات الجراحية الخارجية ذوات الطبيعة البسيطة.

4. إيقاف النزيف الدموي:

يتم بالضغط (بقطنة مغموسة بالخمر مع زيت الزيتون أو بالخلّ مع زيت الزيتون) أو بربط الوعاء الدموي النازف بخيط القط أو بخيط القطن. وعدّد أبو القاسم الزهراوي (5) طرائق مهمة لغلق الجرح البطني أو التجويف البطني. (وبعضها مقتبس من خياطة الإسكافيّين والفرّاءين)، ويمكن معرفة تفاصيلها المهنية من خلال مراجعة المصادر في آخر هذا البحث.

5. الأدوات الجراحية:

اخترع العرب العديد من الأدوات الجراحية وأبدعوا في تصنيعها لحد الكمال كما هو موضح في كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) لأبي القاسم الزهراوي، وفي كتاب (كامل الصناعة الطبية) أو (الكتاب الملكي) لـ علي بن عباس، وكتاب (العمدة في صناعة الجراحة) لابن القُفّ.

تشمل هذه الأدوات الجراحية: أدوات للتشريح وللقطع والروابط المختلفة باستخدام خيوط القيثارة، وخيوط القط، والكتان والحرير.

كما واستخدم أبو القاسم الزهراوي فكوك النمل بصورة مبتكرة كـ (كُلاّبات أو كمّاشات ميكانيكية) بعد وضع رؤوس النمل على الجرح حيث ينجذب النمل كيمياوياً لسائل الجرح (Chemotaxis) فتغرسُ النملةُ فكّيها على طرفي الجرح تلقائياً، ثم تُقطع الرؤوس وتُفصل عن أجسام النمل، فيظل الرأس معلقاً بالفكّين المنغرسين بطرفي الجرح. كما ويفرز النمل سائلاً لعابياً مُعقماً يحوي حامض النمليك أو حامض الفورميك (formic acid)؛ مما يجعل من فكيها آلة تعقيم مثالية للخياطة.

كذلك تمّ استخدام الكيّ والمواد الكاوية لتخثير الدم، وخاصة في علاج المصابين بنزف الدم (هيموفيليا).



1. وضع النمل على الجرح



2. انجذاب النمل للجرح غارسة فكيها على طرفي الجرح



3. قطع رؤوس النمل بعد انغراس فكوكها على طرفي الجرح وخياطته

واخترع العربُ المسلمون أنبوب قثطرة Catheter (أو قثطرة المسماة خطأً بـ قسطرة) لتكون بمثابة أداة تصريف البول في المرضى الذين يعانون من احتباس البول. والكلمة مشتقة أصلاً من كلمة (قثا- طير) العربية المركبة من مقطعين: قثا أو قذى - طير (أي ريشة الطير أو نصلها بلا شعيراتها)، وهو أنبوب مجوّف فريد مع نهاية دقيقة مُدببة، كانت تستخدم بدايةً في الكتابة، فوسّع العرب استخدامها كأنبوبة تصريف أيضاً.

واستخدم القوز Gauze أي الشاش (والكلمة أصلاً مشتقة من اللغة العربية غزّاوي أي من غزة بفلسطين حالياً حيث موضع التصنيع الأصلي لهذا النسيج) واُستُخدمت الضمّادات المصنوعة من مواد نسيجية مختلفة استخدمها العرب لتضميد الجرح، كوسيلة لإيقاف النزيف (عن طريق الضغط) وكذلك للنظافة (وحماية الجرح).

وأحياناً، اُستخدم الضماد بشكل رباط عاصب (Tourniquet) فوق موضع لدغات الثعابين، لمنع سريان السُّم بالدم. واستخدمت الفتائل وأنابيب التصريف أيضاً في تجاويف الخُرّاجات المتقيحة. واستخدم تكويرجلدي كـ زرّاق للحقنة الشرجية (كلمة سيرينج Syringe الإنجليزية هي تحوير للكلمة العربية زرّاق Zarrag أي حقنة).

كما وابتكر الطبيب العربي المسلم (ابن زهر الأندلسي) طريقة التغذية القلزمية بحقن السوائل عبر المستقيم (Proctoclysis) للمرضى المصابين بانسداد أعلى القناة الهضمية (مثل سرطان المريء). كما واستحدث (ابن الذهبيّ) استخدام الموسعات والمصوتات للإحليل والمجاري البولية، بينما اخترع أبو القاسم الزهراوي المسحقة أي آلة سحق الحصاة (Lithotrite) مع حقنة المثانة المعدنية (Litholapexy).

واستخدمت Snares أي الصنّارات (من العربية صنّارة) على نطاق واسع، لإزالة الزوائد الأنفية، واللوزتين المتضخمتين، وكذلك لاستئصال الدوالي، واستئصال البواسير.

كان الرازي أول من أشار ونصح بضرورة فتح فتحة الرغامي (القصبة الهوائية) Tracheostomy، وقام ابن زهر بأول تطبيق تجريبي لفتح فتحة الرغامي في الحيوانات (جرّبها على الماعز)، ولكن يبقى أبو القاسم الزهراوي تاريخياً هو أول من قام بفتح فتحة الرغامي عملياً على الإنسان، حيث أجراها على أحد خُدّامه الموالي وبنجاح.

وكان ابن زهر الأندلسي أول من قام بتنبيب المرئ المنغلق (لانسداده بالسرطان) وذلك باستخدام أنابيب معدنية ضيقة مصنوعة من الفضة بوصفها علاجًا تسكينيًّا في الحالات المتقدمة (مع تغذية المريض بالسوائل عبر المستقيم – انظر أعلى).

كما وتمّ ابتكار مختلف النظارات والبصريات من قبل أبو الحسن بن الهيثم، واستخدمت على نطاق واسع في طب العيون.

واستخدم الجبسوم Gypsum (أي جبس بالعربية)، من قبل العرب لأول مرة في الكسور لكونه مسحوق يتصلّب بالماء، كما واختبرت الجبائر الخشبية من أشجار خاصة، مثل الرمان، لصلابته.




بعض الآلات التي صنعها أبو القاسم الزهراوي (كما وردت في المخطوطات العربية)

المراجع:


1. (معجم القرنوص) تأليف أ.د. مهند الفلوجي، العبيكان للنشر 2012.
(أنظر التأصيل العربي للكلمات الواردة في البحث أعلاه).
2. مقالات منشورة عالمياً باللغة الإنجليزية للمؤلف:
3. a. Al-Fallouji: History of Surgery of the Abdominal Cavity. Arabic Contributions. (The First Large Bowel Anastomosis in the Literature) International Surgery September 1993; 78:236-8.
b. Al-Fallouji: Arabic Caesarian Section: Islamic History and Current Practice Scottish Medical Journal February 1993; 38:3-4.
c. Al-Fallouji: Arabs were skilled in anaesthesia. British Medical Journal April 1997; 314:1128.

# القرآن وتحديث الخطاب الديني



د. مصطفى النشار

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب

جامعة القاهرة

**«والحقيقة أنني أعجب من كثرة الخلافات والشقاق بين المسلمين الذين يدعي كل فريق منهم أنه الأكثر: فهمًا ومعرفة بحقيقة الدين من غيره، ويصل في غيه حد تكفير الآخرين، بينما الأمر عند أعدى أعداء الإسلام لم يصل إلى ذلك الحد من الاستهانة بالدين الإسلامي والتعصب ضده!»**

لا شك أن كل مايعانيه العالمان العربي والإسلامي اليوم من مشكلات وصراعات تكاد تفتك بالعرب والمسلمين وتعوق وحدتهم ، بل تعوق الحد الأدنى من الاتفاق حول خط أحمر لا ينبغي أن تتجاوزه خلافاتهم حتى لا تتأثر مصالحهم، ويفقدون الحد الأدنى من الهيبة أمام شعوب العالم الأخرى، لا شك في أن سبب كل ذلك هو تفاوت فهمهم وتفسيراتهم لأسس ونصوص شريعتهم الإسلامية التي هي في أصلها شريعة سمحاء ومعهم أصبحت بالفعل نقيضًا لذلك في نظر كل من لا يعرف الأصول العظيمة التي تقوم عليها، واكتفي بأن يأخذ انطباعه عنها من أتباعها المعاصرين وأفعالهم الشنيعة!. ولعل السؤال الذي يلح الآن على كل مؤمن مخلص هو: متى وكيف يفيق المسلمون ويعودون إلى رشدهم وإلى صحيح دينهم، دين العقل والموعظة الحسنة والحوار بالتي هي أحسن، دين الاعتصام والوحدة وليس دين التناحر والفرقة؟!

في اعتقادي أن خير إجابة على السؤال تكمن في قول الإمام محمد عبده: «إن القرآن هو الدوحة والأصل الذي يرجع إليه، وهو الذي لا بد أن يرفع فوق كل خلاف. ولما كان اختلاف المجتهدين أصلاً من أصول الإسلام»، فقد قال الإمام «إنهم لو اجتمعوا وتناصفوا لتفوقوا وما اختلفوا».

ويا ليتهم اختلفوا في الأوجه التي توجب الاختلاف، وابتعدوا عن الشقاق والصراع، تلك الأوجه التي كان جميلاً من أبي محمد عبدالله بن محمد البطليوسي الأندلسي أن يعددها لنا في كتابه (الإنصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم)، ويحصرها في ثمانية أوجه هي:

1 - الخلاف العارض من جهة اشتراك الألفاظ واحتمالها التأويلات الكثيرة.

2 - الخلاف العارض من جهة الحقيقة والمجاز.

3 - الخلاف العارض من جهة الأفراد والتركيب.

4 - الخلاف العارض من جهة العموم والخصوص.

5 - الخلاف العارض من جهة الرواية، والمقصود من جهة رواة الحديث من حيث مدى صحة الإسناد أو فساده.

6 - الخلاف العارض من قبل الاجتهاد والقياس.

7 - الخلاف العارض من قبل النسخ وهو يعرض بين من أنكر النسخ ومن أثبته.

8 - الخلاف العارض من جهة الإباحة التي من قبل أشياء أوسع الله تعالى فيها على عباده وأباحها لهم على لسان نبيه كاختلاف الناس في الأذان ووجوه القراءات السبع ونحو ذلك.

والحقيقة أن الخلافات والاختلافات بين المسلمين الآن قد خرجت عن هذه الصور المشروعة، وفي اعتقادي الشخصي أن كثرة الاختلافات والخلافات إنما ترتبت على دخول غير المختصين مجال الدعوة والتفسير. ولو التزم المسلمون بالشروط القرآنية للمجددين الموكل إليهم الإفتاء والتفسير لما وجدنا أنفسنا أمام كل هذه الشيع والفرق المتناحرة من التيارات الإسلامية والجماعات الإسلامية التي تتراوح بين الاعتدال والتطرف إلى حد كاد يضيع معه (الإسلام الصحيح)، وهذه الشروط حددتها في اعتقادي آيتان هما:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة:24

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ الأنبياء:73.

1 - فالشرط الأول ورد في الآية الأولى في قوله ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي أن يكون منهجهم في الدعوة إلى الله مستمدًا من ما أنزل الله في كتبه وما أمر به رسله وليس من خارج هذا أو ذاك أو على خلاف منهج القرآن والرسول ﷺ.

2 - أما الشرط الثاني فورد في الآية الأولى أيضًا في قوله (لما صبروا) وهو يعني أنه لا إمامة في الدين لمن لم يصبر على الدعوة إلى الله ما بين تقصير وضعف في الأتباع، وخصومة وتجبر في الأعداء. إن الصبر هنا قد يكون دلالة على الصبر في تأمل الآيات والأحاديث قبل الإفتاء وقبل الخوض في أي حديث حول ما أتى به الله والرسول. فالدعوة ليست موكولة أبداً لمن وقف على ظاهر الآيات دون باطنها أو على طريقة ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ أو ببساطة ليست لمن اتبع منهج (اخطف واجري) بلغة العامة. فالتعرض للحديث في الدين ينبغي أن يكون أساسه المعرفة العميقة بكل ما يحيط بآياته سبحانه وتعالى والصبر على هذه المعرفة حتى يتقنها.

3 - أما الشرط الثالث في قوله تعالى الآية الأولى ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾، وهو اليقين في نصر الله وقدرته على هداية خلقه ونصر دعوته وتأييد من يقوم بهذه الدعوة. إن التيقن يعنى فلسفياً الإيمان العميق مصحوباً بالحجة والدليل العقليين، وهذا اليقين هو سند صاحبه لأن يدعو إلى الله حق الدعوة، إذ لا يمكن أن يقنع الداعية أحدًا بشيء هو متشكك إزاءه أو ليس على قناعة ويقين تام به. إن اليقين يورث اليقين ببساطة فلا يتعرض للدعوة إلا متيقن من عقيدته ومن نصر الله له.

4 - أما الشرط الرابع فقد ورد في قوله تعالى في الآية الثانية ﴿فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾، إذ إن الدعوة إلى الله لا يكفي فيها القول دون الفعل، وحتى لا تتناقض الأقوال مع الأفعال، فإن الدعوة إلى الله ينبغي أن يتوافق فيها أقوال الداعية المستندة إلى ما قال الله وقال الرسول بفعل الخيرات والمشاركة في شتى مجالات الحياة بما يعود بالخير على الناس كافة.

5 - أما الشرط الخامس فقد ورد في قوله تعالى ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾، فالمعروف أن عماد الدين الصلاة، ومن أقامها فقد أقام الدين، وبها يمكن قيادة المجتمع المسلم إلى ربه في ليله ونهاره، وذلك في صورة عبادة منتظمة يراجع فيها الإنسان نفسه على منهج الله، وفيها اتصال بين العبد وربه إذا داوم عليها الإنسان ظل محافظا على هذه الصلة.

6 - أما الشرط السادس فقد ورد في قوله تعالى ﴿وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾، وهذا شرط عملي يتبين من خلاله مدى صدق المجدد في الدعوة إلى الله، فلا إمامة بدون إعمال أركان الدين، ولا إمامة دون بذل دائم وعطاء سخي من كل ما يملكه الإنسان فداء لمبادئه، وإلا صارت هذه المبادئ مجردة لا وجود لها ولا معنى لها.

7 - أما الشرط السابع فقد ورد في قوله تعالى ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ إذ إن المداومة على العبادة هنا بمعناها العام لا تعنى ركوعا وسجودًا وقيامًا في الصلاة، أو دفعًا للأموال في الزكاة فحسب، وإنما هى كل قول أو فعل يصدر من الإنسان ابتغاء وجه الله وطلبا لمرضاته، فهو عبادة أو بتعبير آخر هي كل حركة في حياة الإنسان وفي حياة الأمة إذا توجهت بهذه الحركة إلى الله[1].

وهذه الشروط السبع تدور حول أمرين اثنين ينبغي أن يتوافرا فيمن يتعرض لأمر الدعوة والتفسير؛ أولهما: العلم الدقيق واليقين بآيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ، والثاني: أن يكون قدوة في القول والفعل وأن لا ينفصل لديه الدعوة إلى الله عن التمسك بأركان الدين وفعل الخيرات وأن تكون كل حركة في حياته لوجه الله وليس لوجه أي شيء دنيوي (شهرةً كان أو منصبًا، أو غير ذلك).

والحقيقة أنني أعجب من كثرة الخلافات والشقاق بين المسلمين الذين يدَّعي كل فريق منهم أنه الأكثر فهمًا ومعرفة بحقيقة الدين من غيره، ويصل في غيه حد تكفير الآخرين، بينما الأمر عند أعدى أعداء الإسلام لم يصل إلى ذلك الحد من الاستهانة بالدين الإسلامي والتعصب ضده!

وكم كان لوفيكو مراكشى (1612 - 1700م) صاحب كتاب (مقدمة في دحض القرآن) موضوعيًا، وهو يكتب مقدمته للترجمة التي قام بها للقرآن الكريم تحت عنوان (القرآن نص عالمي) حيث يقول:

«إن الدين الإسلامي احتفظ بكل ما هو أكثر عقلانية واحتمالاً في المسيحية، وبكل ما يبدو في نظرنا موافقًا لقانون وسنة الطبيعة، وقد استبعد من عقيدته جميع ألوان الغموض الموجودة في الإنجيل، والتي تبدو لنا غير معقولة وغير مفهومة، كما أنه استبعد من الأخلاق كل المبادئ المتزمتة والتي يصعب على الناس تطبيقها، مما جعل الوثنيين اليوم يشعرون أنهم أكثر ميلاً إلى التنكر لوثنيتهم واعتناق الإسلام بصدر رحب واعتناق الشريعة المحمدية أكثر من الشريعة الإنجيلية»[2].

وفي كتابه (دحض القرآن) يقول مراكشي:

«لقد اعتقدت دائماً أن القرآن والإنجيل حين يعرضان على غير المؤمنين فإنهم يفضلون القرآن على الإنجيل، ويجب ألا نشك في أن كتاب (محمد) لا يقدم أفكاراً يصعب على العقل فهمها، فمثلاً لا يوجد إلا إله واحد حكيم وقادر، خالق الأشياء كلها ومدبرها، ويجب أن يُصلَّى له بخشوع وخضوع، وأن يكون الإنسان متسامحًا مع الفقراء، ويؤدي مناسك الحج، ويطهر بدنه بالصيام، ويحافظ على العدل والوسطية وطيبة القلب والشفقة، وكذلك كل الفضائل السهلة الأخرى؛ فلا يجوز أن يُؤذَى إنسان، بل يجب أن يُحمى من السرقة والزنى وأي جريمة أخرى أيا كانت، ويجب أن يُحتقر كل ما في الدنيا بوصفه عابرًا وغير ثابت، ويستمسك فقط بالأعمال الصالحة التي لن يضيع أجرها، وسيكون لنا في النهاية يوم نعود فيه إلى الله لنُجزَى على ما فعلنا؛ فالطيبون سيجدون في السماء نعيمًا مقيمًا وما يشتهون، وسيذوق الأشرار في جهنم عذابا لا نهاية له، كل هذه المبادئ وغيرها تنتشر في القرآن بطريقة مفهومة وواضحة أكثر من المبادئ الإنجيلية.... ولكل ذلك فغير المؤمنين يفضلون محمدًا ويعتنقون دينه من كل قلوبهم» (نقلاً عن المرجع السابق نفسه).

إن هذا الفهم البسيط والعميق في الوقت ذاته لجوهر الدين الإسلامى يكاد يكون غائباً عن دعاته من المسلمين الآن، نظرًا لانشغالهم بخطاب دعوي سياسي يدعو إلى الصراع مع الآخر وتكفيره بدلا من محاولة احتوائه وجذبه عن طريق الحوار الهادئ والقدرة على المصالحة.

لقد افتقد الخطاب الديني المعاصر اللغة السوية للخطاب وجنح إلى لغة صراعية تنافسية بين جماعات وتيارات الإسلام السياسي المعاصر، وغاب صوت العقل والحكمة والدعوة إلى الله والدين بالموعظة الحسنة.

ولذا أرى أن إصلاح وتحديث هذا الخطاب وتطويره ينبغي أن يقوم على أسس خمس هي:

1 - العودة إلى الاستناد إلى صحيح الدين (القرآن والسنة) قبل ظهور الخلاف بين الفرق والتأكيد دائمًا على أن خلافاتهم هى مجرد اختلاف في الرأي ليس فيما يخص جوهر العقيدة وإنما ما يخص بعض الفروع.

2 - مراعاة التدرج في الخطاب الديني بحيث يكون موافقًا للمخاطب، فمخاطبة عامة الناس غير مخاطبة خاصتهم، إذ ينبغى أن يقتصر الخطاب الموجه لعامة الناس على شئون دينهم الحياتية.

3 - الحرص على عقلانية الخطاب الديني والبعد به عن إشاعة الخرافات والخزعبلات والبعد عن التقليد ومحاربة الجمود، مع الحرص على إبراز القضايا المتجددة والتعبير عنها على أساس من صحيح الدين.

4 - نبذ التعصب والتسامح مع أصحاب الآراء والمعتقدات الأخرى، إعمالاً لمبدأ (أن الحقيقة حمالة أوجه) ولمبدأ الاستفادة من كل الطاقات والديانات لخدمة المجتمع المسلم في أي دولة من الدول الإسلامية.

5 - استشراف المستقبل كضرورة من ضرورات تطوير الحاضر، مما يعنى التقليل من قداسة الماضى لصالح أن بالمستقبل إمكانات ينبغى أن نستشرفها لنعمل من خلالها على نشر الدعوة الإسلامية وفق ضرورات الحاضر وإمكانات المستقبل والتنبؤ بمساراته المختلفة.

إن هذا الأسس يمكن من خلالها تطوير الدعوة الإسلامية بما يتوافق مع متطلبات العصر الحاضر، وممكناته المستقبلية، وليكن مرتكزنا الأساسى فيها جميعا القرآن الكريم وسنة نبيه ﷺ دون الخوض في كل صور الخلاف والاختلاف بين المفسرين بفرقهم وتياراتهم المختلفة. وإنني لأطمح إلى أن تكون هذه الأسس نقطة مضيئة لبداية طريق نصل في نهايته إلى فهم إيجابي وبناء لخدمة (القرآن) كنص ديني ولخدمة أتباعه في أنحاء العالم بما يجعلهم قادرين على النفاذ إلى المستقبل بقوة اليقين، ومن ثم قادرين: أولاً، على نبذ الخلافات فيما بينهم بوصفها مقدمة ضرورية للوحدة وتحقيق التقدم الذاتي، وثانيًا، على التأثير في التقدم الإنساني بالدعوة الصالحة إلى الله الواحد الأحد، وبأن الدين الإسلامي هو دين العقل والعلم وليس دين الخرافة والتعصب، دين التسامح والمرونة الفكرية، وليس دين الجمود والانغلاق.

الهوامش:

(1) انظر تفاصيل أكثر حول هذه الشروط في: د. محمد عطا أحمد يوسف: دور المفسرين فى تجديد الخطاب الدينى، منشور ضمن كتاب تجديد الخطاب الديني بين الفكر الفلسفي والاجتماعي، تحرير د. محمد ياسر الخواجه، مصر العربية للنشر والتوزيع بالقاهرة 2011م، ص108 - 109.

(2) نقلاً عن: عبد الرحمن بدوي: دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر، ص159.

# مدارس الخط في العالم العربي



د. علي عفيفي علي غازي

أكاديمي وصحفي

«الخط العَرَبي هو الفن الجميل للكتابة العَربية التي ساعدت بنيتها وما تتمتع به من مرونة وطواعية وقابلية للمد والرجع والاستدارة والتزوية والتشابك والتداخل والتركيب، على ارتقاء الخط العربي إلى فن جميل يتميز بقدرته على مسايرة التطورات والخامات»

الخط العَرَبي هو الفن الجميل للكتابة العربية التي ساعدت بنيتها وما تتمتع به من مرونة وطواعية وقابلية للمد والرجع والاستدارة والتزوية والتشابك والتداخل والتركيب، على ارتقاء الخط العربي إلى فن جميل يتميز بقدرته على مسايرة التطورات والخامات. فتشكلت علاقة وثيقة بين كل نوع من أنواعه والمواد التي يكتب بها أو عليها. فرأيناه ليِّنًا ينساب برشاقة وغنائية، ورأيناه صلبًا متزنًا يشغل حيزه بجلال يمتد إلى ما حوله. ورأينا الصلابة واللين يتبادلان ويتناغمان فيه. وهو في كل أحواله يشدّ الناظر ويمتعه بجمالياته الخاصة وتجريديته المتميزة التي عرفها بشكل مبكر وراقٍ، مما جعل له مكانة خاصة بين الفنون التشكيلية.

والخط العربي يعتمد فنيًا وجماليًا على قواعد خاصة تنطلق من التناسب بين الخط والنقطة والدائرة. وتُستخدم في أدائه فنيًا العناصر نفسها التي نراها في الفنون التشكيلية الأخرى، كالخط والكتلة، ليس بمعناها المتحرك ماديًا فحسب بل وبمعناها الجمالي الذي ينتج حركة ذاتية تجعل الخط يتهادى في رونق جماليٍ مستقلٍ عن مضامينه ومرتبط معها في آن واحد.

ومن خلال نمطيْه الأساسيين المنحني الطياش والهندسي اللذين ينفرد كل منهما بجماليات خاصة، مع الزخارف المرافقة لهما، يستطيع الفنان إبداع نوع من الإيقاع نتيجة التضاد بين الأجزاء والألوان، وما يحققه ذلك من إحساس بصري بالنعومة والخشونة والتكامل الفني الناتج عن التوزيع الإيقاعي، مع تحقيق الوحدة في العمل الفني ككل. ومن خصائصه أيضًا مخالفة الطبيعة، والتجريد والاستطراد. ممّا يمنح الفنان الحرية اللازمة للتشكيل، وهذا ما ساعد الفنانين العرب والمسلمين على استخدامه في تشكيل تحفهم على الخامات المتنوعة كالمعادن والخزف والخشب والرخام والجص والزجاج والنسيج والورق بأنواعه، بالإضافة إلى الروائع المعمارية. فكان الخط العربي قاسمًا مشتركًا لكل الفنون العربية الإسلامية التي أعارها طابَعهُ الجمالي المنطلق من التناسب بين الخط والنقطة والدائرة.

## مراحل تطور الخط العربي

لم يتطور الخط العربي دفعة واحدة، مثله في ذلك مثل اللغة والكتابة وغيره من الفنون، بل نما ونضج مع الزمن، ففي بداياته، أدى دورًا وظيفيًا فقط، ولم نعرف له عند مجيء الإسلام أكثر من نوعين: أولهما البسط، وهو خط يميل إلى القساوة وتغلب عليه التزوية، استُخدم في النقوش وفي الوثائق المهمة التي كانت تكتب على الرق، وفي المصاحف بصورة خاصة؛ وثانيهما التقوير وهو أكثر ليونة واستدارة، استُخدم في المعاملات اليومية، والوثائق والمراسلات الخاصة التي تتطلب السرعة. ثم دخل الخط العربي مرحلة تطور وتطوير متسارعين وفي اتجاهين: استكمال مقوماته الوظيفية الكتابية من جهة، وتجويده والنهوض به ليقوم بدور فني جمالي من جهة ثانية. وقد بدأت النهضة الفنية للخط العربي مع بناء الكوفة ثم اتخاذها مقرًا للخلافة أيام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

**الخط الكوفي:** اعتمد تطور الخط العربي في بداياته الكوفية على خط البسط بشكل أساسي، فتطور فيها تطورًا كبيرًا، ربما كان من أسبابه التقاؤه مع ما ألفهُ مَن حلّ بالكوفة من قبائل اليمن من تربيع في الخط المسند، والبراعة التي اشتهر بها أهل الحيرة والأنبار الذين هاجر بقيتهم إليها. وعلى الرغم من وجود نماذج سبقت إنشاء الكوفة تحمل سمات الخط الذي أطلق عليه اسم الكوفي، فإن هذه التسمية سادت وأصبحت تُطلق على كل الخطوط

التي تميل إلى التربيع والهندسة أينما كتبت، وأيًا كانت درجة تطورها أو اختلافها عن الخطوط الكوفية الأولى.

غير أن الكوفة عرفت نوعين آخرين إلى جانب الخط القاسي: نوع مخفف لين هو خط التحرير، ونوع يمكن اعتباره جمعًا بين النوعين السابقين هو خط المصاحف الذي اهتمت المصادر التاريخية بتناوله، وكان معتمدًا في كتابة المصاحف الكبرى التي تُوقف على المساجد، وكان من أبرز كُتّابه الأوائل مالك بن دينار الوراق وخشنام البصري. أما أقدم فنان متميز في الخطوط الكوفية تذكره المصادر، فهو خالد بن أبي الهياج الذي اشتهر زمن خلافة علي بن أبي طالب، وحتى خلافة عمر بن عبد العزيز، وقد كتب عددًا من المصاحف وكُتُب الأخبار والأشعار، وكان أول من خطّ كتابة تزيينية على المساجد، فلقد خطّ على جدار القبلة في المسجد النبوي الشريف أربعًا وعشرين سورة من القرآن الكريم.



واستمر الخط الكوفي في التطور والانتشار، فأسهمت كل الحواضر العربية والإسلامية في الشرق الإسلامي ومغربه في الإضافة إليه، والارتقاء بجمالياته لقرون طويلة، فتعددت أنواعه وأشكاله التزيينية والزخرفية حتى جاوزت السبعين، منها الكوفي البسيط والمورّق والمضفّر والمزهّر والمربّع والتذكاري والقيرواني والأندلسي والفاطمي والمملوكي والسلجوقي والنيسابوري، إلى آخر تلك الأنواع والتفرعات التي تمتع بمميزات تشكيلية جمالية عالية ساعدت على تطورها القيم الجمالية الهيكلية الكامنة في الخط العربي وحروفه، بالإضافة إلى الطبيعة الفنية الزخرفية في الخط الكوفي، التي تتيح للخطاط المبدع درجة عالية من الحرية في الابتكار والإبداع، ولم يحدّ من نموّ الخطوط الكوفية واطراد تطورها إلى جانب الخطوط اللينة إلا سيطرة العثمانيين على البلدان العربية، ونقلهم لخيرة مبدعيها إلى الأستانة، وإهمالهم للخطوط الكوفية مع تصاعد اهتمامهم بالخطوط الليّنة، مما وضع الخطوط الكوفية في الظل لمئات من السنين.

**الخط الموزون:** تعود أصول الخطوط الموزونة إلى خط الطومار الذي كانت بداية ارتقائه الفني في الشام بعد تعريب الدواوين في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، واختراع نوع من الورق عرف بالقرطاس الشامي، وتُنسب النقلة الأولى في هذا الارتقاء إلى قطبة المحرّر، وهو، في الأغلب، أول من أطلق عليه لقب محرّر، ابتدع قطبة استخدام قلم الجليل في الكتابة على قطع الطومار فصار يُسمى قلم الطومار أيضًا، واشتق منه ثلاثة أقلام أصغر منه حدد عروضها بالنسبة إليه، ليكتب بها على قطوع مختلفة من القرطاس تتفق مع أهميتها الإدارية.

وفي أوائل العصر العباسي، طوّر كل من الضحاك ابن عجلان الشامي ثم إسحاق بن حماد ما بدأه قطبة، فبلغ عدد الأقلام اثني عشر قلمًا، وأصبحت هناك مدرسة للإبداع الخطي انتهت إلى إبراهيم السجزي (أو الشجري) الذي استحدث قلمين أصغر من الطومار أطلق عليهما الثلثين والثلث (بالنسبة إلى الطومار)، وإلى أخيه الكاتب الشاعر يوسف لقوة الذي استخرج قلمًا من النصف الثقيل عُرف بقلم التوقيع طوّره الفضل ابن سهل فيما بعد، وسماه القلم الرياسي، وهو يتفرع إلى بضعة أقلام مثل نصف الرياسي والمحقّق والمنثور والوشي والرقاع والمكاتبات والترجس والبياض.

أما النقلة الأهم بين نُقْلة قطبة المحرر ونُقْلة ابن مقلة، فقد تمّت على يد الأحول المحرر وكان تلميذًا مبدعًا لإبراهيم السجزي، قام بترتيب الأقلام الثقال بدءًا من الطومار، ثم الثلثين والسجلات، فالعهود والمؤامرات ثم الأمانات والديباج، فالمدمج والمرصّع، ثم قلم النسّاخ، وينسب إليه اختراع خفيف النصف وخفيف الثلث، والمسلسل، وغبار الحلية، وخط المؤامرات، وخط القصص والحوائجي، وقد استخدمت المصادر التاريخية كلمة خط بدءًا من بعض الأنواع التي ابتكرها بدلاً من كلمة قلم التي كانت سائدة للدلالة على تسميات لقياسات مختلفة من الأقلام تتناسب استخداماتها وقطوع الورق، وتنسب إلى قلم الطومار الذي حدّد عرضه بما يساوي أربعًا وعشرين شعرة من ذيل الحصان التركي، فكان عرض قلم الثلثين 16 شعرة والثلث 8 شعرات، وهكذا، ولم تكن أنواعًا بالمعنى المعروف ولكنهم استخرجوا منها الثقيل والخفيف، وأكسبوها من خلال ذائقتهم الفنية وتراكم جهودهم خصائص مختلفة ميّزت الخطوط الأصلية الموزونة التي برع فيها عدد من الخطاطين الأفذاذ.

﴿أما أقدم فنان متميز في الخطوط الكوفية تذكره المصادر، فهو خالد ابن أبي الهياج الذي اشتهر زمن خلافة علي بن أبي طالب، وحتى خلافة عمر بن عبد العزيز. وقد كتب عددًا من المصاحف وكُتُب الأخبار والأشعار. وكان أول من خَطّ كتابة تزيينية على المساجد، فلقد خطَ على جدار القبلة في المسجد النبوي الشريف أربعًا وعشرين سورة من القرآن الكريم﴾

﴿وقد أضافت المدرسة العثمانية بعض الإضافات النوعية، فظهر الخط الديواني الذي تعود جذوره إلى التوقيع والرقاع والتعليق، وتطور بشكليه العادي والجلي، فوضع أصوله الخطاط محمد منيف في عهد السلطان محمد الثاني، ثم طورها ونشرها الصدر الأعظم شهلا باشا في عهد السلطان أحمد الثالث وجوّدها السلطان مصطفى خان، ثم طورها الخطاط نعيم﴾




كان من أبرزهم طبطب المحرر رأس المدرسة المصرية، وإسحاق بن إبراهيم البربري أستاذ ابن مقلة ومؤلف (تحفة الوامق) أول كتاب أمكن تسجيله في الخط العربي.

**الخط المنسوب:** كانت الخطوط الموزونة قد وصلت إلى درجة من التطور، فأصبح لها نسب قياسية خاصة، وبلغ عدد أقلامها أربعة وعشرين قلمًا عندما ظهر الخطاطان العبقريان الوزير أبو علي محمد بن مُقْلة ثم أخوه أبوعبدالله الحسن بن مقلة اللذان نقلا الخط العربي نقلة فنية نوعية. لم تتفق المصادر التاريخية حول من كان له الدور الأكبر فيها، وقد كانا على درجة عالية من الدراية والتعمق والبراعة والتجويد، فتوصل أحدهما، أو كلاهما، في بدايات القرن الرابع الهجري إلى تأليف ستة أنواع من الخطوط هي: الثلث والريحان والتوقيع والمحقّق والبديع والرقاع، وهنّدس أحدهما مقاييسها وأبعادها، ووضع معايير لضبطها والوصول بها إلى صيغ جمالية محكمة، معتمدًا في ذلك على العلاقة بين النقطة والدائرة والخط، فجعل حرف الألف الذي حدد طوله بعدد من النقاط قطرًا لدائرة ونسب إليه الحروف جميعًا، فكانت هذه انطلاقة الخط المنسوب الذي أبدع فيه عدد من الخطاطين طوال قرن من الزمن ليصل إلى محمد بن السمسماني ومحمد ابن أسد الكاتب البزاز البغدادي الذي نقل كتابًا عن ابن مقلة، وكان هذان أستاذين تتلمذ عليهما الخطاط البغدادي المبدع أبو الحسن علي بن هلال، ابن البواب.

درس ابن البواب خطوط ابن مقلة دراسةً معمقة مدققة استطاع بعدها أن يطور أسلوبه والقواعد التي وضعها للخط المنسوب متنقلاً به إلى مرحلة أكثر رقيًا وجمالاً عبر اصطفائه لأساليب تجمعها خصائص جمالية مشتركة: نقّحها وحوّلها إلى طرق سار عليها فن الخط العربي قرونًا ثلاثة تالية، لتنتهي إلى زينب بنت أحمد الإبري البغدادي الملقبة بشُهدة، التي يقال: إن ياقوت المستعصمي تتلمذ عليها، ثم الموسيقي الشهير الخطاط صفي الدين عبدالمؤمن الأرموي أستاذ أبي المجد جمال الدين ياقوت بن عبد الله المستعصمي.

دقق ياقوت المستعصمي خطوط ابن مقلة، وخطوط ابن البواب بشكل خاص، فوجد أن القواعد التي أوصلا الخط المنسوب إليها متينة ومتماسكة من حيث مقاييسها وأبعادها ومعاييرها الجمالية الهيكلية، ولكنها تحتاج إلى أسلوب أرقى في الأداء يضيف إلى جمال هيكلها ونسبها جمالاً في تفاصيل حروفها وتناغم أجزائها، فركز جهوده في هذا الاتجاه، وتوصل إلى اختراع طريقة غير مسبوقة في بري القلم: فجعل شحمه أقل رهافة، وزاد من تحريف قَطّته مما شكل نقلة جمالية كبرى في تجويد الأقلام الستة المنسوبة جميعًا، سرعان ما أعطت ثمارها فانتشرت في مختلف المراكز الثقافية المنافسة لبغداد التي فقدت ثقلها في توجيه مسيرة الخط العربي بعد سقوط الدولة العباسية ووفاة ياقوت.

كان خط النسخ قد شهد تطورًا كبيرًا في الشام منذ أواخر القرن الخامس الهجري، وحظي بنصيب وافر من التجويد مع خط الطومار ومشتقاته، ونافست مصر العراق في الاهتمام بالخط العربي منذ العصر الفاطمي: فطورت أنواعًا جديدة من الكوفي، وواكبت مسيرة الخط المنسوب فيها مسيرته في العراق، وسابقتها في تجويده، وتطور تدريسه فيها حتى أصبح له معلمون متخصصون متفرغون لتعليمه، يعملون بناء على أسس محددة يمكن أن نرى مثالاً لها في كتاب (العناية الربانية في الطريقة الشعبانية) لزين الدين شعبان بن محمد الآثاري، وقد أدى هذا إلى تطور كبير في خطي الثلث والثلثين، وفي الوقت نفسه، ظهر في فارس خط التعليق وتطور بعد أن حلّت الحروف العربية محل الحروف الفهلوية في كتابة اللغة الفارسية، وربما كان هذا الخط تطورًا عن خطي التوقيع والرقاع تعود بداياته الأولى إلى أوائل القرن الرابع الهجري، وقد اكتسب خصائصه المعروفة في القرن السابع الهجري، ليقوم خطاط مبدع في القرن التاسع الهجري هو مير علي التبريزي بابتداع وتجويد خط متطور عنه سمي نسخ التعليق أو نستعليق، يمتاز بالرقة والرشاقة والتناغم الجميل بين الرقة والغلظ في كتابة حروفه ومدّاته، ووضع له نسبًا خاصة، وقد اشتهر باسم الخط الفارسي.

**المدرسة العثمانية:** يمكن القول إن تطور خط النسخ في الشام، والثلث والثلثين في مصر شكّلا منهلاً نهل منه الخطاطون الأتراك وأساسًا اعتمدوا عليه ليحدثوا نقلة مهمة في تجويد بعض أنواع الخط المنسوب، وقد أدى استقدام السلاطين لخبرة خطاطي العراق والشام ومصر، ضمن من استقدموهم من فنانين وصنّاع إلى الآستانة، دورًا كبيرًا في النهضة الخطية التي شهدتها الدولة العثمانية، وكان الأتراك يستخدمون خط التعليق الفارسي في كتابة لغتهم التي كانت قد تحولت أيضًا إلى الحروف العربية، بالإضافة إلى الخطوط المنسوبة التي كانت لها استخدامات مختلفة، وقد برز في أواخر القرن التاسع خطاطان اتبعا طريقة عبد الله الصيرفي البغدادي كان لهما دور كبير في تطور تجويد الخط العربي، أولهما الشيخ حمدالله الأماسي الذي جمع خطوط ياقوت المحفوظة في الخزانة العثمانية، فدرسها، وانتقى من حروفها أجمل الأشكال والأساليب، لتكون هاديًا ودليلاً له في تطويره للأداء الجمالي للخطوط المنسوبة: وثانيهما الخطاط أحمد القره حصاري الذي برع في التراكيب والتشكيلات الخطية، وقد أدى التنافس بينهما إلى توسيع دائرة المجودين لتنتهي في أواخر القرن الحادي عشر الهجري إلى الحافظ عثمان بن علي الخطاط المجود الشهير صاحب المصاحف الذي استقرت الأقلام الستة بطريقته، ثم أتى الخطاط المبدع مصطفى راقم في أواخر القرن الثاني عشر الهجري ليضع اللمسات الأخيرة على طريقة تجويد جليّ الثلث التي لا تزال متبعة حتى الآن، وقام الخطاط سامي أفندي بتطوير الأرقام وعلامات التشكيل وإشارات الحروف المهملة حتى بلغت شكلها المعروف اليوم، وقد تسابق الخطاطون في تراكيب خط الثلث وجليّه مما أدى إلى تطور جمالي كبير فيها كان من نتيجته إجراء بعض التعديلات في مقاييس بعض الحروف بما يخدم التشكيل الخطي، وإحداث علاقات من التناغم بين غلظ القلم ورقة التشكيل وإشارات الحروف المهملة، وانتهى تجويد الثلث والنسخ والرقاع إلى فرعين على درجة عالية من الجمال يقف على رأس أولهما الخطاط قاضي العسكر مصطفى عزت، ويقف على رأس الثاني الخطاط محمد شوقي.

من ناحية أخرى، كان خط نسخ التعليق الفارسي يتطور بشكل تدريجي، عندما أتى الخطاط الشهير مير عماد الحسني في أواخر القرن العاشر الهجري فدرس هذا الخط، وارتقى به إلى درجة عالية من التناسق والجمال والرقة، وقام تلميذه درويش عبدي البخاري بنقل طريقته إلى إسطنبول، حيث أقبل الخطاطون على استخدامها في كتابة القطع الخطية، وقام محمد أسعد اليساري باشتقاق طريقة جديدة منه أقبل عليها كثير من الخطاطين، وخصوصًا جليّها الذي طوره الخطاط مصطفى عزت أفندي ابن اليساري، إلا أن خط التعليق التركي لم يرقَ إلى جماليات الفارسي، فلقد أهمل الأتراك الشكل التركيبي منه، وقللوا من مرونته ورشاقته.

وقد أضافت المدرسة العثمانية بعض الإضافات النوعية، فظهر الخط الديواني الذي تعود جذوره إلى التوقيع والرقاع والتعليق، وتطور بشكليه العادي والجلي.

فوضع أصوله الخطاط محمد منيف في عهد السلطان محمد الثاني، ثم طورها ونشرها الصدر الأعظم شهلا باشا في عهد السلطان أحمد الثالث وجوّدها السلطان مصطفى خان، ثم طورها الخطاط نعيم، وبرع في هذا الخط الخطاط سامي، والحاج أحمد الكامل آخر رئيس للخطاطين في الدولة العثمانية، بالإضافة إلى ممتاز بك الذي وضع في عهد السلطان عبد المجيد خان قاعدة لخط آخر أضافه العثمانيون، هو خط الرقعة الذي طوره الخطاط محمد عزت أفندي، وهو خط يصلح للاستخدام اليومي وليس للأعمال الفنية، وابتكر الخطاط عارف حكمت خطًا سماه السنبلي، إلا أنه لم ينتشر على الرغم من أنه على درجة لا بأس بها من الجمال، وطور الخطاطون العثمانيون تصميم الطغراء التي تعود بداياتها إلى سلاطين المماليك في مصر، واستخدمها السلاطين العثمانيون جميعًا.

كما اهتمت المدرسة العثمانية بتعليم الخط وتنشئة الخطاطين، حتى إن كثيرًا من سلاطينها ووزرائها تعلموه، وقد استفادت هذه المدرسة من التقاليد التي كانت المدرسة المصرية قد أرستها، وأصبح سائدًا نظام منح الشهادة أو الإجازة الذي كان ابن الصايغ قد وضعه، وقد مال الخطاطون، حتى المتميزون منهم، إلى محاكاة خطوط سابقيهم وتقليدها، الأمر الذي يمكن أن يكون أحد أسباب الروح المحافظة التي سادت المدرسة العثمانية بعد المجودين الأعلام.

**المدارس العربية الحديثة:** كانت شجرة الخط في البلدان العربية مثمرة على الرغم من الإهمال والظلال التي حجبت عنها النور بعد تركز الأضواء على الأستانة، فاستمر الخط العربي في العراق لينتقل نقلة نوعية تتميز بالقوة والجمال على يد الخطاط الكبير هاشم محمد البغدادي الذي جود جميع أنواع الخط العربي بخصوصية كانت أساسًا لمدرسة العراق الحديثة تجمع ميزات المدرسة العراقية والمدرسة المصرية والمدرسة التركية.

وفي الشام، انتهى الأمر إلى الخطاط مصطفى السباعي الذي كان هو والخطاط التركي يوسف رسا، وتلميذه ممدوح الشريف أساتذة للخطاط بدوي الديراني الذي جود جميع الخطوط بأسلوب متميز جميل، وطبع خط التعليق بطابعه الخاص كما طور طريقة جميلة من الخط الديواني، بالإضافة إلى إجادته للخط الكوفي، مما جعله رأسًا للنهضة الخطية في الشام، أما في مصر، فقد استمر الخط العربي عبر عدد كبير من الخطاطين حتى كان عهد أسرة محمد علي، حيث اتجهت الأضواء مرة أخرى إلى القاهرة، فبرز الخطاط محمد مؤنس الذي أخذ الخط عن والده، وبرع فيه، وكان صاحب الفضل الأول في النهضة الخطية الحديثة في مصر، وقد درّس عددًا كبيرًا من الخطاطين، ووضع كتاب (الميزان المألوف في وضع الكلمات والحروف).

ثم كان هناك عدد من الخطاطين الأفذاذ أمثال محمد جعفر ومصطفى الحريري ومحمد الجمل وعدد كبير من الأساتذة الذين درّسوا في مدرسة تحسين الخطوط الملكية التي أنشأها السلطان فؤاد بعد الانقلاب الكمالي الذي عصف بالحروف العربية في تركيا، وكان من أبرزهم الخطاط التركي عبد العزيز الرفاعي، والخطاط مصطفى غزلان الذي طور الخط الديواني تطويرًا جماليًا كبيرًا، والأستاذ يوسف أحمد الذي أحيا الخط الكوفي من جديد وقام بتدريسه ونشره، والخطاط محمد حسني الدمشقي الذي برع كثيرًا في التراكيب الخطية التي ابتدع فيها أسلوبًا خاصًا اتُبع من بعده، ويضاف إلى هؤلاء عدد كبير من الخطاطين الأعلام أمثال محمد إبراهيم الذي افتتح في الإسكندرية مدرسة خاصة لتعليم الخط، وأحيا بعض أنواع الخط الكوفي، والأستاذ سيد إبراهيم الذي كان من أوائل المدرسين في مدرسة تحسين الخطوط الملكية وأستاذًا لعدد كبير من الخطاطين والأستاذ محمد عبد القادر، كبير مفتشي مدارس تحسين الخطوط المنتشرة اليوم في أنحاء مصر.


نوع من الأقلام التي تستخدم في الخط العربي

وفي المغرب العربي، حافظ الخط العربي على بعض سمات الخطوط الأولى، وظهرت أولى أساليبه في القيروان كاشتقاق يحمل سمات جمالية خاصة عالية من خط المصاحف الكوفي، عُرف بالخط القيرواني، ثم تطور عنه خط نُسب إلى المهديّة، وتطور في الأندلس نوعان أساسيان، أحدهما تكثر فيه الزوايا سُميّ بالكوفي الأندلسي: والآخر تكثر فيه الانحناءات والاستدارات سُمي بالقرطبي أو الأندلسي، استخدم في نسخ المصاحف والكتب وكان لتعليمه تقاليد خاصة في الأندلس والمغرب، وقد ساد هذا النوع في المغرب العربي كله حتى أواخر حكم الموحدين، ثم ظهر الخط الفاسي ثم السوداني أو التمبكتي (نسبة إلى تمبكتو في مالي)، ويمتاز بكبره وغلظه، والتونسي الذي يعد أكثر الخطوط المغربية مرونة، والجزائري وهو حاد الزوايا، ويستخدم الخطاطون في المغرب العربي أقلامًا تختلف عن أقلام المشارقة من حيث بريها وقطتها التي تميل إلى الاستدارة، وفي العقود الأخيرة، شاع استخدام الخطوط العربية المشرقية للاستخدامات الفنية بشكل كبير، وأقبل الخطاطون المغاربة على تعلمها وتجويدها.



وقد ظهرت في البلدان العربية تصاميم فنية لخطوط جديدة، وتم إحياء وتطوير بعض أنواعها الجميلة المهملة، وانتشرت اللوحات الخطيّة ومعارضها، إلا أن الخط العربي لم يعد يلقى العناية والتشجيع اللازمين بما يكفي من الجهات الرسمية، وأصبح يعتمد في بقائه ونموه على الجهود الفردية لفنانيه وعشاقه ومحبيه وبعض المدارس والمراكز التعليمية الفقيرة.

# ابستمولوجيا البلاغة الجديدة وإشكالية تأويل الدرس الفلسفي



**حيدر علي سلامة - العراق**

باحث - مختص في فلسفة خطاب الدراسات الثقافية

**«تكمن الأهمية الابستمولوجية والإشكالية لجميع تلك التساؤلات السابقة في ضرورة الانتقال بالخطاب الفلسفي من التمركز على (المنطق) إلى (خطاب/ وفلسفة المنطق)»**

أصبحت عملية قراءة الخطاب الفلسفي الراهن، شبه مستحيلة دون الأخذ بالاعتبار لمركزية المنطق، ضمن خرائط ذلك الخطاب. لما لعلم المنطق من أهمية ابستمولوجية ولغوية في تشكيل (القول الفلسفي)، وتحديد مسارات الخطاب الفلسفي، وطرق إنشاء الدرس الفلسفي وصناعة الأسلوب التعليمي المتبع في تأسيس مناهج النص الفلسفي وطرق كتابته أيضاً. وهنا، كان علينا التوقف لمساءلة ذلك المنطق المعتمَد والمتداول في خطابنا الفلسفي، فهل تأسس خطابنا المنطقي/ الفلسفي على تقاليد وأصول البلاغة الجديدة والتي دشنها الفيلسوف البلجيكي شاييم بيرلمان في عام 1958 المستندة على الحجاج البلاغي (argumentation rhétorique) الذي لا يُغيِّب المتلقي أو ما يُعرف بـ(بلاغة المخاطَب) - حسب تعبير الأستاذ الدكتور عماد عبد اللطيف -، أم شُيد على أسس البرهان البلاغي (démonstration rhétorique) حيث تتم مصادرة الآخر/ المتلقي في بنية الدرس الفلسفي؟

يأخذنا الاستفهام أعلاه إلى وقفة أكثر استفهامية ونقدية لبنية الدرس الفلسفي نفسها، التي تأسست على طرق بيداغوجية وتقليدية في صناعة برامج التدريس الفلسفي، فالملاحظ على طبيعة تلك المناهج، اعتمادها على (سياسة التلقين)، التي همشّت (سؤال الفلسفة)، الذي ينقلنا: «من التعليم الإخباري إلى (التعليم البرهاني الحجاجي)». وهذا بطبيعة الحال سوف يسلط الضوء على العلاقة الدیالكتيكية أو الجدلية بين كل من: الأستاذ والطالب والنص الفلسفي؛ والسؤال عن طبيعة هذه العلاقة وتاريخها التعليمي وأطرها المنهجية المعتمدة في إيصال أو نقل المعلومات الفلسفية إلى ذهن المتلقي أي الطالب. ولما كان المنطق البرهاني الرياضي؛ وليس الحجاجي؛ هو المعتمد رسمياً في مؤسساتنا الفلسفية، أصبحت طرق تدريس النص الفلسفي مستندة على (التعليم الإخباري)، الذي أهم ما يميز أسلوبه التعليمي هو أنه :«...عملية تلقين أو نقل مباشر للمعلومات من طرف متكلم (المدرس) إلى مخاطب-مستمع (المتعلم)، والتي هي عملية (نطق خارجي)، سواء اعتبرنا النطق بمعناه اللغوي (الكلام)، أو بمعناه الفلسفي المنطقي (التفكير)....كما أن الأسلوب الإخباري، تبعا لذلك، هو (أسلوب فوقي)، أي أنه يزود المتعلم بأطروحات الفلاسفة كما تم تقريرهم لها، وبعبارة أخرى: أن الأسلوب الإخباري يُلقن نتائج تفلسف الفلاسفة معزولة عن مقدماتها المؤسسة لها، مما يجعل المتعلم يتعامل مع نتائج تفكير الفيلسوف تعاملاً سطحياً فوقياً، بعيداً عن العلاقة التي تربطها بمنطلقات الفيلسوف، وعن الكيفية التي تم بها بناء تلك النتائج بدءاً من هذه المنطلقات... تنتج عن هذه الحدود المنهجية-المنطقية محدودية بيداغوجية، تتجسد في أن الأسلوب الإخباري يقف عند مستوى الإلقاء التلقيني، على مستوى نشاط المدرس، وعند مستوى التلقي الاحتياطي والاستهلاكي، بالنسبة لنشاط المتعلم، مما يجعل أسلوب الإخبار دون تحقيق المهارات العقلية التي تتوخاها المادة الفلسفية وأهدافها، والتي تتطلبها التربية التفكيرية التي نفكر داخلها».

من كل ما سبق، يتضح كيف أن الأسلوب التدريسي البرهاني المتأسس على بنية النقل والإخبار، شكل براديم (paradigme) التعليم، الذي لطالما هيمن على العملية الفلسفية في خطابنا الفلسفي، مما أدى إلى إنتاج أساليب تعليمية غير نقدية وغير حجاجية، منفصلة عن إنتاج فكر نقدي، وهنا علينا أن نتساءل تحديداً عن بنية المنطق السائدة في مؤسساتنا الفلسفية، فيما إذا كانت بنية برهانية مجردة أو متعالية عن ذهنية المتلقي، بمعنى آخر، علينا أن نتساءل، هل سيطر شكل واحدي للمنطق وهو المنطق الشكلاني (formal logic) أم فلسفة المنطق (philosophical logic) وما هو الفرق بين الاثنين، وأيهما يعمل على رفد وتطوير العملية الفلسفية؟ فتاريخ المنطق الأول ظل تاريخاً منعزلاً ومنحسراً في التأسيس لمنطق القضايا الصادقة وأسقط من حساباته منطق القضايا الفاسدة. أما المنطق الآخر فهو منطق أخذ في

اعتباراته القضايا الزائفة – أي أنه خرج عن المنطق ذي القيمتين– ، لذا نلحظ أن تاريخه كان الأقرب إلى فلسفات الأخلاق والابستمولوجيا الاجتماعية (social epistemology) وفلسفات القيمة إلى جانب فلسفات الاستطيقا (Aesthetics).

إذن، ألا تدعونا تلك المقاربات أعلاه إلى إعادة سؤال المنطق في تاريخية خطابنا الفلسفي؟ وإلى التساؤل فيما إذا قد تشكل في هذا الخطاب فلسفة للمنطق أم منطقاً شكلانيًا محضًا؟ وكيف انعكست آثار تفضيل أحدهما على الآخر، على ممارسة وتشكيل بنية تكوين النص المنطقي ومنطق النص؟ وهل هناك (علاقة ثاوية) بين الأيديولوجيا وبين المنطق الشكلاني، أم أن هناك (علاقة ثاوية) بين الأيديولوجيا وفلسفة المنطق؟ وكيف يمكننا اكتشاف تلك العلاقة الثاوية، إن لم نعمل على إعادة النظر في عملية تكوين المناهج والدروس التعليمية المعتمدة/الرسمية في أقسامنا الفلسفية، لاكتشاف أثر المنطق على أبنيتها النظرية والابستمولوجية؟ وهل عمل أساتذة الفلسفة على تأسيس (علاقات برهانية) أم (تواصل حجاجي) مع الطلاب أي مع متلقي الدرس الفلسفي؟ وهل كان المنطق عندنا أقرب إلى علماء المنطق الرياضي/الشكلاني، أم كان أقرب إلى العلوم الإنسانية واللغوية وعلوم تحليل الخطاب والنص، وإنتاج بلاغة أنطولوجيا الحياة اليومية...إلخ؟

تكمن الأهمية الابستمولوجية والإشكالية لجميع تلك التساؤلات السابقة، في ضرورة الانتقال بالخطاب الفلسفي من التمركز على (المنطق) إلى (خطاب/وفلسفة المنطق). فاللافت في الأمر، أن من أهم سمات لغة المنطق في خطابنا الفلسفي، منذ لحظة تشكله وإلى يومنا الراهن – وهذا ما جاء على وصفه واضع أسس ومعايير الدراسات المنطقية في خطابنا الفلسفي العراقي عالم المنطق الأستاذ الراحل الدكتور ياسين خليل– أنه منطق: «يبدأ .. من التمييز بين لغة التداول واللغة الرمزية التي تعتمد على الرموز دون الكلمات. والسبب الذي جعل المناطقة يختارون مثل هذه اللغة هو أن الدقة لا يمكن أن تتوفر في اللغة الطبيعية، ومن الضروري أن نستعين بلغة رمزية أو فنية دقيقة المعنى والتراكيب لنستطيع تفادي المتناقضات التي قد تظهر نتيجة لغموض معاني الأسماء. واللغة الطبيعية ليست بدقة لغة الرياضيات مثلاً، لأنها تحتوي على كلمات لها معان مختلفة. فهناك النقل والمجاز والاشتراك في المعاني، كل ذلك يؤدي إلى غموض العبارة في اللغة الطبيعية. في حين لا يحق لنا في لغة المنطق أن نعطي أكثر من معنى أو فكرة لرمز واحد فقط ولكل رمز فكرة واحدة كذلك».

يتضح من النص أعلاه، أن عالم المنطق العراقي الأستاذ خليل كان يحدوه طموحاً فلسفياً، يهدف إلى (ترييض اللغة) في مجالات الاستعمال الفلسفي، وهذا بالطبع لا يتحقق إلا من خلال الاستناد على استعمالات لغة شكلانية/رمزية كما هو الحال عليه في المنطق الرياضي. لذلك نراه قد عول كثيراً على اللغة المنطقية والميتا-منطقية، التي عدّ كلاً منهما بمثابة اليقين الديكارتي، لما تتسمان به من الدقة الرياضية؛ والبرهنة الرمزية وإنتاج أنساق صورية مثالية تختلف اختلافًا جذريًا عن اللغة الطبيعية/اللغة المتداولة/اللغة اليومية، التي تخرق وتخرج على صرامة الدقة المنطقية وآليات الضبط الحسابي والتقني في استعمال الرموز والمعادلات الرياضية. من هنا، اعتبر اللغة المنطقية/الصُنعية المحكومة بسمة الانضباط الرياضي، هي الأسبق انطولوجيا وابستمولوجيا على لغة التداول الطبيعية/الميتافورية، الأمر الذي جعله يؤكد على ضرورة تجاوز وتخطي تلك اللغة، من أجل الوصول إلى أعلى مراحل البرهنة الصورية والميتا-صورية، بهدف تأسيس نماذج مثالية، تتحقق من خلالها السيطرة على تقنيات وممارسات اللغة الطبيعية، التي قد تُدخِل الفلسفة في إشكالات ميتافيزيقية في استعمالات اللغة نتيجة لسمات الالتباس والغموض في اللغة الطبيعية. وهذا ما جعله يعقد تمييزًا: «...بين اللغة الطبيعية.. التي هي لغة التداول وبين اللغة الرمزية.. أو الفنية التي هي لغة المنطق. فالدراسات المنطقية تبدأ أولا بتحليل لغة التداول وترتقي بعد ذلك إلى بناء لغة دقيقة لها قوانينها وأصولها المنطقية».

من الملاحظ أن انشغالات الأستاذ خليل لم تختلف تماماً عن انشغالات فلاسفة التحليل اللغوي التقليديين – هذا على الرغم من حصول الكثير من المنعرجات الابستمولوجية المهمة في فلسفة اللغة ومنطقها التي حاولت أن تعيد الاعتبار إلى منطق المتكلم في اللغة الطبيعية في تلك الحقبة –، تلك الانشغالات الرامية والطامحة إلى تأسيس لغة علمية، تتسم بأنها لغة مثالية ذات صرامة منطقية ورياضية. وربما كان هذا هو الهاجس المسيطر على مختلف كتابات وأبحاث ومؤلفات الأستاذ خليل، مما أدى إلى غلبة الطابع الصوري المحض والمنطقي الصرف على علوم اللسانيات (linguistics) وحقل التحليل السنتاكسي (syntaxe) لنظام تشكيل العبارة والتحليل السيمانطيقي للمعنى (semantic) والتحليل البراغماتيكي لتداول المعنى (pragmatic)، بعبارة أخرى، إن «التداول اللغوي في بنية المنطق الخليلي -نسبة إلى الأستاذ خليل- ظل ما قبل تحليل الخطاب (analysing discourse)××× وما قبل الانعراج اللساني (linguistic turn)». فلماذا تم التركيز والتأكيد على إنتاج لغات تقنية وصُنعية تتخذ من التحليل اللغوي والرياضي سبيلاً، وتم تجاهل المتكلم/والمتلقي في بنية الخطاب اليومي، بحجة انفلات هذا الخطاب عن الدقة الرياضية والمنطقية؟ ولماذا جرى تجاوز الحقول الابستمولوجية/الثقافية، ذات المساس والاتصال المباشر بحقول استعمالات اللغة اليومية (ordinary language) وتحليل الخطاب الاجتماعي والثقافي واستعمالات الحجاج البلاغي والتداول البراغماتيكي، وإفراغها من أبعادها الثقافية وطاقاتها الخطابية/التحليلية والتداولية، المتداخلة مع تداول اللغة الطبيعية اللابرهانية والاحتمالية، لتلتحق بالضرورة باللغة المثالية/الصُنعية؟

اعتمد الأستاذ خليل على منطق الفيلسوف الألماني (جوتلوب فريجه) وعلى ثوراته الرياضية الحاصلة في علوم الحساب، ذلك المنطق الذي اتسم باللغة المنطقية الصارمة، التي تتجاوز اللغة الميتافورية/اليومية. حيث رأى الأستاذ خليل أن: «..محاولات فريجة تتسم منذ البداية بدقة التفكير والتعبير والتأمل العميق في العمليات الاستنتاجية التي يحتاجها البرهان الرياضي والقوانين الضرورية التي تقترن بالعمليات البرهانية. ولكن أبحاثه الأولى لم تكن مستهدفة بناء الفلسفة الرياضية فحسب، بل إنه أدرك كذلك منذ أول وهلة أن عملاً كهذا يستدعي دراسة دقيقة للقوانين المنطقية التي يستخدمها الرياضي في حل المعضلات الرياضية والبراهين، كما أن مثل هذا العمل لا يمكن أن يعبر عنه بلغة التداول، لأن هذه اللغة بحد ذاتها غير منطقية، وأن قواعدها لا تصلح لأن تكون قوانين في العمليات الاستدلالية، لذا من الضروري أولاً وقبل كل شيء أن يبدأ فريجه ببناء لغة صورية على هيئة لغة علم الحساب».

في النص أعلاه، نلحظ على وصف الأستاذ خليل للمنطق عامة ولمنطق فريجه خاصة، أنه وصفٌ شكّل منذ البدء لقطيعة ثقافية تضع حدّاً فاصلاً بين روح المنطق الفريجوي من جانب، وبين المنطق الحجاجي/التواصلي/البلاغي في بنية اللغة اليومية أو اللغة المتداولة بحسب التصنيف الخليلي، من جانب آخر. وقد انسحب ذلك أيضاً، على وصف طبيعة العلاقة الابستمولوجية والمنطقية بين اللغة والفكر، فتحت عنوان (لغة التداول والمنطق) كتب الأستاذ خليل: «....اللغة المنطوقة أو المكتوبة لا تستطيع أن تعصم الفكر الإنساني من الوقوع في أخطاء، وذلك لسبب بسيط هو أن المعنى المرتبط بالعبارات رغم عموميته عند إفراد المجتمع الواحد، إلا أنه قد يختلف من وضعية إلى وضعية اجتماعية أخرى، ومن فرد إلى فرد آخر، كما أن القواعد المتوافرة في هذه اللغة ليست منطقية، لكي يكون التفكير بموجبها منطقياً. وهذا هو السبب الرئيس الذي جعل المناطقة يبتعدون عن لغة التداول مبتغين بناء لغة رمزية منطقية خالية من الأخطاء وثابتة من نواحيها القانونية».

وهنا علينا أن نسائل الأطروحات اللغوية والمنطقية والرياضية للأستاذ خليل. فهل صحيح أن الدراسات الرياضية والمنطقية آنذاك، قد تجاوزت أو أهملت في مجملها، السياقات (contexts) الثقافية واللغوية لبنية الحياة اليومية، المتمأسسة باللغة الطبيعية

والمتداولة؟ وهل أسست مجمل تلك الدراسات للمنطق الاكسيوماتيكي (axiomatic) متجاوزة منطق الدوكسا (doxa) والآراء (opinions) العامة وأشكال الحوار والنقاش (discussion)؟ وهل عملت تلك الدراسات المنطقية للأستاذ خليل على شحذ (الذهن الحجاجي النقدي) لمتلقي النص الفلسفي؟ وهل قدم الأستاذ خليل من خلال منطقه الرياضي، قراءة نقدية لمجمل الأشكال التقليدية واللاتاريخية المتبعة في تعليم وتداول النص الفلسفي؟ وهل نجح ذلك المنطق في إعادة طرح سؤال الوجود والفلسفة واللغة الطبيعية في خطابنا الفلسفي؟ وهل كان الأستاذ خليل من مؤيدي المنهج الإخباري في تعليم الفلسفة، الذي يُصادر المتكلم ويتجاوز وجود الآخر في العالم اليومي، أم من مؤيدي المنهج البلاغي/الحجاجي – حسب الفيلسوف البلجيكي ومؤسس البلاغة الجديدة شاييم بيرلمان-، ذلك المنهج الذي يتأسس على فن الإقناع (persuasion) البلاغي، الذي يأخذ بنظر الاعتبار اللغة الطبيعية التي تُكون وجود المتلقي والمتعلم في بنية النص الفلسفي؟ ولماذا نجد هناك سيادة لتقنيات بلاغية/استدلالية في النص الخليلي، تكاد أن تكون جزءًا لا يتجزأ من هيمنة المنطق الشكلاني التقليدي المسيطر في الثقافة العراقية عامة والتعليم الأكاديمي خاصة؟ فالملاحظ على تلك التقنيات، انفصالها/وابتعادها قدر الإمكان عن طرح الأسئلة الإشكالية الراهنة، كإشكالية الحق؛ القانون/العدالة؛ السياسة؛ الذات/الآخر، بل إن المنطق الخليلي تجنب طرح سؤال الوجود-في-العالم حسب تعبير هيدجر، إلى جانب سؤال المنطق وتاريخية الأحكام الأخلاقية/الجمالية؟ ولماذا لا نجد تمييزاً بين كل من: الخطاب الرياضي والخطاب العلمي والخطاب التاريخي في المنطق الخليلي؟ ولماذا لا نجد علاقة ابستمولوجية بين كل من الفلسفة والخطاب والبلاغة البيرلمانية الجديدة –نسبة إلى مؤسسها الفيلسوف البلجيكي بيرلمان– المُصادرة والمسكوت عنها في تاريخ مدرسة بغداد المنطقية؟

ومن جهة أخرى، لماذا جرى تجاوز اللغة الطبيعية وانطولوجيا الحياة اليومية، هل لأنها لغة غير خاضعة بعد (للتقييس المنطقي والسيطرة الرياضية)، أم لأنها لغة متمردة على منطق (التقييس الحزبوي والسيطرة الأيديولوجية)؟ وهل صحيح أن تاريخ فلسفات التحليل المنطقي في مجمله، كان تاريخًا منعزلاً عن لغة اليومي واشكالاتها؟ وهل صحيح أن فلاسفة التحليل المنطقي والرياضي للغة، قد ساروا جميعا على نهج قطعي/واحدي، ينفي وجود العالم اليومي واللغة الطبيعية، لانهما يمثلان عوائق ابستمولوجية أمام بناء (اللغة الصُنعية والمنطقية ذات الأنساق المثالية والصورية)؟

قدم الدكتور فؤاد زكريا وصفاً (جامعاً مانعاً) لمجمل ما تم طرحه أعلاه من إشكاليات، حينما قال: «إنني لا زلت أذكر نظرة الاستغراب التي نظرها إلى أحد الأساتذة وهو يناقشني في البحث الذي تقدمت به لدرجة الدكتوراه، ودافعت فيه عن وجهة النظر (المعتادة) هذه. لقد سألني: أتعني (حقًا) أن تدافع عن وجهة نظر (الإنسان المعتاد)؟ وكان في تساؤله دهشة لا تقل عن تلك التي يبديها عالم الرياضة إذا سمع أحداً يعترض على صحة جدول الضرب! هذا إذن هو الموقف السائد فيما يتعلق بالصلة بين الفلاسفة وغير الفلاسفة: فالأولون قد أصبح لهم مجالهم الخاص الذي يترفعون فيه عن وجهة نظر (العامة) ويعدون رفضها أول شرط (للسلوك) إلى ميدان الفلسفة، والآخرون يدهشون للآراء النظرية الميتافيزيقية لدى الفلاسفة، ولا يأخذون بواحد منها في حياتهم المألوفة. ويظل كل من الطرفين متمسكا بموقفه، دون أي محاولة للتفاهم. وإذا كان غير الفيلسوف غير ملوم في عدم تعرفه على وجهة نظر الفلسفة، فإن الفيلسوف بطبيعة مهنته، ينبغي أن يلام لأنه يكاد يعد رفض موقف الذهن المعتاد من القضايا المسلم بصحتها، ويظل هو وطائفته يستخدمون حججهم ومصطلحهم الخاص الذي لا يعرفه غيرهم، وكأنه من الأسرار الحرفية التي لا ينبغي أن يطلع عليها إلا أربابها. وإذا كان من (المخجل) في الوسط الفلسفي أن يحاول المرء الدفاع عن (الواقعية الساذجة) فإن من (المضحك) في نظر عالم الجيولوجيا أو عالم النبات أن يحاول المرء إقناعه بأن العالم الذي نراه (من خلقنا نحن) أو أن يثير المرء فكرة كون المظهر الذي يتبدى عليه العالم هذا العالم خادعًا، واحتمال كون العالم في (حقيقته) مخالفًا لما ندركه. وفي رأيي أن استمرار هذا الازدواج هو الأمر المخجل حقًا. وليس مما يشرف الفلاسفة على الإطلاق أن يكتفوا بوصف الآخرين بأنهم من (العامة)، دون أي محاولة لتحليل سبب ذلك الاعتقاد القوي الذي يدفع (الناس)، وضمنهم الفلاسفة أنفسهم خلال الجزء الأكبر من حياتهم، إلى الأخذ بوجهة النظر (الطبيعية). إن الفلاسفة يعدون وجهة النظر هذه (خطأ) ينبغي تجاوزه إلى غير رجعة. ولكن كان الأجدر بهم أن يكرسوا شيئًا من جهودهم لإيضاح علة انتشار هذا (الخطأ) على هذا النحو الهائل بين جميع الآدميين غير المتفلسفين، وبين الفلاسفة أنفسهم في لحظات عدم تفلسفهم! إن ذلك الازدواج الذي يسود حياة من ينكر العالم الخارجي من الفلاسفة، حين يتصرف في هذه الحياة حسب الموقف الطبيعي، ويفكر فيها حسب الموقف المثالي، كان يستحق على الأقل تفسيراً أو تعليلاً- ولكن، كم من الفلاسفة من كرس أبحاثه لهذه المسألة الحاسمة؟! إن الفلسفة في حاجة إلى أن تخرج من آن لآخر، من النطاق (الاحترافي) الذي ضربته حول نفسها، وتحدد علاقتها ببقية مجالات العالم. وهي على الأخص في حاجة إلى أن تنظر إلى فهم وتقدير، لا بازدراء وترفع، إلى وجهة نظر (الإنسان) بالمعنى العام لهذه الكلمة. وينبغي أن تجد في نفسها الشجاعة للربط بين أرائها وبين هذا (الإنسان)، وإلا فستظل إلى الأبد (مهنة) ضيقة لا تلقى استجابة إلا من ذلك النفر القليل الذي احترفها».

**هذا إذن هو الموقف السائد فيما يتعلق بالصلة بين الفلاسفة وغير الفلاسفة: فالأولون قد أصبح لهم مجالهم الخاص الذي يترفعون فيه عن وجهة نظر (العامة) ويعدون رفضها أول شرط (للسلوك) إلى ميدان الفلسفة، والآخرون يدهشون للآراء النظرية الميتافيزيقية لدى الفلاسفة، ولا يأخذون بواحد منها في حياتهم المألوفة**

وأشار الدكتور زكريا إلى طبيعة الاختلاف الابستمولوجي بين لغة العلم ولغة الموقف الطبيعي في هذا العالم، قائلاً: «إنه من العبث أن ننقد الصورة التي نكونها للعالم في موقفنا الطبيعي لاختلافها عن الصورة العلمية للعالم، إذ إن كلا من الصورتين تؤدي وظيفة مختلفة تماما عن وظيفة الأخرى، وتسري على مجال مخالف تماما لمجالها».

من هنا، علينا أن نتساءل بعد كل ذلك، فيما إذا كان منطق الأستاذ خليل قد نجح في تدشين خطاب فلسفي يتخارج بنا عن الأطر الاحترافية للتفلسف إلى خطاب العامة واليومي؟ وهل نجح ذلك المنطق في إعادة قراءة تاريخ خطابنا الفلسفي؟ وهل عمل على استئصال (ظواهر التعالي الأيديولوجية والعلموية الزائفة) على خطاب العامة وثقافتهم، أم أن ذلك المنطق كان الدعامة الرئيسية في تأسيس نظرة تتجاوز (الوجود اليومي)، كونه منطق متمركز ضمن جغرافية فلسفية سميت خطأً بـ(الواقعية الساذجة)، أو بـ(الواقعية العامية)؟ وهل أصبح ذلك المنطق، هو العامل (المحرك الذي يحرك ولا يتحرك) لسيرورة وحركة الخطاب الفلسفي بطريقة توتولوجية؛ إخبارية؛ معنعنة، تتعامل مع النص الفلسفي بطريقة (حنبلية)، ليست (حجاجية أو إبداعية)، يسيطر فيها أرباب العلم والتعلم على عملية تشكيل الدرس الفلسفي؟ وهل أصبح ذلك المنطق الرافد الأساسي الذي سوف يشكل وجهة أساليبنا اللغوية واللسانية المعتمدة في كتابة أبحاثنا ورسائلنا وأطروحاتنا الجامعية المقبلة؟

# رسالة إلى بلقيس



**شعر: أحمد إبراهيم الحربي**

جازان

بلقيس أين دويك الخلاب؟     فالصرح قوض ركنه الأصحاب
والعرش في «صنعاء» على عرصاتها     متهدم أودى به الأحزاب
والمجد مطلول على شرفاته     ينعاه في «سبأ» الجميل غراب
بلقيس - لا أدري- أدك شموخه     «ذويزن»؟ أم أزرى به الكذاب؟
وزهور «وادي الدور» جفّ عبيرها     طعنت صدور الغيد فيه حراب
بلقيس يأسرنا الجمال وإنما     قد عاث فيه اللص والنصاب
هذا هو «اليمن السعيد» ممزق     يختال في أرجائه الإرهاب
والجهل واللأواء تنهش أهله     وبرغم هذا .. ينعق النعاب
يتلفت اليمن السعيد فلا يرى     شمساً .. كأن الأكرمين سراب
وتموت كل الأمنيات وليدة     وتقطعت من دونها الأسباب
وطن تعز به الحقيقة عندما     سادوا على أبنائه الأذناب
يغتاله الآتون من قاع الخنا     لا منطق لحن .. ولا جذاب
لا الدين يردعهم ولا شرعية     مرقت على راياتها الأعراب
«بلقيس» هم قوم أضاعوا دربه     زمناً .. فسدت دونه الأبواب
هذا هو اليمن السعيد على الردى     والكل مكلوم الجراح مصاب
كثرت به الأصوات أو قلت فما     يجدي به الإيجاز والإطناب
وطن يدمره الحماة بجهلهم     كبراً .. أرأي الجاهلين صواب؟
قتل وتشريد وهتك محارم     وتقطع الأصهار والأنساب

* * *

بلقيس- ما يبست حروف قصيدتي     أبداً فما زال الشذا ينساب
لكنه الوجع المقض على الطوى     تأبى على سريانه الأعصاب
بلقيس عودي- فالدمار ميمم     شطرا .. وشطر العائثين خراب
عودي إلى اليمن العليل ورددي     بلقيس «فالتأريخ» لا يرتاب



# إشكاليات ترجمة القرآن الكريم

# إضاءة تاريخية نقدية لترجمة روبرت أوف كيتون: ومراجعة جيمس كريتزك لها



د.فؤاد عبد المطلب

جامعة جرش – الأردن

يطرح أحد الباحثين العرب المسلمين في بداية دراسة له حول ترجمة القرآن الكريم تساؤلاً وجيهاً: «ترجم غير المسلمين القرآن الكريم إلى لغاتهم بقصد الرد عليه، وأول ترجمة من هذا النوع كانت إلى اللغة اللاتينية في العصور الوسطى [يقصد ترجمة روبرت أوف كيتون للقرآن الكريم]، ثم ترجم آخرون من هؤلاء في العصور الحديثة إلى لغات أوروبية أهمها الإنكليزية والفرنسية، ولكن لم يترجمه أحد من المسلمين حتى العهد الأخير، وجل هؤلاء إن لم يكن كلهم من غير العرب أو ممن دخلوا الإسلام حديثًا. فما هي أسباب ذلك، مع أن كثرة المؤمنين برسالة محمد ﷺ هم من غير العرب ولا يتكلمون العربية؟». ويخوض هذا الباحث في موضوع أحكام ترجمة القرآن وتاريخها ويقدم في نهاية دراسته تفسيره لإحجام العرب عن ترجمة القرآن وإقدام غيرهم من المسلمين. ويرى أن أهم أسباب ذلك الإحجام يكمن في آيات القرآن الصريحة، فما جعله الله عربيًا لم يجسر عربي على أن يجعله غير ذلك. فللقرآن في روع كل عربي واقف على أسرار بلاغته العربية منزلة من التعظيم والتكريم لا تعلو عليها منزلة، فهو يضمر في قلبه حرصًا على إبقاء هذين التراثين، القرآن الكريم ولغته الشريفة، متكاملين على الوجه الذي أراده الله وارتضاه رسوله والفهُ العرب.

إن ما يهمنا في هذا الكلام أن الأوروبيين لم ينتظروا العرب والمسلمين كي يترجموا القرآن الكريم بل قاموا بترجمته إلى اللاتينية في وقت مبكر من تاريخ عدوان الغرب الأوروبي ضد العرب والمسلمين، في حقبة الحروب الصليبية، التي كانت ترمي في ظاهرها إلى تخليص بيت المقدس من يد المسلمين، وفي حقيقتها إلى تدمير الإسلام والسيطرة على الشرق العربي الإسلامي بما فيه من خيرات ومراكز.

لذلك هدفت الدراسة الحالية إلى تقديم إضاءة حول إحدى الترجمات المبكرة التي وضعها أناس معادون أساسًا للإسلام وعلى شخصية أصحابها ونفسيتهم ومواقفهم السلبية والعدائية المستترة وراء غطاء أيدلوجي مزيف اتخذوه خدمة لمآربهم وأهدافهم وأهداف من هم وراءهم، وتستند في ذلك إلى مطالعة في الوضعية التاريخية التي تساعد في تحقيق عملية الإحاطة بالقضية المطروحة، كما يساعد نقل مراجعة جيمس كريتزك إلى العربية في التعرف على الترجمة وواضعيها والحكم عليهم. والحق، إن الفائدة الحقيقية تكمن في دراسة الترجمة ذاتها دراسة متأنية، بيد أن المحاولة هنا ترمي إلى إثارة النقاش ولفت انتباه المترجمين والباحثين ضمن الحدود المرسومة لهذا العمل تاركة للمتخصصين النوعيين مهمة البحث والتحقق والتدقيق والرد، فمثل هذه الأمور تحتاج إلى معرفة متخصصة ووقت طويل وجهد متواصل للوقوف عليها.

في معرض حديثه عن تاريخ الاستشراق وميدانه ودوافعه يتحدث الدكتور مصطفى السباعي عن صعوبة تحديد من هم الغربيون الأوائل الذين عنوا بالدراسات الشرقية وفي أي وقت كان ذلك، ولكن من المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس في إبان عظمتها ومجدها، وتثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم، ومن أوائل هؤلاء الرهبان الراهب الفرنسي جربرت الذي انتخب بابا لكنيسة روما عام 995م بعد تعلمه في معاهد الأندلس وعودته إلى بلاده وبطرس المحترم (1092 – 1156م) وجيراردي كريمون (1114-1187م).

وما أن عاد هؤلاء إلى بلادهم حتى نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم، ثم أسست المعاهد للدراسات العربية، أخذت الأديرة والمدارس العربية تدرس مؤلفات العربية المترجمة إلى اللاتينية – وهي لغة العلم في جميع أوروبا يومئذ – استمرت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب وتعدها المراجع الأصلية للدراسة قرابة ستة قرون. ثم يذكر الدكتور السباعي دوافع الاستشراق الدينية والاستعمارية والتجارية والسياسية والعلمية، ويقسم أهداف المستشرقين في جملتهم إلى ثلاثة أقسام أولها؛ ما يهمنا منها هو الهدف العلمي المشبوه الذي يهدف إلى التشكيك بصحة رسالة النبي ﷺ ومصدرها الإلهي، وإنكارهم أن يكون الإسلام ديناً من عند الله وإنما هو ملفق – عندهم –من الديانتين اليهودية والمسيحية. ويتطرق شكيب أرسلان إلى بعض الطعن والقذف والتشويه الذي حمله الغربيون تجاه النبي محمد ﷺ وتأكيد بعض المستشرقين لتلك الأباطيل: «فقد مثّل هؤلاء محمدًا بوصفه رجلاً كاذبًا، والإسلام بوصفه عملاً من أعمال الشيطان، والمسلمين بوصفهم قومًا همجًا، والقرآن بوصفه كتابًا منسوجًا من أوله إلى آخره بالمُحالات. وكانوا بزعمهم لا يجدون حاجة إلى الأخذ والرد في هزو كهذا. ثم إن (بيير لوفنيرابل) مؤلف أول كتاب ضد الإسلام تَرجَمَ مع ذلك في القرن الثاني عشر القرآن إلى اللاتينية. ثم في القرن الرابع عشر ظهر (بيير باسكال) فعلِم عن الإسلام أكثر من غيره. ثم إن (البابا اينوشانيوس الثالث) قال عن محمد: إنه المسيح الدجال. ولكن في القرون الوسطى بدأوا ينظرون إليه نظرتهم إلى رجل مبتدع ممن يقال لهم الهراطقة. ثم ظهر ريموند لول في القرن الرابع عشر وغليوم بوستل في القرن السادس عشر وورلان وغانييه في القرن الثامن عشر والأب دوبروغلي وريمنان في القرن التاسع عشر وكانت أحكامهم في هذا الموضوع متفاوتة ليست على وتيرة واحدة.... ولا يزال للإسلام إلى يومنا هذا أعداء شديدو العصبية».

وفي هذا الإطار يعقب الدكتور محمد صالح البنداق على عمل هؤلاء المستشرقين الذين نتحدث عنهم والذي لم يكن قائماً على مبدأ العمل المتجرد والبحث العلمي النزيه، ثم يتطرق إلى اندفاعهم إلى ترجمة القرآن الكريم بالذات وإنتاج ترجمات اعتمد عليها علماء الإفرنج في فهم كتاب الإسلام، فجاءت «قاصرة عن أداء معانيه التي تؤديها عباراته العليا وأسلوبه المعجز للبشر، وهي إنما تؤدي بعض ما يفهمه المترجم له منهم إن كان يريد بيان ما يفهمه، وإنه لمن الثابت عندنا أن بعضهم تعمد تحريف كلمه من مواضعه، على أنه قلما يكون فهمهم تامًا صحيحًا، ويكثر هذا فيمن لم يكن به مؤمنًا، بل يجتمع لكل منهم التصوران كلاهما: تصور فهمه، وقصور لغته».

ويسوق الدكتور البنداق عددًا من الأهداف التي توخاها المستشرقون من ترجمة القرآن، منها التزامهم

**«يتطرق أحد الباحثين والمترجمين في عمل له أيضاً إلى بعض أهداف من قاموا بترجمة القرآن الكريم في الماضي، فيذكر منها: الاطلاع على ما جاء في القرآن لمحاربته؛ ومحاولة إبراز قدرات استشراقية على فهم العربية، وتصديها للنص القرآني»**

بحرية الترجمة فتأتي الترجمة موافقة لأهوائهم من حيث التصرف بالنصوص عن طريق التقديم والتأخير والإهمال وغير ذلك، ومنها ترجمتهم للقرآن ليحاربوه، وانطلقوا من فكرة ترجمة القرآن الكريم صراحة لدحض المبادئ الإسلامية وتفنيدها. وقد فعلوا ذلك بروح رجعية متزمتة سُداها معاداة الإسلام. ولنا على ذلك مثل في الترجمة الأسبانية التي وضعها موركيوندو اي أو اوكراتوندو وعنوانها هكذا بكل صراحة: «القرآن مترجم بأمانة إلى الأسبانية ومعلقًا عليه ومدحضًا طبقًا للعقيدة والتعاليم المقدسة والأخلاق الكاملة للدين الكاثوليكي المقدس الرسولي الروماني» وهي بدون تاريخ، كما أن هؤلاء المستشرقين اندفعوا نحو الترجمة الكيفية لا الصحيحة والعلمية أو حتى النسبية لحد ما، إمعانًا في التحريف والتضليل خوفًا من أن يعتنق الإسلام من يقف من الأوروبيين على حقيقة النصوص القرآنية فيما لو حصل على ترجمة صادقة أو صحيحة، ومنها أيضًا تعمد التحوير في ترجمة بذاتها بحيث يبرز شرح أو تفسير كلمة مغايرة لما كان عليه في الطبعة الأولى مما يدل على روح التضليل، ومنها تحبيذ نشر ترجمات معينة مضللة أو إعادة نشرها وترجمتها إلى لغات أخرى، وخصوصًا الترجمات التي تنطوي على الأضاليل والتحويرات والأخطاء والشطحات التي سداها الحقد والتعصب الذميم. إن ذكر هذه الأهداف والآراء هنا ليس نقلاً أو ترفًا فهو يتصل على نحو مباشر بقضية ترجمة كيتون للقرآن والظروف التي تمت فيها، لأن تلك الأهداف تتجسد على نحو أو آخر في حال هذه الترجمة المذكورة، كما أن الغرض من الحديث حول أهداف المستشرقين بخصوص ترجمة القرآن يؤسس للنقاش لاحقًا في هذا العمل.

إضافة إلى ذلك كله، يتطرق أحد الباحثين والمترجمين في عمل له أيضًا إلى بعض أهداف من قاموا بترجمة القرآن الكريم في الماضي، فيذكر منها: الاطلاع على ما جاء في القرآن لمحاربته؛ ومحاولة إبراز قدرات إستشراقية على فهم العربية، وتصديها للنص القرآني، ولكنها لم تسلم من الخلفيات الدينية أو الفكرية التي واجهتها، ومنها سعي فرق مذهبية بعيدة عن الإسلام لتدس في القرآن عقائدها وآراءها؛ ومنها إظهار حسن النية في ترجمة معاني القرآن الكريم ترجمات تميزت بالتعمق في اللغتين العربية والأجنبية على ما فيها من مآخذ، كأن تنحو منحى العامية أحيانًا، وتحكمها الأهواء أحيانًا أخرى. وسعى إلى هذا الأمر بعض المستشرقين واليهود ممن تعاطفوا معهم فترجموا القرآن الكريم وعلقوا بحجة الدراسة النقدية المنهجية، وكان غرضهم التهجم على الإسلام وإنكار أصالة ما جاء فيه، والنيل من قيمه الدينية. وتماشيًا مع كثير من الأهداف المذكورة يمكن القول إن ذلك كان إلى حد كبير حال أول ترجمة لاتينية أوروبية مسيحية للقرآن الكريم وهي الترجمة التي ظهرت في أوروبا في بداية عصر المواجهة بين المسلمين والمسيحيين الغربيين في الأندلس، إبان حقبة الحروب الصليبية.

**«لقد كانت الغاية المعلنة من مشروع الترجمة هذا معرفة كتاب الإسلام، والهدف الحقيقي هو أن تكون الترجمة سلاحاً يستخدمه المسيحيون ضد المسلمين في مدة انطلاق أهم الحملات الصليبية إلى الشرق العربي الإسلامي.»**

وقد أنجزت هذه الترجمة بتكليف من الراهب بيتر الجليل الذي كان رئيساً لدير رهبان كلوني من عام 1122م إلى عام 1156م وهي سنة موته. ولد هذا الراهب في منطقة أوفرني في فرنسا عام 1092م، وكان ناشطًا مسيحيًا كبيرًا، وصديقًا لآباء الكنيسة والملوك. دفعه حب الاطلاع عام 1141م إلى زيارة الأديرة البندكتية، أديرة الرهبان من أتباع بنيديكت في طليطلة، فسحرته روعة الحضارة العربية الإسلامية التي شهدها بأم عينه، واعترته الرهبة، واعتزم الاطلاع على العوامل الباعثة لهذه الحضارة التي رأى فيها منافسًا جبارًا للمسيحية، فقرر أن يطلع على مصادر الإسلام. وصادف هناك قسًا إنكليزيًا يدعى روبرت أوف كيتون، ففوضه مع آخرين بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، فأنهى ذلك القس الترجمة عام 1143م، ومخطوطتها موجودة بخطه في مكتبة الأرسنال في باريس. وقد ظهرت على ترجمة روبرت أوف كيتون حواشٍ وتعليقات تنم عن روح صليبية عدائية تجاه القرآن الكريم والنبي محمد ﷺ، مما يدخل في إطار القدح الكريه. وبالرغم من ذلك فإن السلطات الكنسية آنذاك لم تسمح بظهور هذه الترجمة مباشرة نظرًا لسيادة الشعور الصليبي المغالي، وخوفًا من أن تؤدي هذه الترجمة على مساوئها، غرض التعريف بالإسلام وانتشاره عوضًا عن الهدف الأصلي، وهو محاربة الإسلام (مع أن أوساطًا دينية مسيحية كثيرة اطلعت عليها وتأثرت بها). ظهرت هذه الترجمة مطبوعة في عام 1543م في مدينة بال السويسرية لدى الناشر بوكمان بيلياردي، وأعيد طبعها مرتين في زيورخ عام 1550م وعام 1556م. لقد كانت الغاية المعلنة من مشروع الترجمة هذا معرفة كتاب الإسلام،

والهدف الحقيقي هو أن تكون الترجمة سلاحًا يستخدمه المسيحيون ضد المسلمين في مدة انطلاق أهم الحملات الصليبية إلى الشرق العربي الإسلامي. وقد قال نورمان دانييل عن روبرت في ترجمته إنه «كان دائمًا يغلو ويبالغ في ترجمة نص غير عدائي كي يضفي عليه طابعًا كريهًا أو إباحيًا، أو لتفضيل تفسير غير محتمل ومكروه على تفسير محتمل ومقبول».

إن ظهور هذه الترجمة ينطوي على مفارقة جلية فقد تزامن ذلك مع الأحداث الدامية التي شهدها الشرق نتيجة للحقد الصليبي المسلح ضد العرب والمسلمين، ومع حركة فكرية ودينية إصلاحية في الغرب جاءت نتيجة ردة فعل للحروب الصليبية ولعوامل عديدة أخرى. وقد أشار غير باحث إلى هذه النقطة؛ فقد أوضح محمد أبو طالب في هذا السياق: «أنَّ من غريب المصادفات أنَّ بعض ترجمات القرآن الكريم صدرت في ظروف معينة من تاريخ الحضارة الفكرية والاجتماعية والدينية في الغرب. فالترجمة الأولى صادفت حركة الإصلاح الديني التي انطلقت من كلوني في فرنسا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وكانت تهدف إلى إرساء قوانين مؤسسة الكنيسة من جهة، والعمل على تحرير الفرد من شتى القيود من جهة أخرى. ونذكر على سبيل المثال الانقسام الذي وقع بين اليونان وبين الروم داخل الكنيسة سنة 1054».

ومن رواد هذه الحركة المشرف على الترجمة المذكورة القس المعروف ببيتر الجليل سنة 1143م. وقد ظهرت الطبعة الثانية إبان النهضة الحاسمة في تاريخ المسيحية التي قادها مارتن لوثر (1483–1546م) الذي كان له اهتمام نسبي بالإسلام، وكان من بين الملحين على إصدار هذه الترجمة التي كتب لها تقديمًا. وعلى الرغم من الموقف المعادي للإسلام آنذاك، فمما لا شك فيه أن هذه الترجمة كانت عنصرًا فعالاً في تطوير الفكر الألماني خاصة والغربي عامة. ستحاول المناقشة الآتية التطرق إلى تلك الثنائية الغربية بطرفيها الصليبي والإصلاحي وبيان تأثيرها في ترجمة روبرت أوف كيتون.

ففي الشرق، كانت الحرب الصليبية الأولى التي جرت ما بين الأعوام 1096-1146م بمثابة الشرارة التي أشعلت الحرب بين الشرق الإسلامي وأوروبا الصليبية التي بدأت في أعقاب خطبة البابا أوربان الثاني خارج مدينة كليرمون في السابع والعشرين من تشرين الثاني عام 1095م/496هـ أمام حشد كبير من الناس، ودعوة بيتر الجليل الذي هجر الدير وأخذ يتجول في شتاء عام 1095–1096م في أرجاء فرنسا داعيًا لحملة البابا. وكان بيتر الجليل في مقدمة جيش الحملة في ربيع عام 1096م/497هـ الذي زحف باتجاه مدن الشرق فاستولى عليها كمدينة نيقية، عاصمة الدولة السلجوقية، ومدينة أنطاكية التاريخية، والقدس، وارتكب الصليبيون ما ارتكبوا من مجازر وسلب ونهب ولاسيما في بيت المقدس (انظر، ابن خلدون في كتابه (العبر)، وويلز في كتابه (موجز تاريخ الشرق الأوسط) والمؤرخ نقولا زيادة في كتابه (الصليبيون في الشرق). كما تمكن الصليبيون من فرض سيطرتهم على معظم ساحل البحر الأبيض المتوسط باستثناء صور وعسقلان. ودار خلال ذلك عدد من المعارك والمواجهات، وما لبث أن ظهر عماد الدين الزنكي الذي دانت له الموصل عام 1127م/521هـ فغدا أقوى حاكم مسلم ليقود حركة الجهاد ضد الغزاة الصليبين. وتمكن عماد الدين الزنكي من توحيد الصفوف وتوجيه ضربات قوية للصليبين، فبعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً استطاع أن يدخل الرها ويستولي عليها بعد أن قضى على الصليبين فيها. فكانت الرها هي أول إمارة صليبية تقوم على أرض الشرق العربي الإسلامي، وبشاء القدر أن تكون أول إمارة تتحرر. وقد سبب سقوط الرها صدمة مؤلمة وعنيفة للصليبين، ترددت أصداؤها في كل من الشرق والغرب، إذ كانت المدينة ترتبط بتراث مسيحي باكر، كما أن سقوطها بعد ما يقارب من خمسين عامًا على استيلاء الصليبين عليها كان نذير شؤم بالنسبة إليهم. وخلف نور الدين محمود أباه عماد الدين الزنكي في إمارة الموصل بعد عامين من تحرير الرها إثر مقتله غيلة عام 1146م/541 هـ. ولم يستكن نور الدين الزنكي عن توحيد الإمارات الإسلامية في الشرق للقضاء على الكيان الصليبي وتحرير بيت المقدس.

أحدث سقوط إمارة الرها (Edessa) وتحريرها على يد عماد الدين الزنكي هزة كبيرة في أوروبا، وفي الشرق – حيث مستوطنات الصليبين – كان الإحساس بالهزيمة مريراً، فذهب وفد من فرنجة الشرق إلى بلاد البابا ايجنيوس الثالث، وذهب وفد من الأرمن يستنهض همم البابوية وملوك الغرب لمحاولة استرداد الرها التي ضاعت منهم، ونتيجة لمساعي القديس برنارد وخطبه الدينية أمام بارونات فرنسا التي كان يؤكد فيها أن سقوط الرها لم يكن كارثة ولكنها إرادة الرب في أن يمتحنهم من أجل أن يهبوا لاستردادها. وشرع برنارد يبارك البارونات في أرجاء فرنسا و(الحجاج) المحاربين الصليبين من أجل أن يهبوا في حملة صليبية جديدة إلى المشرق ستعد لاحقاً من أشد الحملات المتطرفة دينيًا. كان برنارد مصممًا على أن تكون الحملة عالمية يشترك فيها جميع أبناء العالم المسيحي في الهجوم على المسلمين ومن ثم لتدمير الإسلام نهائيًا. ونتيجة لذلك تجمع جيش فرنسي كبير قوامه سبعون ألفًا على رأسه لويس السابع ملك فرنسا، وتجمع جيش ألماني قوامه سبعون ألفًا أيضًا على رأسه إمبراطور ألمانيا (كونراد) الثالث. سلك الجيش الألماني طريق البحر ورست سفنه على شواطئ آسيا الصغرى، وعلى أراضي السلاجقة هاجمه المسلمون وأجبروا قسمًا منه على العودة، واضطر الإمبراطور الألماني إلى التخفي واستطاع أن يفلت من الحصار ويصل إلى بيت المقدس. أما الجيش الفرنسي فسار بطريق البر حتى وصل إلى القسطنطينية وعرف هناك أن حشودًا إسلامية كبيرة تنتظره في إمارة الرها، فالتف حولها، متجنباً الصدام معها، وتقدم نحو بيت المقدس. وفي بيت المقدس اتفق كل من الملك الفرنسي والإمبراطور الألماني مع بلدوين الثالث ملك بيت القدس على الزحف إلى دمشق واحتلالها. وحاصر الصليبيون مدينة دمشق، لكنها كانت بالغة القوة والتحصين. فسارعت قوى إسلامية عديدة لإنقاذ دمشق وفك الحصار من حولها، مما اضطر الجيوش الصليبية إلى التقهقر والانسحاب ليتفادوا معركة دموية كبرى لم يجرؤوا على الدخول فيها. وفشلت الحملة الصليبية في استرداد الرها وانسحبت جيوش الصليبين إلى أوروبا وهي تشعر بمرارة الخزي والهزيمة. وقد دامت أحداث الحملة الصليبية الثانية من أواخر 1147م/532هـ إلى أواخر عام 1149م/534هـ.

وفي الغرب، خصوصًا في فرنسا كانت هناك نزعة فكرية تتجه نحو التعلم بالإضافة إلى الروح المسيحية المتدينة السائدة. فبدلاً من الرحلة العدائية تلك التي تقود إلى الفتح وإلى عالم محدد ماديًا، برزت الآن الرحلة الصوفية المتدينة باتجاه عالم ليس ذا نهاية مادية. ففي آخر رومانسيات (قصص الفروسية والبطولة) الكاتب كريتيان (قصة الكأس المقدسة) التي لم يكملها، يسعى فرسان إلى الكأس المقدسة التي استخدمها المسيح في العشاء الأخير والتي تحتوي دمه الحقيقي. وتتحول الكأس فيما بعد من أثر مقدس إلى رؤيا خيالية مقدسة لا يسعى فيها الفرسان إلى مدينة القدس ولكن إلى مدينة أراس السماوية التي ليس لها مكان جغرافي محدد في هذا العالم. وبدأ سعي الناس إلى أيدلوجية غير مهووسة بحيازة الأراضي بالقوة أو بالعودة إلى جذور جغرافية محددة. وحاولوا تحرير العنصر المقدس من العنصر المادي ابتغاء إيجاد بديل أيدلوجي للحيلولة دون الوقوع في براثن العنف الانتحاري للأيدلوجية الصليبية المسلحة. وفي بداية قصة (كليجية) Cliges يلقي كريتيان نظرة إلى الماضي:

«فمن الكتب التي بقيت لنا من الماضي نتطلع إلى الأعمال العظيمة للرجال الذين عاشوا في غابر الزمان. وتخبرنا كتبنا هذه أن أمثلة الفروسية والعلم كانت في الماضي تنتمي إلى الإغريق. ثم انتقلت الفروسية إلى روما، مع العلم الكبير الذي بدأ يأتي الآن إلى فرنسا. نرجو من الرب أن يحظى العلمُ بمكانة هنا وأن يُرحب به هنا وألا يفارقنا الشرق الذي حظينا به بسبب ذلك في فرنسا: لقد منحها الرب فرصة جديدة، ولكننا لم نعد نسمع عن الإغريق الرومان، فقد ولى زمانهم، وخمدت جذوتهم».

كان هذا يمثل شعورًا إفرنجيًا جديدًا: فبدلاً من النظر

إلى الوراء أي إلى الإمبراطور شارلمان فقط، نرى هنا سعي كريتيان لتأسيس علاقة مع الإغريق والرومان، مع أبطال العالم الكلاسيكي، الذين لا يمثلون قوى عسكرية فحسب بل أساطين للمعرفة. وسعى كريتيان مع غيره من الكتاب إلى بعث فكري إفرنجي جديد كاستمرار للتراث القديم. وفي هذه الأثناء كان بعض العلماء يحاولون بناء جسر من الماضي الكلاسيكي الذي ضاع إبان العصور المظلمة. وكلما احتل الفرنجة أرض كانت تحت الحكم البيزنطي أو الإسلامي، كانوا يجدون هناك أناس يعرفون الإغريقية أو العربية ومطلعين على علوم العالم الكلاسيكي القديم الذي فقد الغرب الصلة معه. فأسرع العلماء الذين يجيدون اللاتينية إلى أماكن مثل أسبانية وصقلية، وفيما بين الأعوام 1150و1187م قام علماء مثل جيرالد أوف كريمونا وتلميذه دانييل مورلي باكتشاف ثروة من النصوص وتراث علمي كبير مترجم لدى العلماء العرب، فحاولوا بشتى السبل تأمينه كي يصل إلى أيدي الطلبة الأوروبيين. فشرعوا في ترجمة الكتب عن العربية واكتشفوا أعمال أرسطو العلمية بينها بالإضافة إلى أعمال العلماء العرب الفلسفية والعلمية. وقد كانت طليطلة مركزًا مُهمًا للترجمة: فقد وجد دانييل مورلي أعمال علماء عرب عَدَّهم (من أكثر الفلاسفة حكمة في العالم). ولما لم يكن في الأجواء حساسيات دينية كان الاتصال يتم بين العلماء من كل الديانات، ولاسيما المسلمين والمسيحيين، وقد كانوا يتعاطون العلم على نحو موضوعي. فمن جهة كان العرب قد استوعبوا معارف العالم الهلنستي والعالم الكلاسيكي القديم وتمثلوها على نحو مكنهم من نقلها بصورة مفهومة وواضحة إلى العلماء من أديان أخرى. وعبر ترجمة الكتب العربية وقراءتها كان العلماء الغربيون حقاً يعودون بأوربا إلى جذورها الكلاسيكية، ويكتشفون تراثًا فكريًا غنيًا ضائعًا. وقد تعلم أولئك الأوربيون كثيرًا من الفلاسفة العرب وعلمائهم؛ من أمثال الفيلسوف والطبيب أبي علي الحسين بن عبد الله ابن سينا (المتوفى سنة 1037م) وكان اكتشافهم الأعظم في قرطبة لمعاصرهم أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد (متوفى سنة 1198م). وقد اختصرت هذه الأسماء على التوالي إلى أفيسين Avicenne وأفيروس Averroes، وهكذا أصبح العلماء العرب الحكماء الجدد ومرشدي الغرب الذي يشق طريقه نحو الأمام بصعوبة، والذي أخذ يبني تقاليد مدرسة علمية طبقًا للمناهج العربية، مع تأكيد علميّ النحو والمنطق خاصة، ولذلك كان بعض المسيحيين في حقبة الحملات الصليبية يتعلمون من العرب بدلاً من ذبحهم باسم الرب، فمن خلال ذلك التعلم والروح العربية الإسلامية الإيجابية والمتسامحة في العطاء بدأت الحياة الفكرية الجديدة تعطي أُكلها. وتذكر كارين أرمسترونغ صراحة أن العرب المسلمين على نحو خاص كانوا نوراً بالنسبة إلى الغرب

**«كان توما الإكويني يمتدح ابن سينا وابن رشد ويعجب بهما لكنه كان يرفض دينهما الإسلامي ويعده غلطة أو زلة وثنية من طرفاهما. وحاول آخرون اقتطاع كلام لابن سينا من أجل الرد على الإسلام»**

المسيحي، ومع ذلك فإن ذلك الدَّيْن قلما أشير إليه أو اعترف به. وما إن اكتملت عملية الترجمة العظيمة تلك فيما بعد، حتى أخذ الأوروبيون يُجردون أنفسهم من تلك العلاقة المعقدة والمَرَضيّة – بالنسبة إليهم–مع الإسلام، وأصبحوا غامضين فعليًا في تعاملهم وتصريحاتهم عن العرب والمسلمين، وكأنهم لم يعرفوهم قط. وبدا هؤلاء الأوربيون وكأنهم غير قادرين تمامًا على المطابقة بين العرب المسلمين الذين تعلموا على أيديهم، وبين العرب المسلمين الذين يقاتلونهم عبر حملاتهم الصليبية وأصبح العرب يُحشرون دون تمييز مع (الوثنيين) أو(القبليين) Gentiles مثلهم مثل قدماء الإغريق والآشوريين والكلدانيين وغيرهم. فنادراً ما صدر تصريح يَعدُّ العرب من غير الوثنيين أو القبليين على الإطلاق أو أنهم كانوا يؤمنون بإله إبراهيم الخليل. وظهرت تناقضات مضحكة أحيانًا في أفكارهم: فقد كان توما الإكويني يمتدح ابن سينا وابن رشد ويعجب بهما لكنه كان يرفض دينهما الإسلامي ويعده غلطة أو زلة وثنية منهما. وحاول آخرون اقتطاع كلام لابن سينا من أجل الرد على الإسلام. وعندما يتخيل دانتي موطن الأرواح المحرمة من دخول الجنة ليضع فيه الأخيار من (الوثنيين) فإنه يُدخل ابن سينا وابن رشد معهم، ولكنه يضعهم في آخر قائمة العلماء الإغريق واللاتينيين المميزين الذين يعدهم من الأسلاف المفكرين. وترسخ – خلال عصر النهضة في أوروبا فيما بعد – ذلك التراث الكلاسيكي في الوعي الأوروبي، وأسقطت اللغة العربية من المناهج الدراسية، ورُفضت من قبل الهيلينين الجدد بوصفها لغة همجية وغدت العلاقة مع الإسلام والعرب معقدة بالنسبة إلى الأوروبيين في أن يتعاملوا معهم على نحو متوازن وموضوعي. وجعلت النزعة الصليبية العرب جزءًا مكروهًا من الهوية الغربية. كما أن علماء تلك الحقبة وجدوا أنفسهم على نحو مشابه غير قادرين على تمييز أولئك الإغريق الذين اكتشفوهم مؤخرًا بوصفهم جزءاً لا يتجزأ منهم كغربيين أنهم فعليًا هم أجداد البيزنطيين المكروهين. إن تلك الحركة العلمية الهادئة المبدعة فكرًا وفنًا والتي تتلمذت على يد العرب المسلمين كانت ترفض على مستوى من المستويات عنف الحملات الصليبية على صعيد القول أو الشكل فحسب. ومبعث هذا الرفض ليس حب المسلمين ولكن الرعب والهلع من المذابح التي سترتكب بحق المسلمين والموت والهزيمة اللذين ينتظرانهم في نهاية الحملة بالنسبة إليهم. وحتى في أحسن حالات هذه الحركة كان هناك في النظر إلى العرب والمسلمين قمع غير طبيعي وتفكير مزدوج حيال أولئك الناس الذين كانوا يوماً ما مرشديهم ومعلميهم، ومثالهم الرائع، فهم الآن أعداؤهم الوثنيون الميتون. فإلى تلك الحركة على ما يبدو كان الراهب بيتر الجليل ينتمي. وكثيرًا ما كان البحث الغربي في الإسلام يتميز بتلك النظرة المزدوجة السابق ذكرها، ويبدو أيضًا أن مراجعة جيمس كريتزك لترجمة روبرت أوف كيتون تندرج في سياق هذه النظرة.

ولقد ذكرنا سابقًا أن الراهب بيتر الجليل ولد في منطقة أوفرني بفرنسا عام 1092م، وكان ناشطاً مسيحيًا كبيرًا فأصبح رئيسًا لدير رهبان كلوني من عام 1122م وحتى عام 1156م وهو عام موته. ولا بد هنا من الإشارة إلى الدور الكبير الذي قام به دير كلوني في نشر التشدد الديني المسيحي من طرف وإيقاظ الوعي الغربي من طرف آخر وإلى إسهام بيتر في ذلك عبر نفوذه الروحي وصداقته مع آباء الكنيسة والملوك، فقد دفعه حب الاطلاع عام 1141م إلى زيارة الأديرة البندكتية في طليطلة، فعزم الاطلاع على العوامل الباعثة للحضارة العربية الإسلامية التي سمع بها ورأى فيها منافسًا قويًا للمسيحية، فقرر أن يطلع على مصادر الإسلام، وتعرف هناك على راهبين زائرين آخرين، الأول إنكليزي ويدعى روبرت أوف كيتون والثاني هو هرمان أوف دالماتيا، وكان هذان الرجلان يبحثان عن نصوص عربية في علم الرياضيات والفلك، فقام بيتر الجليل بإقناعهما بالتعاون معه في مشروع يرمي إلى ترجمة كتب الإسلام الرئيسة. وعمل كل من روبرت وهرمان مع مسيحي إسباني يدعى بيتر أوف توليدو، وشخص مسلم، يطلق عليه محمد ذا سراسين. فأدى عمل هؤلاء مجتمعين إلى ترجمة مجموعة من الكتابات التي كانت وثائق بالنسبة إليهم، فظلت تحظى باهتمام بالغ من قبل الأوساط المطلعة الأوروبية حتى نهاية القرن السادس عشر. وكان من بين هذه الوثائق، ترجمة للقرآن الكريم، وتأريخًا للعالم من وجهة النظر الإسلامية، وعرضًا لأحاديث النبي ﷺ ومجموعة من القصص الإسلامية، وعملاً مبكرًا فيه جدل فلسفي مع الإسلام أُطلق عليه عنوان (دفاع الكندي). ويظهر أن أحد المراجعين– فيما بعد قام ببعض الإضافات على هذه الأعمال نفسها، وظلت هذه الإضافات تعد ذات مرجعية في نظر الطلبة مثلها مثل النصوص ذاتها. وبدا ذلك للأوروبيين خطوة إيجابية هائلة نحو الأمام. وبالرغم من أن هذه الخطوة أدت إلى إيجاد تقاليد جدلية، كانت بعيدة تماماً عن فهم حقيقة الإسلام، وأسفرت عن صورة فانتازية مشوهة ساعدت كثيراً على إذكاء نار الحرب الصليبية المستعرة. وادعى الراهب بيتر الجليل، بوصفه رجلاً لطيفًا ومحبًا، عبر كتابته رسالة (بحث صغير) أنه سيصل إلى المسلمين عبر خطاب المحبة، ولكن

عنوان عمله هذا يُظهر تمامًا الروح التي صدر عنها: «موجز الهرطقة الكاملة للمذهب الشيطاني الذي يخص الساراسين (العرب المسلمين)» - حقًا كان من المستحيل تمامًا بالنسبة إلى المسيحيين أن يروا الإسلام أي شيء آخر غير نسخة مشوهة عن المسيحية. وهذا الجدال ضد المسلمين الذي بدأ وتطور عبر العصور الوسطى، استمر في الواقع ليؤثر تأثيرًا قويًا في نظرة الغربيين إلى الإسلام في هذه الحقبة وأدى إلى إيجاد جدل يشبه جدل ما سمي بشهداء قرطبة، أي المسيحيين الذين تجرؤوا على الإسلام وشتموه ونالوا محاكمات صارمة من الولاة المسلمين. وأصبح المسلمون بموجب هذه النظرة يشكلون الظل الكريه للغرب المسيحي، ظلاً كريهًا بشدة عصابية لا عقلانية لا مثيل لها.

وخلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر بدأ الناس يتراجعون قليلاً عن النزعة الصليبية ويبحثون عن شكل ديني أكثر سلمًا وأقل عدوانية. فقد كان هنا وهناك في أوروبا علماء متفرقون بدؤوا يتساءلون عن قيمة الحرب الدينية المقدسة وجدواها. فقد أرتعب ذلك الصليبي الأنجلو-نورماندي الذي شارك في الفتح المسيحي لمدينة لشبونة عام 1147م، والذي كتب وصفًا لتلك الحملة، ولمجرد ورود فكرة ذبح المزيد من المسلمين، تَذَكَّر المذبحة التي شهدها بأم عينه وصرخ مستغيثًا «أيها الرب، أرفع يدك الآن، فهذا يكفي». وكان أيضًا، إسحاق راهب إيتوال، يضطرب للغاية عندما يسمع عن أمر عسكري (مجهول المصدر) «يبيح السلب شرعًا والقتل على أساس ديني». وكان إسحاق يطلق على هذا الأمر monstrum novum (الوحشية الجديدة)، وكان يجد أنه من المستحيل أن يكون هناك انسجام من أي نوع بين هذا الأمر وبين صفح المسيح وصبره وطريقة تعاليمه. كما وجد والتر ماب، الذي توفي عام 1209م وكان يعمل أمينًا لدى الينور أكويتين، أن تلك الأوامر العسكرية مقلقة جدًا؛ وقد صرح أن «الحواريين فتحوا دمشق بكلام الرب وليس بحد السيف، تمامًا كما فتحوا الإسكندرية وبلدانًا عديدة في العالم». ومع ذلك لم يقم أحدٌ من هؤلاء الكُتاب بإدانة الصليبية. بيد أنه من الواضح بروز عدد من الناس هنا وهناك الذين أخذوا يرون أن هناك تناقضًا كبيرًا بين الحملات الصليبية وتعاليم المسيح. وقام معظم الناس بدفن أو بتغييب هذا الفهم على نحو قاس في أنفسهم؛ وهكذا استمرت الحملات الصليبية في الانطلاق باتجاه الأرض المقدسة. ولكن يبقى من المهم التأكيد أن علماء تلك الحقبة عندما كانوا يدرسون الإسلام كانوا لا يرون فيه إلا دين سيف، وهذه النظرة لا تزال قائمة لدى الكثير من الناس في العالم الغربي حتى الآن بوصفها حقيقة واضحة ثابتة.

إن دين الإسلام ليس فيه من العنف أكثر من أي دين سماوي آخر، بل إن الإسلام قد وضع بالفعل نموذجاً رائعاً في التعايش السلمي تعكسه فتوح البلدان، ومنذ انطلاقته الأولى. وما قام به علماء الغرب في القرن الثاني عشر لم يتعدّ إيجاد صورة خيالية لا علاقة لها بالإسلام من قريب أو من بعيد، ولكنها ذات مساس كبير بمشكلة العنف المسيحي السائد. فعندما كان روبرت في كيتون يترجم كلمات السورة 88 من القرآن الكريم ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ (الغاشية 22/21) فنجد أن الشارح ينبري للتعليق في الحاشية بهجوم مدهش على النبي ﷺ كاتباً ما يلي: «لماذا إذاً تحاول إقناع الناس أن يتحولوا إلى دينك باستخدام السيف؟ إذا لم تكن أنت مذكرًا وإنما معلم، فلماذا تحاول إخضاع الناس بالقوة، تخضعهم مثل الحيوانات أو الوحوش البرية، وليس عن طريق العقل كأنهم بشر؟ في الحقيقة، أنت لست إلا كاذبًا، فأنت تعارض نفسك بنفسك في كل مكان».

ومما يدعو للاستغراب أن المعلق على النص يهاجم كلامًا ينص على نحو واضح وصريح أن الإسلام ليس دين سيف؛ وأن أمامه أيضاً في القرآن مواقف النبي ﷺ الإيجابية فيما يخص أهل الكتاب والتعامل معهم وتذكير النبي ونصحه لأصحابه أن يمارسوا ضبط النفس في أثناء جهادهم المبكر ضد قريش في مكة. فقد كان جهادًا دفاعيًا وليس حربًا عدوانية. وبالإضافة إلى هذا كله أن أمامه بينة واضحة تعارض ما يطرحه من أفكار، إلا أن (ما يراه) هو عنف الإسلام فقط. فهو لا يقنع بالقرآن: لأن النبي محمداً ﷺ (كاذب)، وهو لا يثق أيضًا بأي كلام يقوله النبي، ومن ثم فإن بينة القرآن لا قيمة لها. لقد غدا الإسلام دين عنف لأن أوروبا أوجدت عنه هذه الصورة وأرادتها كذلك. كان بيتر الجليل في مظهره رجلاً لطيفًا متسامحًا، اتهم القديس برنارد بعدم التسامح والقسوة، خصوصًا عندما أخذ الأخير معه أبيلارد إلى كلوني بعد انعقاد مجلس الشيوخ؛ وكان يصر في مقدمة أطروحته بأنه يريد أن يصل إلى المسلمين عبر المحبة: «أود مقاربتكم، لا كما يفعل الناس عادة عن طريق استخدام السلاح»، فقد كتب رسالته وهو يتخيل المسلمين وهم يقرؤونها: «ولكن بالكلام؛ ليس بالقوة ولكن بالعقل؛ ليس بالكراهية ولكن بالحب...إنني أحبكم، أحبكم لأنني أكتب إليكم، أكتب إليكم من أجل دعوتكم للخلاص». إن هذا من حيث المبدأ سبيل إيجابي تمامًا مثلها مثل مشروع الترجمة الذي كان قد بدأه في أسبانية. لكن بيتر سوف يتجاهل أيضًا ما هو مكتوب أمامه، بدل أن يقوم بمحاولة تفهم ما كان يدعى (معرفته) بعمق لكن بغموض على أنه (حقيقة) الإسلام. ومع أن بيتر عندما كان يقرأ ترجمة كيتون للقرآن الكريم، كان يتوافر لديه عدد من الآيات التي تنص على أن النبي محمداً ﷺ كان يحث المسلمين على التعامل الطيب مع أهل الكتاب، وعلى تأكيد الأرضية المشتركة للأديان: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ (العنكبوت 46:29). ومع

**﴿كان من المستحيل تماماً بالنسبة إلى المسيحيين أن يروا في الإسلام أي شيء سوى شكل مشوه عن دينهم، كان من المستحيل بالنسبة إليهم أيضاً أن يروا الإسلام غير دين عنف، على الرغم من أن الدليل كان شاخصاً أمامهم. وبهذا تأسست منذ وقت مبكر صورة المسلم بوصفه عدواً للمسيحي، وغدت هذه الصورة فيما بعد جزءاً لا يتجزأ من هوية العالم المسيحي الغربي النامية تدريجياً.﴾**

هذا فقد كان بيتر متأكدًا أن القرآن، من بين جميع كتب الأديان ينفرد في رفضه لقضية الحوار في الدين - على عكس الفرس والإغريق والرومان الذين هم في رأي بيتر، كانوا جميعًا يبحثون عن الحقيقة سلمًا. وهذا الاعتقاد ليس له أساسًا من الصحة إطلاقاً. والحق أن المسلمين كانوا يعاقبون المسيحيين الذين يتهجمون أو يسبون الإسلام أو النبي ﷺ ولكنهم في الوقت نفسه كانوا مستعدين تمامًا لسماع أي شخص من أي دين كان يعرض أفكاره الدينية. فبدلاً من أن يقوم بيتر بقراءة القرآن مترجمًا كاملاً، فإنه كان ينتقي مقاطع منفردة من القرآن، وينزعها من سياقها ثم يقوم بمناقشة إنشائية لفظية لمعنى الكلام المقتطع والمأخوذ أساسًا من الترجمة المشوهة؛ فقد كتب مخاطباً النبي ﷺ ومعلقًا على الآية الكريمة: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ (آل عمران، 20): «ما هذا الذي تقوله ؟ إذا أراد شخص أن يحاجك، تقول إنك أسلمت وجهك ومن معك إلى الله. ما هذا يا محمد...إذا لم تقدم أي إجابة أخرى، غير أن تسلم وجهك ووجوه من معك إلى الله، فكيف لي أن أؤمن بأن ما تقوله صحيح؟ وكيف لي أن أؤمن بأنك نبي حقيقي من أنبياء الله؟ وكيف لي أن أؤمن بأن الدين الذي أبلغته للناس بُلغ لك من عند الله؟ سأكون بالفعل أغبى من الحمار لو أنني وافقتك؛ سأكون منقادًا أكثر من الغنم لو أني قبلت ما تقوله». لقد اتخذ بيتر بعض الكلمات هنا التي تشير إلى بعض الشؤون الإسلامية الداخلية المحددة على أنها نصوص عامة تعزل وجهات نظر أخرى. كما أن بيتر يدعي أن الإسلام يفرض نفسه بالسيف وحده وعبر عنف فظيع قائلاً: «الكلمات لا تنفع في مثل هذه الحالة من القسوة الوحشية». وحتى رجل (راجح العقل) مثل بيتر الجليل كان مدفوعًا إلى أن يلقي جانباً بالعقل والموضوعية عندما أخذ ينظر إلى الإسلام على أنه دين العنف واللاتسامح والقسوة. لم يأخذ المعلق

على الترجمة ولا بيتر الجليل الحملات الصليبية بعين الاعتبار، فلم يتذكر الأول مثلاً كلام القديس برنارد بأن المسألة الوثنية، ويقصد حربه مع الإسلام، إلا بالسيف، فمن جهة يقوم بيتر الجليل بإدانة استخدام العنف ويصر على الاقتراب من المسلمين بروح المحبة فقط، ومع ذلك فعندما يغادر لويس السابع ملك فرنسا في حملته الصليبية فإن بيتر يكتب إليه بأنه يأمل منه بأن يقتل من المسلمين قدر ما يستطيع، بقدر ما قتل موسى ويوشع بن نون من الأشوريين والكنعانيين. كما كتب أيضًا إلى كبير أسياد المعبد، معبرًا عن إعجابه العميق والثابت للأمر الذي أصدره بخصوص القتال ضد الساراسين. إنها تركيبة نفسية غريبة متناقضة وعصابية.

وكما كان من المستحيل تمامًا بالنسبة إلى المسيحيين أن يروا في الإسلام أي شيء سوى شكل مشوه عن دينهم، كان من المستحيل بالنسبة إليهم أيضًا أن يروا الإسلام غير دين عنف، على الرغم من أن الدليل كان شاخصًا أمامهم. وبهذا تأسست منذ وقت مبكر صورة المسلم بوصفه عدوًا للمسيحي، وغدت هذه الصورة فيما بعد جزءًا لا يتجزأ من هوية العالم المسيحي الغربي النامية تدريجيًا. لذلك كان المسلم جزءًا من الروح المسيحية الغربية وحُمِلَ عبء القلق الغربي من العنف المسيحي. إن الكتب ووسائل الإعلام وبرامج التلفاز اليوم تبث وتتناقل عنوانات مثل (سيف الإسلام) و (الإسلام المسلح) التي ما زالت تعود إلى تلك الصورة المقولبة والمسطحة عن الإسلام، كما أن العناد الذي ما زال يجعل الناس يتعلقون بفكرة الإسلام «كدين للسيف» تُظهر على مستوى من المستويات حاجة أولئك الناس لتصديق ذلك. ولا شك أن الإنسان المسيحي في الغرب قد تأثر بهذه الصورة التي ورثها عن الإسلام من ديانته ومن ثقافته المسيحية الغربية فوجد نفسه ليس في موقف دفاعي عن المسيحية بل في موقف هجومي على الإسلام. وفي ذلك يقول مراد هوفمان: «وطبيعي أن انتصارات المسلمين جنحت بالإنسان الغربي المسيحي إلى الزعم بأن الإسلام دين عدواني فصار يتشبث بالادعاء أن الإسلام إنما انتشر بحد السيف». ومما يجدر ذكره في هذا السياق أنه من الأكيد فيما يسمى بإسرائيل اليوم هناك صقور من أمثال رافائيل إيتان وبنيامين نتنياهو و إرييل شارون، وحتى حمائم من أمثال يهودا باراك وشمعون بيرز ما زالوا يبررون استخدامهم للقوة والعنف في التعامل مع الفلسطينيين على أساس أن الإسلام يعلمهم أن على المسلمين أن يقاتلوا الناس من كل الأديان بوصفهم أعداءً لهم وأن يقوموا بإفنائهم عن طريق العنف. خطاب مفاده أن تقوم الدولة اليهودية بمعاهدة سلام مع هؤلاء العرب المسلمين في فلسطين أمرٌ مستحيل، لذلك فإن هذه الدولة معها كل الحق في استخدام العنف والقتل والتدمير لردعهم. إن كلمات الجنرال اللنبي «اليوم انتهت الحروب الصليبية» التي قالها حين دخل مدينة القدس في سنة 1917م ما زالت ملتصقة بأذهان العرب والمسلمين، كما أن الأحداث الجارية في بلاد العرب والمسلمين لتؤكد الخطر الداهم للصليبية الجديدة في المعاملة الغربية العدائية للإسلام والمسلمين، وإن الأيام القادمة سوف تثبت تأثير الحملات الصليبية في عالمنا المعاصر، في الشرق وفي الغرب على حد سواء. بناءً عليه نستطيع القول إن وسائل الإعلام العربية والإسلامية مطالبة بالتصدي لما ينشر في الصحف والمجلات ويبث في برامج إذاعية وتلفزيونية أو ما يدور في بعض المحافل الدولية حول القرآن والإسلام، والعرب والمسلمين؛ كما أن على الأوساط الجامعية والعلمية والثقافية أن تقوم برصد ما ينشره المستشرقون، وأن يترجم إلى اللغة العربية، وأن تتم دراسة ذلك الإنتاج ونقده على أسس موضوعية، بغية إظهار الحقيقة وكلما دعت الضرورة إلى ذلك. وأخيرًا، إن هذه الأوساط هي الأطراف الشرعية المعنية بتتبع تلك الدراسات وترجمات القرآن الكريم والاعتراف بالجيد منها وقبوله. وبما أن ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية هي وسيلة مهمة للاطلاع الدين الإسلامي، وبما أننا لا نملك القدرة على إيقاف تراجم القرآن الكريم في أرجاء مختلفة من العالم، فلابد أن نتصدى لمحاولات التشويه وذلك باتخاذ مواقف علمية نقدية على صعيد المستويات المذكورة كلها.

مراجعة: ترجمة روبرت أوف كيتون للقرآن الكريم.

بقلم جيمس كريتزك

صدرت مراجعة لترجمة روبرت أوف كيتون في جمعية زملاء جامعة هافارد عام 1955م لجيمس كريتزك وهو أمريكي متخصص في الدراسات العربية والإسلامية، وكان كريتزك قد أعد أطروحة الدكتوراه عام 1954م في جامعة برنستون حول بيتر الجليل، وقد نشرت الجامعة هذه الأطروحة في كتاب تحت عنوان (بيتر الجليل والإسلام) عام 1964م. ويحاول كريتزك في مراجعته هذه أن يلخص بعض النتائج التي وصل إليها نتيجة مراجعته لمخطوطة ترجمة روبرت للقرآن الكريم التي تفيد الباحثين المهتمين في هذه القضية، والتي تتركز تحديدًا في بيان أهمية ترجمة روبرت للقرآن أوروبيًا وتأثيرها في تراجم غربية لاحقة وفي الدفاع ضمنًا عن بيتر الجليل، وذكر بعض التفاصيل المهمة والظروف التي تمت فيها هذه الترجمة. وتتميز هذه المراجعة بموضوعية بحثية من وجهة نظر القارئ والباحث الغربي المسيحي – لكنها تقدم أيضًا الوجه الآخر للمسألة بالنسبة للقارئ والباحث العربي المسلم، وتظهر خلفية التعامل الديني والثقافي التي تمت على الإسلام والمسلمين في أجواء مشحونة بالتوتر والعداء الصريحين.

إن ترجمة مراجعة كريتزك إلى العربية والتقديم لها والتعليق عليها وبيان الظروف التاريخية والثقافية والدينية التي تمت في ثناياها ترجمة روبرت أوف كيتون للقرآن الكريم التي هي موضوع المراجعة يخدم على نحو أولي فهم عملية ظهور هذه الترجمة تحديدًا وظهور ترجمات أخرى تنطوي على كثير من المساوئ والتحامل عبر تاريخ طويل من الصراع والعداء غير المبررين تجاه الإسلام. وقد رأيت في هذا العمل بعض المعلومات التي قد تشكل مساهمة متواضعة باتجاه فهم عربي- إسلامي علمي وموضوعي لأهداف من قاموا بترجمة القرآن الكريم من غير المسلمين. وحسبي أن أصيب الغاية عبر هذا الجهد في الترجمة، فمن عمل فأصاب فله أجران ومن عمل ولم يصب فله أجر واحد.

## نص المراجعة

لقد غدا من المعروف لدى الباحثين ومنذ وقت طويل وجود ترجمة لاتينية للقرآن الكريم تمت بتفويض من بيتر الجليل، الرئيس التاسع لدير رهبان كلوني، وتأثير هذه الترجمة في كثير من التراجم الأوروبية التي تمت فيما بعد. إن ما يدعو المرء للأسف هو أن الكثير من الحقائق حول هذه الترجمة لم تظهر إلا مؤخرًا، وذلك بسبب وجود أخطاء وحذف مواضيع كثيرة في مخطوطات لاحقة، وبسبب سوء استخدام المصادر اللاتينية ظل كل شيء مجهولاً إلى أن قامت ماري تيريز دو الفيرني باكتشاف المخطوطة الأصلية المكتوبة بخط المؤلف من جديد والمؤرخة عام 1162م في مكتبة الأرسنال بباريس، وأجرت عليها دراسة أولية، عندها تم شق طريق جديد من أجل القيام بدراسة جدية حول هذا الموضوع. ولعل الباحثين في الإسلاميات يجدون من المفيد لهم أن يطلعوا على نتائج تقص تم مؤخراً قمت به على المخطوطة التي سأقوم بإيجازها هنا، وستكون محط اهتمام خاص بالنسبة إليهم.

لقد كانت زيارة بيتر الجليل إلى الكنائس والأديرة الكلونية في إسبانيا في العامين 1141م و 1142 م هي المناسبة المباشرة لتخطيطه ذلك المشروع الطموح، الأول من نوعه في العالم المسيحي، الذي يهدف إلى دراسة الإسلام. إنني مقتنع بأن هذا المشروع لم يكن فكرة وليدة المصادفة ولكنه مشروع يتصل على نحو حميم بخصوصيات ثقافة بيتر ومزاجه، كما يتصل بأعماله ذات الصفة الدفاعية والجدلية، وبعدم قناعته العميقة بالاتجاه الذي خطته الحركة الصليبية في زمانه. كان بيتر رجلاً مثقفًا، وعَبَّر صراحة بأن هناك القليل جدًا من المعلومات الموثقة عن الإسلام باللاتينية، وكان يلوم دائمًا الجهل المسيحي على فقدان الحماس من أجل دراسة اللغات. ونظرًا إلى أنه لم يكن نفسه يعرف العربية، فقد كان تحركه الأول يتمثل في استخدام مترجمين عن العربية كي يزودوه بالمعلومات.

ويمكن أن يكون البحاثة ريموند دولاسوفيتات، الذي كان رئيسًا لأساقفة طليطلة وآبا مسؤولاً عن جماعة كبيرة من الباحثين، قد ساعد بيتر في اختيار مترجميه والنصوص التي يجب أن ينقلها، وفي أي حالة، كما أخبر بيتر برنارد أوف كليرفو فيما بعد، بأنه قد علم بوجود عمل عربي (يُفند) العقيدة الإسلامية وأنه نصب شخصًا يدعى (المعلم بيتر من طليطلة) ليعمل على ترجمة هذا العمل له إلى اللاتينية، ولكن لأن اللغة اللاتينية لم تكن مألوفة أو معروفة بالنسبة إليه كما هي العربية، لذلك قدمت المساعدة لهذا الرجل العالم، ابننا وأخينا، بيتر الشهير. قام هذا الرجل بصقل الكلمات اللاتينية وترتيبها، التي كان قد وضع معظمها بنفسه (أقصد المعلم بيتر من طليطلة) بطريقة ينقصها الصقل والترتيب، وبهذه الطريقة أخرج رسالة، أو بالفعل كتابًا صغيرًا، كان مفيدًا كثيرًا مستقبلاً للعديدين، في اعتقادي، وذلك بسبب المعلومات التي يوصلها عن أمور لم تكن معروفة من قبل. وقد كان من الصعب أن يصدق كثير من الباحثين أن بيتر كان يتحدث عن القرآن في ذلك النص؛ والترجمة التي نحن بصدد الحديث عنها هي ترجمة «رسالة عبد الله ابن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي ورسالة الكندي إلى الهاشمي، وهي الرسالة المسيحية الدفاعية المشهورة».

(بالإضافة إلى ذلك)، فقد تابع بيتر كلامه لبرنارد، «فقد ترجمت عن العربية إلى اللغة اللاتينية أيضًا.... العقيدة المتعصبة، وسيرة حياة محمد، والقانون، الذي يُطلِق عليه اسم القرآن، الذي هو، (مجموعة من القواعد)» ... (وفيما يخص الترجمتين الأخيرتين) فقد كان المترجمون يتقنون كلا اللغتين: روبرت أوف كيتون من إنكلترا، الذي هو رئيس الشمامسة في كنيسة بامبلونة الآن، وهرمان أوف دالماتيا، وهو بحاثة ذو عبقرية أدبية واضحة كل الوضوح. وقد عثرت عليهما في إسبانيا بالقرب من نهر ايبرو يدرسان فن التنجيم وقد جعلتها يقبلان القيام بهذا المشروع عن طريق منحهما مكافأة كبيرة. وفي شرح متأخر أفاد بيتر بوجود مترجم آخر معهما: ولكي تكون الترجمة (الترجمات) متمتعة بأقصى درجات الأمانة، ولكي لا يضيع عنا أي شيء عن طريق المختالة، أضفت مترجمًا من الساراسين إلى فريق الترجمة المسيحي.... كان اسم ذلك الساراسين محمد. وقد ترجم كلٌّ من هرمان وروبرت عملين: ترجم هرمان (مسائل) أبي الحارث عبد الله بن سَلام و(كتاب نَسَب الرسول) لسعيد بن عمر؛ كما ترجم روبرت مجموعة لا تزال غير معروفة من القصص الأسطورية اليهودية –الإسلامية، ومعها ملاحظات حول سيرة حياة محمد والخلفاء الأوائل، بالإضافة إلى القرآن. إن ذكر بيتر الجليل لهرمان وروبرت مع بعضهما على أنهما مترجما الأعمال الأربعة المذكورة أدى إلى اعتقاد كثير من العلماء أن الاثنين تعاونا في إنجاز هذه الأعمال الأربعة، ولكن عناوين مخطوطة الأرسنال والمقدمتين اللتين كتبهما روبرت يدعمان عزو عملين لكل منهما.

لقد ثَبُتَ أن ترجمة القرآن، وربما بحق، هي الجزء الذي يستحق الرجوع إليه من بين مجموعة طليطلة. وهي تمثل العمل الذي استغرق على الأرجح الوقت الأطول لإنهائه، وعلى أي حال فهو العمل الوحيد الذي يمكن تحديد زمن إنجازه بدقة. «إن روبرت أوف كيتون هو من قام بالترجمة»، فقد كُتبَ هذا الكلام بخط جميل وواضح في مخطوطة الأرسنال، «في سنة السيد المسيح 1143، الموافقة لسنة الإسكندر 1403، ولسنة الهجرة 537، ولسنة الفرس 511». ويسمح هذا لنا أن نضع تاريخ إنهاء الترجمة فيما بين 16 حزيران و 15 تموز من سنة 1143، أي في بدايات السنة الفارسية 511 وسنة الهجرة 538 على التوالي. وقد أشار روبرت في مقدمته للترجمة إلى أنه مر بتجربة صعبة للغاية في إنجازه إياها، على الرغم من أنه أصر على أنه لم يقم بتغيير «شيء في المعنى إلا عندما اضطر إلى التوضيح ليس غير». فقد كان روبرت يفسر ذلك على نحو عام إلى حد ما. ومن ضمن أهم التصرفات التي قام بها في النص هي إعادة تقسيم السور القرآنية؛ فقد بدأ الترجمة دون ترقيم للفاتحة، وقسم السورة الثانية بما في ذلك سدسها الذي أنهاه إلى خمس عشرة سورة، وبذلك خرج في النهاية بزيادة قدرها تسع سور زيادة على ما هو موجود في الأصل. كان يحذف أحيانًا فقرات ويرتكب أخطاء شنيعة في الترجمة، ولكن الخطأ الكبير الذي ارتكبه كان يكمن في ميوله في التعبير عن أسباب ونتائج في الترجمة هي غير موجودة في النص الأصل، محاولاً بطريقته المختلفة أن يخلق علاقات منطقية بين السور المستقلة أساسًا. كما أن اختياره لعبارات تعتمد على عبارات وعظية مسيحية وعلى ذكريات أدبية أحيانًا لغريب تمامًا.

إن ترجمة القرآن في مخطوطة الأرسنال مُثقلة بالشروح والتعليقات الكثيرة؛ فعلى سبيل المثال، تحتوي الصفحات العشر الأولى من المخطوط على 364 ملاحظة في الهوامش وبين الأسطر. وربما كانت بعض هذه الملاحظات من قبل روبرت أوف كيتون نفسه، لكنني أميل إلى الاعتقاد بأن بيتر أوف بواتييه هو من قام بمعظمها؛ وهي بطبيعتها تتراوح بين (كم كاذب) وتعليقات تدل على سعة الاطلاع، وتبلغ الكلمات التي تخص الكعبة والأعراف الإسلامية بالمئات أيضًا. إن دراستي لهذه الترجمة ستتضمن تحريرًا لتلك الملاحظات كلها، هذا بالإضافة إلى فهرس بالمصطلحات اللاتينية والعربية المستخدمة.

لقد كان الهدف الأول لبيتر الجليل أن يداوي علة الجهل الأوروبي المسيحي بالإسلام، كما كانت ترجمت مجموعة طليطلة بداية رائعة. ولكن لأن بيتر وجد محتويات هذه المجموعة أحيانًا «مسهبًا، ومعظمه صعب الفهم»، قام فيما بعد بإعداد كتيب موجز بسيط، وصحيح عمومًا حول العقيدة الإسلامية عنوانه: «ملخص كامل عن هرطقة الساراسين». وبعد دراسة متأنية ومطولة لمشروعه، كان بيتر يرى أن دوره ينتهي تحديدًا عند هذه النقطة، ولكنه عندما لاحظ وقتئذ أنّ بيتر أوف كليرفو أو أي شخص آخر لا يرغب في الاطلاع على تلك الترجمات عبر كتاب يُفند العقيدة الإسلامية من وجهة نظر مسيحية، لذلك قام في نهاية الأمر بكتابة كتاب عنوانه (كتاب ضد مذهب هرطقة الساراسين). ويختلف هذا الكتاب عن غيره من الكتب المسيحية السابقة واللاحقة الصادرة حول الإسلام لسببين: أولهما، الطريقة الهادئة والمحتشمة التي يتوجه بها، وثانيهما معالجته فقط لموضوعات دينية قليلة على نحو موسع للغاية. ونقرأ في مستهل الكتاب: «إنه يبدو غريبًا، ولعل الأمر كذلك، بالفعل، إنني أنا، رجل مختلف عنكم كثيرًا من حيث المكان، وأتحدث لغة مختلفة، وظروف حياتي منفصلة عن ظروف حياتكم، وغريب عن عاداتكم وحياتكم، أكتب إليكم من الغرب البعيد إلى أراضي الشرق والجنوب، وإنني عبر كلامي هذا أهاجم أناسًا لم أقابلهم من قبل، أناساً ربما لن أقابلهم مستقبلاً. لكنني أهاجمكم ليس بالطريقة التي يقوم بها بعض منا نحن (المسيحيين) غالباً، مستخدمين السلاح، إنني أستخدم الكلمات؛ ليس بالقوة، ولكن بالعقل، ليس بالكراهية، ولكن بالحب.... إنني أحبكم؛ ولأنني أحبكم أكتب إليكم؛ وبكتابتي إليكم، أنا أدعوكم إلى الخلاص».

لم تُكتب المقادير (لكتاب بيتر)، كما كان يأمل أن يحدث، وهو أن يُترجم إلى العربية، كما أنه لم يؤثّر على نحو ملحوظ في الجدال المسيحي الدائر بخصوص الإسلام لاحقًا. على أي حال، لقد تمتعت مجموعة طليطلة بنجاح كبير ضمن تراث مخطوطات غني وعدد من النسخ المطبوعة (إحدى هذه النسخ قدم لها مارتن لوثر) في القرن السادس عشر. وإذا كانت هذه المجموعة قد فشلت في اطلاع أوروبا على الإسلام، فإنها تبقى مع ذلك، شهادة على فطنة رجل مسيحي من القرون الوسطى وحماسه فضل اللجوء إلى السلم والتفاهم بدلاً من اللجوء إلى الحرب والجهل.



# الخروج من الشرنقة...

ريمة الخاني - سوريا

أحكمت خناقها على جسده المنهك... بدأ نفسه يتصاعد ويقصر مداه... يشعر أنه سيموت بعد قليل...

ما زال يدفعها بكلتا يديه.. لا يريد الاستسلام أبداً. يحاول تمزيقها بقوة لهفته لاستمرار حياته...نعم من المؤسف أن يموت الآن.

لقد ضاقت عليه تلك الشرنقة مؤخراً ...يخشى أن تخور قواه فجأة ...يراوح بين قدميه ويتكئ على الأخرى ويعيد المحاولة من جديد...

يحاول الاستراحة بين الفينة والفينة لئلا ينتهي الأوكسجين فيها.. فقد باتت رائحة الهواء فيها مقززة.

ما زالت تستعصي عليه، ويزداد جدارها صلابة... إنه يقرضها بأسنانه.. يجب أن يعيش، نعم يجب أن يعيش. يبحث عن نقاط ضعف في جدارها ليقضم أكثر..فينفذ للخارج...

هل كل الشرانق هكذا؟. كيف صار فيها أصلاً؟!!!. سؤال لا جواب له. لقد تأخر في اتخاذ قرار الهجوم والخروج...

انفرج ثقب فيها فجأة من غير توقع...أصابه الذهول..

هل حقاً سأرى السماء والشمس من جديد؟...

عندما انفرجت عنه قليلاً وهو ما زال يتمتم بأدعية حفظها منذ صغره .... يسجد ويتمتم ... يكرر ويعيد ما كان في الذاكرة.. ينبش فيها علّه يجد تعويذة أقوى مفعولاً...

تنفرج أكثر... يسجد.. يتضرع بحسنات أعماله... يعيد الكرة.. يسقط من رباعيته سناً!!. يصرخ ألماً...

يمسكه بكلتا يديه حزيناً.. يضعه في جيبه..

- سوف يعيد سنه لمكانه عندما تتحسن الظروف...

يحاول تكسير جدارها بأظفاره.. يكسر شيئاً منها...

يرفس بقدميه ما تبقى من عزم له حتى تنفرج الفرجة أكثر.. يتذكر والده عندما هجر الناس قائلاً:

- كلنا غرباء في هذا المكان... لكننا سنعيش.. سنعيش بطريقة ما...

لقد خربوا مكان معيشتهم وما عرفوا كيف يبنون البلاد كما يجب. عاشوا على ما تبقى لهم من خيرات ونسوا كيف كانوا يرفعون منتوجها قديماً... لقد كان طرأ عيب في تفكيرهم ما استطاعوا إصلاحه أبداً... لقد تراجعوا حتى باتوا يتهمون العالم في ذلك.

إن المكابرة على العيوب كمن تأقلم على الظما طويلاً ...

هل سيطيب له العيش وهل سيعيش سوياً؟. وهل سيعمل دماغه بجدوى؟.

أي مكان هذا الذي كان يذكره والدي؟.. مؤكد ليست تلك الشرنقة. فقد كان عالمه أوسع وأجمل.. كيف أفاق فجأة ليجد نفسه هنا؟.

يجلس متربعاً يبكي حزيناً لما آل إليه أمره. يخشى أن تكون قواه قد خارت... يتساءل محتاراً:

- كيف وصلت لهذه المرحلة الحرجة؟. من نسج شرنقتي؟. من وضعني فيها؟. كيف حصل وأنا حي؟...

كف حصل وعيناي مفتحتان؟.

تخونه الذاكرة فهو لا يتذكر فعلاً كيف حصل ... تقفز لذاكرته عبارة والده:

- كل ذنب يذنبه ابن آدم ويقترفه ينسج خيطاً في مشنقته...

هل هذه هي المشنقة إذن؟.. هي لا تحاصر رقبتي؟!!..هي تحاصرني جميعاً..

ينهض من جديد... تزداد الفرجة اتساعاً... يحاول الخروج... ومراراً.. وتكراراً...ينجح رويداً رويداً ..

لكنها تشد على خاصرته قليلاً ...يدفع جسده بكلتا يديه فينقذف خارجاً ويرتمي على الأرض...ينظر خلفه فيراها مكسرة ممزقة.

-أين أنا؟!

جميل أن ينقذ المرء نفسه بنفسه...فرب منقذ هو في واقع الأمر غير منقذ...

يشتم رائحة حريق بائت... خطوات ترج الأرض تحت وطأتها وتهتز... ينظر حوله فلا يرى آدميين...

يفاجئه رأس مقطوع يمشي وحده.. يبتسم له ويمضي...

يتلفت فزعاً.. ما هذا؟!

فيراه يمضي دون أن يلتفت...أيادي تمشي وحدها.. بعينين مزورتين... تنظر إليه ضاحكة وتمضي...

وقلوب تنزف دماً على قارعة الطريق... قد تحررت الأعضاء منها...وطريق يفوص فيه ما به من قرار...

فيحاول المرور فيه بحذر...

يركض فزعاً عندما تبدأ الرؤوس بلحاقه...تصرخ تنادي:

- ما زال حياً...

يركض نحو اللا شيء...ما زالت الجبال قائمة على أصولها... يركض نحوها... يتسلق صخورها بعيداً عن هجوم الرؤوس المقطوعة...تلحقها الأطراف صارخة:

- ما زال حياً...

يقع مرات وتقرضه أسنانها.... يحاول الفرار بنفسه.. متسائلاً:

- ما هذا الذي أراه؟. هل هذه بلادي فعلاً؟.

يرددون:

- ما زال حياً...

يبكي.. يكاد ينهار...تمنى لو رأى ظل أحد يعرفه من قريب.. فيضمه كما كان.. يشكو له حاله. يقول له كلمة رفق واحدة...

يدخل كهفاً وقد أدمته كثرة الهجوم...يهدأ عندما يضع صخرة في فوهة الكهف.. فيسده.

يتذكر كلمة والده:

- السكون موت...

ينظر حوله فزعاً.. لا يرى شيئاً سوى كائنات ميتة... في الأرض...

إلى من يلجأ؟. أليس الله هو الله؟...ينظر إلى الأعلى... يتدلى فوق رأسه العنكبوت...

يحاول النوم... فهو منهك حتى الثمالة . فلا يستطيع. تتشكل خيوط رفيقة حول رقبته...يدفعها بعيداً عنه.. لكنها تتشكل على الرغم عنه.. كغزل البنات الطفولي. بلا لون و لا رائحة .. لا بل كخيوط عنكبوتي تريد إعدامه.

يشعر بالجوع يحرق معدته...تصطدم بصخرة الكهف أصوات هوجاء...ترجه . تنادي..

- ما زال حياً...

يخرج القرآن من جوفه مرتلاً... كان قد حفظه صغيراً... ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ يتخذها تعويذة...يكررها...يشعر بالراحة...ينام.. ليستفيق على صوت نقر تقوم بها يداه ليخرج من شرنقته من جديد...

# قراءة في كتاب: «الرواية والاستنارة» للدكتور جابر عصفور



**محمد سيف الإسلام بوفلاقة**
كلية الآداب -جامعة عنابة - الجزائر

يهتم الدكتور جابر عصفور في كتابه «الرواية والاستنارة» بدراسة جملة من القضايا التي تتصل بالمراحل التي سبقت ظهور الرواية العربية المعاصرة. ووفق وصف الكاتب نواف يونس الذي تولى تقديم الكتاب إلى القراء، فالدكتور جابر عصفور في هذا الكتاب يربط «بين ظهور الرواية عربياً وعصر الاستنارة، والذي يقصد به تلك الحقبة الذهبية التي برزت فيها كوكبة من الأسماء الأدبية والفكرية ممن أسهموا في تمهيد الدرب أمام الرواية العربية في الظهور، بإيجادهم منظومة تقدمية أعلت من شأن العقل على النقل، والاجتهاد على التقليد، والتسامح على التعصب، وهو ما يتكئ عليه للتأكيد على التلازم الوثيق بين فن الرواية وفكر الاستنارة، من خلال إشارته إلى الوعي المدني ودور المرأة في نشأة الرواية، إلى جانب ما قدمته الترجمة للمشهد الروائي العربي عموماً».




يذكر الدكتور جابر عصفور في مستهل مقدمته أنه بدأ التفكير في قضايا الاستنارة ومشكلاتها سنة:1989م، حينما أشرف مع مجموعة من زملائه على إقامة احتفالية سميت بـ«مائة عام من الاستنارة»، وكان يقصد بذلك أن نقطة البداية هي عام:1889م الذي ولد فيه كل من طه حسين وعباس محمود العقاد.

ويشير إلى أن المقصود بفكر الاستنارة، هو ذلك الفكر الذي يبدأ «مما تركه رفاعة الطهطاوي بعد رحلته إلى باريس، وجمال الدين الأفغاني في أثناء إقامته بمصر، ومحمد عبده».

في مدخل الكتاب الذي عنونه بـ«الوعي المدني» يرى الدكتور جابر عصفور أن الرؤية الصاعدة في مطلع النهضة العربية انطوت على نزعة عقلانية أساسية هي نوع من الوعي المدني المحدث الذي يجسد وعود المجتمع المدني ويستجيب لمعاني العقد الاجتماعي الذي تتأسس به الدولة المدنية، والمقصود بالوعي المدني هو فكر المدينة المتحولة بوساطة عمليات التحديث التي تؤدي إلى تغيير علاقات الثقافة، وأدوات إنتاج المعرفة في المجتمع، وهذا ما ينتج عنه إيجاد رؤية مدنية واعدة لعالم صاعد ترمز إليه المدينة المتحولة وتجسد ملامحه.

ويذكر المؤلف أن ما يهدف إليه ويحاول التدليل عليه هو أن التسارع في حركة الاستنارة العربية، بما انطوت عليه أو تجسدت فيه«هو الذي أدى إلى تأسيس فن الرواية، بوصفه فن المدينة المحدثة التي يبحث عقلها النوعي عن معادله الإبداعي وأداته الفنية المميزة التي يعبّر بها عن هواجس التحول وهموم التغير وأحلام التقدم، وتلك هي البداية التي تأصّل بها مبدأ الحرية اللازمة للوعي المدني في حركة اجتهاده المتعددة الأبعاد والمجالات، ومنها المجال الإبداعي الذي يتصدره فن الرواية، بوصفه الفن الذي يبدأ من انفتاح الأفق لحرية العقل في الاجتهاد، ويجسد علاقات التنوع والمغايرة والاختلاف بقدر ما يتجسد بها، خصوصاً من حيث هي نواتج طبيعية لاجتهاد العقل النوعي الذي ينطوي عليه الوعي المدني المحدث،ومن حيث هي شروط محايثة في فن الرواية نفسه»(ص:25-26).

ويرى المؤلف أن ازدهار فن الرواية لا يفارق السياق التوليدي لتأصيل الوعي المدني المحدث الذي يلقي في الرواية الوجه الإبداعي الفائز، ولاسيما حين يتم تأسيس الوعي المدني لأهمية المساواة بين أصحاب العقول في اختلافها، وأهمية التعدد بين أشكال الإبداع في تباينها، ويهدف إلى تأكيد عدم التمييز بين البشر أو إبداعهم على أساس الجنس أو الثروة أو العقيدة أو العرق.

تمثيلات المدينة المتحولة وغواية التحديث

في الفصل الأول من الكتاب يتحدث الدكتور جابر عصفور عن تمثيلات المدينة المتحولة،ويشير إلى أن علاقة رواية النهضة بما انطوت عليه من أفكار الاستنارة، وهي الأفكار التي تم فيها التجاوب بين عقلانية التراث العربي الإسلامي وعقلانية عصر الأنوار الأوروبي، تؤكد تولد هذه الرواية عن مدينة متحولة تظهر في عيني من يتأملها عن بعد، كما لو كانت علاقات معمارها نفسه صورة تعكس علاقات أفكارها المتصارعة، فهي تبدو موازاة رمزية بحيزها المعماري للرؤى التي تختصم في المدينة بين أنصار الاتباع ودعاة الابتداع، وقد استشهد المؤلف في هذا الصدد بما كتبه فرنسيس فتح الله المرّاش (1836-1873م) في كتابه «رحلة باريس»، وما دبجه علي مبارك حينما وصف متغيرات المدينة المتحولة، القاهرة،في المجلدات الأولى من كتابه «الخطط التوفيقية».

في الفصل الثاني ينتقل المؤلف إلى مناقشة قضية«غواية التحديث»، ويذهب في مستهل مناقشته إلى أن العلاقة بين الوعي المحدث وعمليات التحديث المادي علاقة وثيقة، ويتبادل طرفاها التأثر والتأثير، وكل واحد منهما يوصل إلى غيره في المدينة التي تجدد أفكارها في الوقت الذي تجدد فيه أساليب حياتها المعنوية والمادية، والتلازم بين الوعي المحدث وعمليات التحديث المادي يجعل منه وعياً مدنياً في كل الأحوال، الذي يقصد به الوعي الذي ينطلق من الآلة وعلاقات إنتاجها،ولا يفارق أنساقها المعرفية أو منظومات المعلومات المرتبطة بها.

ويؤكد الدكتور جابر عصفور على أن سرديات الرحلة إلى عواصم التقدم كانت إحدى نقاط البداية التي سرعان ما تحولت إلى قص روائي حديث، ويقارن في مناقشته لهذه الفكرة بين ما كتبه علي مبارك في روايته الموسومة بـ«علم الدين»، و«تخليص الإبريز» لرفاعة الطهطاوي، فيرى أن الصلة بينهما متعددة الأبعاد، فرواية علي مبارك تم تعقد صلة الرحم التي جمعتها بسرد«تخليص الإبريز»

الذي سبقها بنحو ثلاثين عاماً، فقالب الرحلة الوصفي في «تخليص الإبريز» لم يفارق السرد الروائي في «علم الدين» التي كان هدفها إشاعة النوع نفسه من الاستنارة، كما أن توتر الدهشة في رحلة المكان والزمان والوعي لا يتغير جذرياً ما بين العملين اللذين لا يكفان عن التأمل في متغيرات التحديث التي ترتبط بالحضور الواعد للآلة التي أغوت الوعي المحدث بأفاعيلها.

ومن جانب آخر يرى الدكتور جابر عصفور أن رواية «علم الدين» تختلف عن «الساق على الساق» التي كتبها أحمد فارس الشدياق بأمرين: أولهما أن السرد في «علم الدين» يقترب من الرواية بالقياس إلى «الساق على الساق»، وثانيهما، أن إطار الرحلة في «الساق على الساق» يقترن بمحاولة اكتشاف «ما هو الفارياق»، وذلك في تقلبه بين الديانات والأقطار والمذاهب، في حين أن «علم الدين» تتميز بأن إطار الرحلة فيها هو إطار رحلة الوعي الذي يجاوز قصوره من خلال الارتحال في العوالم التي تكشف له ما لم يكن يعرفه، فـ«الساق على الساق» لا تحتوي على مشاعر الدهشة التي عوضت بالسخرية التي تنفي القداسة عن الأشخاص أو الأفكار وتضعها موضع المساءلة من منظور «الأنا» التي تسعى إلى اكتشاف هويتها الفارقة.

### المرأة ونشأة الرواية العربية

في الفصل الثالث تطرق الدكتور جابر عصفور إلى موضوع «المرأة ونشأة الرواية العربية»، وأشار إلى أن اتساع رقعة التعليم المدني للبنات أفضى في مصر والشام إلى ظهور عدد من كاتبات الرواية اللائي سبقن قاسم أمين في الدعوة إلى «المرأة الجديدة»، وتحريرها بوساطة الكتابة، ومن داخل فعل الكتابة في الآن ذاته، وتعد الرائدة الأولى هي عائشة التيمورية التي كتبت «نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال» سنة:1305هـ، فهي تعد المرأة الأولى التي عبّدت الطريق لكتابة المرأة للرواية، وقد سبقت أليس بطرس البستاني التي نشرت رواية «صائبة» سنة:1891م، ونشرت لبيبة هاشم رواية بعنوان «حسناء الحب» سنة:1898م، وصدرت بعدها بسنة رواية زينب فواز الأولى «حسن العواقب».

فالكاتبات الأربع عائشة التيمورية وأليس بطرس البستاني ولبيبة هاشم وزينب فواز يعتبرن رائدات الرواية العربية في القرن التاسع عشر.

كما ظهرت الصحافة النسائية، فصدرت مجلة «الفتاة» الشهرية التي أنشأتها هند نوفل في الإسكندرية سنة:1892م، وصدرت مجلة «أنيس الجليس» التي أسستها ألكسندرا مليتادي في السنة نفسها، وأصدرت روز حداد مجلة بعنوان «السيدات والرجال» سنة:1925م.

وقد اتسعت رقعة النشاط الصحافي النسائي، وبرزت على الساحة مجموعة من المجلات من بينها مجلة «فتاة الشرق» التي أصدرتها لبيبة هاشم، ومجلة «المرأة المصرية» التي كانت تصدرها باسم عبد الملك، وقد تضافرت هذه المجلات مع الكثير من الصحف وعبرت عن الوعي المديني المحدث، وأكدت على دور المرأة الكاتبة الحاضرة إبداعياً وفكرياً.

### الريادة المسيحية

في الفصل الرابع من الكتاب، يرى الدكتور جابر عصفور أنه ليس من قبيل المصادفة أن يكون أبناء الأقليات الطائفية والعرقية هم الأكثر حماسة في تبني قيم الوعي المدني، والتعبير عنها وتجسيدها في إبداعهم الروائي، ويدلل على ذلك بأن أغلب أسماء المؤسسين الأوائل لفن الرواية في القرن التاسع عشر هم من أبناء الطوائف المسيحية، مثل: أحمد فارس الشدياق، وخليل الخوري، وفرنسيس فتح الله مرّاش، وسليم البستاني، وأخته أليس البستاني، وجرجي زيدان، وفرح أنطون، ولبيبة هاشم.

وينبه إلى معرفة أبناء هذه الطوائف للغات الأجنبية، نظراً إلى تعليمهم الطائفي وصلاتهم الباكرة بالثقافات الأجنبية، واشتغالهم بأعمال الترجمة التي تتطلب تعاملاً مباشراً مع الجاليات الأجنبية، وهذا ما جعل إسهامهم متميزاً في مجالات الفن القصصي،سواءً بالترجمة المباشرة أو التعريب أو التأليف الخالص.

### الترجمة وإنطاق المسكوت عنه

خصص الدكتور جابر عصفور الفصل الخامس من الكتاب لدراسة موضوع «الترجمة وإنطاق المسكوت عنه»، حيث يؤكد من خلال هذا الفصل على أن أساس انفتاح الوعي المديني في عصر النهضة على العالم هو ترجمة المعروف من إبداعات «الآخر» في الآداب الأجنبية عن طريق إتاحة مختلف الأعمال القصصية، فقد كان شيوع المترجم بوساطة «الصحافة» يوازي إعادة قراءة القصص التراثية التي أتاحتها المطبعة للجمهور، وقد قدم المؤلف مجموعة من الملاحظات التي تتعلق بالمترجمات في تلك الحقبة، حيث لفت انتباهه كثرة الترجمة عن الفرنسية بالقياس إلى الإنجليزية، وهذا الأمر يرجع إلى قوة العلاقة الثقافية بفرنسا التي اتجهت إليها البعثات الأولى للأجيال التي ضمت أمثال: رفاعة الطهطاوي، وعلي مبارك.

إضافة إلى نزوع أغلب الأعمال المترجمة إلى الكلاسيكية، وهذا ما يتجلى في الكثير من الروايات المترجمة التي تميل إلى النزعة العقلانية، وتتميز بأنها ذات طابع تعليمي ونزوع أخلاقي، فهي تنزع نحو الخيال المتعقل وتبتعد عن الخيال الرومانتيكي المحلق.

ويرى المؤلف أن الإقبال على القصص المترجمة في الجرائد والمجلات هو تأكيد على استجابتها لرغبات شرائح قراء الطبقة الوسطى، ويعبر عن التحول من طراز سردي شفاهي إلى طراز سردي كتابي فرض بسبب انتشار أدوات إنتاج المعرفة وعلاقاتها في المدينة الحديثة، وهذا ما يعد تجسيداً لعلامة دالة من علامات الوعي المديني، ولاسيما حين تتأصل في هذا الوعي نزعة إنسانية تتجت عن تنوع أعراق المدينة وأجناسها وطوائفها ومعتقداتها، وهذا ما جذّر في عقول أبناء المدينة طبيعية الشعور بوجود الآخر الذي يختلف عنهم في اللغة والديانة والموطن.

### أليجوريات النهضة وإشكال الهوية

في الفصلين الأخيرين من الكتاب قدم الدكتور جابر عصفور مجموعة من التحليلات والرؤى الفكرية التي تتصل بأليجوريات النهضة وإشكال الهوية.

مهد المؤلف لموضوع أليجوريات النهضة بتعريف الرواية الأليجورية، و«هي الرواية التي تقول شيئاً وتعني غيره في أبسط تعريفاتها، وتتحول أحداثها وشخصياتها إلى معادل رمزي مباشر لأفكار كاتبها، أو إشارة غير مباشرة لنماذج أو مواقف في العالم الذي تتولد منه، معتمدة في بناء أحداثها وشخصياتها على ما يشبه الاستعارة المكنية التي يراد بها لازم معناها وليس ظاهر معناها. ولأنها رواية لا تستطيع أن تشير إلى موضوعها إشارة مباشرة بسبب حواجز الرقابة الصارمة،فإنها تراوغ السلطة التي تناوشها، وتتحول إلى إستراتيجية خطاب مقموع، يتحايل على سلطات المنع في المجتمع، ويناورها بتورياته السردية الملتبسة التي تومئ إلى مراميها الباطنة بواسطة القرينة الدالة» (ص:267-268).

وينبه الدكتور جابر عصفور إلى أنه لابد من قراءة الرواية الأليجورية بوصفها رواية مجازية الانتقال فيها من ملزم المعنى إلى لازمه، وحركة القراءة فيها لا تتوقف على المعنى الأول المباشر إلا بوصفه دليلاً على المعنى الثاني غير المباشر.

وقد احتلت الرواية الأليجورية مكانة دالة في مجالات القص في عصر النهضة، وذلك على مستوى الممارسة العملية لفنون القص التي كانت ترمي إلى إنطاق المسكوت عنه من خطاب المجتمع، وعلى مستوى الوعي النظري بأهداف القص ووظائفه التنويرية في مجتمع يهدف من خلال طليعته إلى تأسيس ملامحه المدنية، وقد مارست الرواية الأليجورية إبداعها بواسطة التمثيلات الكنائية التي ساعدت المتمردين، وقد أشار المؤلف إلى كل من الشدياق وعلي مبارك، وفرانسيس فتح الله المراش في منتصف القرن التاسع عشر.

في دراسته لإشكال الهوية،أشاد المؤلف برواية خليل الخوري «وي. إذن لست بإفرنجي» التي تتجلى أهميتها في أنها تُكمل ملمحاً في غاية الأهمية من المشكلات التي عولجت في روايات كتاب القرن التاسع عشر، فقد شغل خليل الخوري نفسه بقضية الهوية، فما كتبه في روايته هو تمثيل كنائي للأفكار التقريرية التي صاغها لتأكيد ما أطلق عليه اسم «الوجود الأهلي»، الذي يقصد به هوية كل أمة وضرورة الحفاظ عليها.



# ملامح الانفصال والاتصال في ديوان (كزهر اللوز أو أبعد) لمحمود درويش

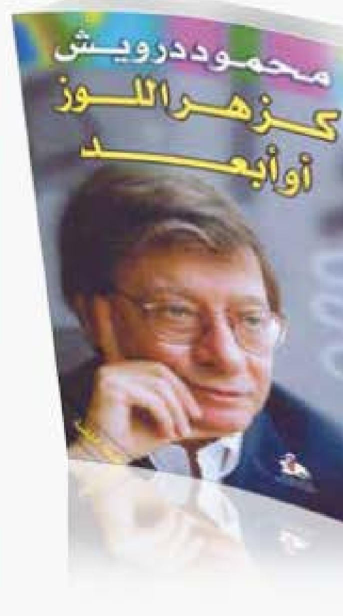
دليلة مكسح - الجزائر

أستاذة جامعية - جامعة الحاج لخضر- باتنة- الجزائر

اللغة الشعرية لغة الحياة، ولغة التجربة الوجودية في فضاء الواقع النفسي والاجتماعي والفكري، وهي إذ تتشكل من ذات الشاعر إنما لتحيل إليه في آخر المطاف، لامتلاكها قوة التوغل في الداخل النفسي للشاعر، وفي الخارج حيث العوالم المجهولة، التي لا تكشف إلا بلغة مجهولة مثلها، لكنها تمتلك مفاتيح تأويلها. هذا ما يمكن أن يكون مثالا على ديوان (كزهر اللوز أو أبعد) للشاعر الراحل محمود درويش، الذي أبانت لغته الشعرية عن ملامحه النفسية العميقة، التي شكّلتْها تجربته في الحياة، وأي حياة؟ إنها تجربة المنفى والاغتراب الأبدي.

ولأن لكل نص شعري مفاتيحه، فقد آثرنا أن نستند إلى إحدى المفاتيح التي رأينا إمكانية الدخول عبرها إلى عوالم محمود درويش، وهي مجموعة الضمائر التي تنوعت في الديوان، وكان لها أثر مهم في تشكيل بعض الدلالات التي عبر عنها الشاعر، وأحال بها إلى ذاته ولو عن طريق غير واع، لأن الشعر هو فعالية لغوية، والشاعر لا يعي العالم جمالياً إلا بفضل اللغة[1] ، سواء أكان العالم داخلياً أم خارجياً، ولذلك فكل ظاهرة لغوية في النص تشير حتما إلى ظاهرة تتجاوز الفعل الإبداعي، إلى الكشف عن تشكلات رؤيوية ونفسية خاصة.

لقد تأسس ديوان (كزهر اللوز أو أبعد) على أقسام ثمانية، اتُّخذَ لأربعة منها عناوينُ خاصة عبارة عن ضمائر، وكانت على الترتيب الآتي: أنت، هو، أنا، هي، أما الأقسام المتبقية فاتخذت عنواناً موحداً، وهو منفى مع اختلاف رتبة المنفى الذي صاحبته أرقام 4،3،2،1. وهذا التقديم ليس الهدف منه تتبع عتبات النص الخارجية، وإنما هو إشارة إلى الظاهرة اللغوية المميزة في الديوان، ذلك أن الشعر في بنيته قائم على موضوع أو فكرة أو قضية تؤرق الشاعر، وتحيط عالمه بالتساؤل والقلق والشك، وتكون التجربة الشعرية بتنوع أساليبها واختلاف جمالياتها، مؤسسة على قلق رئيس يظل يحفر في ذات الشاعر حتى يتحقق له الاكتشاف، ولو أنه في الشعر اكتشاف غير كامل، لأن الحقائق تتعدد والحالات تتغير، وهذا القلق الذي يَسِمُ شعر درويش في ديوانه (كزهر اللوز أو أبعد) يشكل ملمحاً رئيسياً من ملامح رؤى الشاعر الإبداعية، الناتجة عن قلق وجودي يتعلق بالذات الفلسطينية المشرّدة، وما يُلحظ في الديوان هو تأسيسه على مجموعة معينة من الضمائر، التي اتخذتْ نَفَسًا دلالياً جديداً إضافة إلى وظيفتها النحوية، وإذا كانت الضمائر في اللغة العربية عبارة عن أسماء مبهمة تقوم مقام الأسماء الظاهرة، فتدل على متكلم أو مخاطب أو غائب[2] ، فإنها في الشعر تخرج من بوتقة المعاني المعجمية الضيقة إلى نطاق الدلالات المتعددة، بفضل أساليب فاعلة من أهمها الانزياح، الذي يتيح للألفاظ عامة حركة دلالية غير عادية، ذلك أن الشعر يجعل اللغة متحركة بانزياحها، ومتشبعة بمدلولات غير مألوفة؛ لأنه ذو خاصية تركيبية تظل معلقة بكَمٍّ معتبر من الطاقات المشحونة، التي يفجرها الشاعر مع أول لحظة ولادة للعمل[3] وإذا كانت الضمائر في حالاتها العادية تشير إلى مؤشرات محدَّدة مذكرة أو مؤنثة، فردية أو جماعية، فإنها تكون لصيقة بصفات خاصة وحالات معينة، وذلك ما كانت عليه الضمائر في ديوان (كزهر اللوز أو أبعد) الذي اُتخذت فيه عناوين لبعض أقسامه وهي: أنتَ، هو، أنا، هي، والتي تعلقت بالمخاطب المذكر المفرد (أنت)، وبالغائب المذكر والمؤنث المفردان (هو، هي)، وبالمتكلم (أنا).



ولم تبرز الضمائر الأخرى المثناة أو الدالة على الجمع وهي: أنتما، وهما، وأنتم، وهم، وهن، ونحن، وكأن ذلك الإفراد هو دلالة على تفرد وانفصال أولي، قائم على مستوى البنية النصية بين أطراف الخطاب في الديوان، فالذوات المؤشَّر عليها بـ : أنتَ، وهو، وأنا، وهي، تمثل في الديوان بصفتها ذوات منفصلة عن بعضها البعض لغوياً ومعنوياً، فمن حيث الجانب اللغوي تبرز الضمائر بنوعها الانفصالي بدل الاتصالي «الذي يكون متصلا باسم أو فعل»[4]، ولأن اللغة حاملة للمعاني التي تكون ذات ركيزة نفسية أو اجتماعية أو ثقافية ، فإن الانفصال القائم على مستوى البنية السطحية للضمائر، صاحَبَهُ دلالياً انفصال معنوي على مستوى البنية العميقة، التي تدل على انفصال اجتماعي ونفسي قائم بين مجموعة ذوات، تعاني ظروفاً اجتماعية وثقافية وسياسية ووجودية قاهرة جداً في ظل زمن اغترابي، وإذا كانت الضمائر تجتمع تحت تسمية نحوية واحدة تؤالف بينها، فإن الذوات المنفصلة عن بعضها البعيدة عن الاجتماع والتآلف، تشترك في مقاسمة الوضع نفسه، وهو النفي والبعد عن الوطن، الذي يمنحها مدلول الاتصال على مستوى الاشتراك في المنفى، ومدلول الانفصال على مستوى انطواء كل ذات على آلامها ومأساتها، فالمنفى الذي تتقاسمه الذوات التي أشار إليها الشاعر بالضمائر المذكورة سابقا (أنت، أنا، هو، هي) بدل أن يكون حيزاً جامعاً، يتشكل بصفته فضاء قاهراً حتى على المستوى الداخلي للذوات، بامتداده إلى العمق النفسي الذي صارت من خلاله المشاعر باردة، والعلاقات واهية بين المنفيين الذين تفرقوا عن بعضهم البعض، وتقوقعت كل ذات على أحزانها وغربتها.

إن الأنا التي تمثل ذات الشاعر، والتي تحددت بالضمير (أنا) برزتْ في الديوان مقهورة ومتعبة، نتيجة ما تعانيه من وحدة وانفصال عن الآخرين، مما يحول بينها وبين ما كانت تصبو إليه من غايات، وتصير هذه الأنا بمثابة آخر مخاطَب منفصل يتمنى الموت والانفصال عن الوجود الدنيوي، وإن كانت لا تبدي تلك الرغبة مباشرة، وبدل أن تظهر الأنا بالضمير المعتاد، تظهر من خلال ضمير المخاطب (أنت) الذي يشكل بحضوره مدلولات مختلفة:

لآن في المنفى ..نعم في البيت،
في الستين من عمر سريع
يوقدون الشمع لكَ
فافرح بأقصى ما استطعتَ من الهدوء،
لأن موتا طائشا ضل الطريق إليكَ
من فرط الزحام...وأجلكَ [5]

إن الأنا التي تخاطب نفسها، وكأنها منفصلة عنها بفعلين أحدهما مضارع (يوقدون)، والآخر أمر (افرح) تنبئ عن حالتها الشعورية المزرية، حيث يتحول عيد الميلاد- وعلى الرغم من مشاركة ذوات أخرى فيه- إلى لحظة تأملية حالكة، تبدي فيه الأنا آثار المنفى عليها، وهي لحظة يجتمع فيها المكان بالزمان ليشكلا موقفاً درامياً قاسياً، حيث ينبني المكان ببعدين أحدهما حاضر، وهو البيت والآخر غائب ولكنه مستحضَر نفسياً، وتشير إليه كلمة المنفى التي تحيل إلى لحظة انفصالية طويلة المدى، حيث يتشكل من خلالها الزمان عبر بعدين، وهما الماضي والحاضر، وتلعب لفظة (الآن) دوراً مميزاً في الفصل بين البعدين الزمنيين، كما تجمع بينهما في لحظة استذكارية متسارعة، فتحيل من جهة إلى الماضي الذي مر سريعاً، ومن جهة إلى الحاضر الذي يمثل أمام الأنا رهيباً وقاسياً، ولفظة الآن لها الدور نفسه الذي أدته لفظة المنفى، التي فصلت دلالياً بين وطن الشاعر البعيد عنه، وبين البلاد المنفي إليها؛ لكنها في الوقت ذاته جمعتْ بين المكانين في لحظة نفسية مؤلمة، استُحْضِر فيها الوطن البعيد في مكان يدل ظاهرياً على الاستقرار، ولكنه في حقيقته لا يمثل سوى جزء من حالة عدم الاستقرار، ويُستظهَر الزمن المستقبلي في المقطع السابق كلحظة تفاؤلية، وإن كانت غير واضحة المعالم؛ لأن تلك اللحظة هي التي ستحقق حلم الشاعر بالعودة إلى الوطن، إنها لحظة الموت حيث يتحول الغياب عن الحياة إلى حضور في المكان الذي ظلت الأنا تتوق إليه، وهو تشكيل درامي عميق تَمَكَّنَ من خلاله الشاعر استجماع دلالات الانفصال، بدلالات الاتصال في ضمير الأنا الذي ظهر في شكل مخاطب يتوق للتغيير، وما يبرز من خلال هذه المفارقة التي عبر فيها الشاعر عن ذاته بضمير المخاطب، هو أن الأنا تغيِّب نفسها في المنفى، وتخاطب ذاتها بضمير المخاطب؛ لأن معالمها الذاتية موجودة هناك في فلسطين، وما دامت قد انفصلت عنها، فإن الانفصال ظل سمتها، بين وجودها الفلسطيني الذي صار بعيداً، ومجرد أفكار، وصور، وإرث معنوي، وبين حضورها في المكان الاغترابي بكل زخمه.

إن انفصال الأنا عن حيثيات مكانها الطبيعي، وابتعادها عن الفاعلية المباشرة فيه، يجعلها أنا تشعر بحدة الاغتراب، وعطلها وعجزها، فتختلط عليها الرؤى والمفاهيم ، وإذا كان ضمير الأنا في المقطع الآتي قد ارتبط دلالياً بالضيف والمضيف في الآن نفسه، وجمع بين ذاتين، فإنه على مستوى العلاقات مع ذوات خارجية نجد سمة الغياب هي البادية، لأن الأنا لا تبدي أي ارتباط مع الخارج، فكل تفاعلاتها لا تتجاوز أناها المغتربة :

كما لو فرحتُ: رجعتُ. ضغطتُ على
جرس الباب أكثر من مرة، وانتظرتُ...
لعلي تأخرتُ . لا أحد يفتح الباب ، لا
نأمة في الممر.
تذكرتُ أن مفاتيح بيتي معي، فاعتذرتُ
لنفسي: نسيتكَ فادخل
دخلنا...أنا الضيف في منزلي والمضيف[6]

يتشكل ضمير الأنا في هذه الأسطر على التعدد، فهو يحيل إلى الضيف والمضيف، مما يجعل الدلالة تتوسع بشأن هذه الذات التي تتعدد تشكلاتها، والتي من أسبابها شعور الأنا بالاغتراب، نتيجة انفصالها عن انتمائها الطبيعي الذي يمنحها القوة والأمل، لذا تغدو في المنفى مقهورة ومريضة، وليس لها أمل بالمستقبل، ولا رؤية واضحة تعين تطلعاتها، وإذا كانت حنان محمد موسى حمودة، ومعها يوسف بكار بريان أن تغني الإنسان بالأرض لا يمثل ارتباطاً وقتياً ومحدوداً، بقدر ما يعبر عن اتحاد باطني بين أرض خالدة ودم خالد، يحيل في النهاية إلى مدلول رمزي[7]، فإن الأرض لدى محمود درويش تظل فردوساً مفقوداً، يحمله الشاعر في داخله ألماً وأسى وانهزاماً:

أهجس، أهمس في السر: عش
غدك الآن ! مهما حييت فلن تبلغ
الغد...لا أرض للغد، ستدرك أن
الفراشة لم تحترق لتضيئك /
لا أرض ضيقة كأصيص الورود
كأرضك أنت.. ولا أرض واسعة
كالكتاب كأرضك أنت.. ورؤياك
منفاك في عالم لا هوية للظل
فيه ، ولا جاذبية / [8]

يتشكل ضمير المخاطب ليحيل مرة أخرى إلى صوت الأنا، التي تخاطب نفسها سراً أو علانية لتكشف عن حدة اغترابها، حيث يجعلها انفصالُها عن انتمائها الطبيعي، إلى (أنا) تختصر أحلامها في الحاضر فقط ولا تسعى للمستقبل، فغدها هو اللحظة الآنية التي تعيشها بكل آلام الفرقة والاغتراب، وبالرغم من أن المغترب كثيراً ما يتغنى بموطنه البعيد عنه، إلا أن الشاعر يتجاوز ذلك إلى الوقوف على تمزقاته النفسية، التي تقع بين سنديان البعد عن المكان المحبوب، ومطرقة المكان المكروه الذي وصفه الشاعر بالظل الذي لا هوية له.

تتعدد في الديوان أسباب شعور الأنا بالاغتراب، من بينها فقدانها لشريك يقاسمها همومها ومعاناتها، وحتى إن كان موجوداً، فهو بعيد كل البعد عن فهم مأساة الأنا والإحساس بها، لذلك تحاول الأنا الشاعرة في كل لحظاتِ خيبتِها، التحلي بالهدوء من أجل تجاوز المعاناة والآلام ، وتقمص أدوار الذوات الأخرى، عبر صيغ متعددة تشمل ضمائر المخاطب والغائب معاً، كما في المقاطع السابقة الذكر، ولأن الاغتراب هو شعور عميق بالوحدة نتيجة انعدام علاقات المحبة والصداقة مع الآخرين، وهو حالة ناتجة عن كون الأشخاص والمواقف تبدو غريبة[9]، فإن المقطع الآتي يبرز ملامح الاغتراب الذي طال الأنا حتى بوجود الشريك:

لم تأتِ. قلتُ : ولن..إذا
سأعيد ترتيب المساء بما يليق بخيبتي
وغيابها:

أطفأتُ نار شموعها،

أشعلتُ نور الكهرباء،

شربتُ كأس نبيذها وكسرته،

أبدلتُ موسيقى الكمنجات السريعة

بالأغاني الفارسية.

قلت : أنسى ما اقتبستُ لها

من الغزل القديم، لأنها لا تستحق

قصيدة ولو مسروقة...[10]

إن غربة الأنا التي تتعمق حتى بوجود شريك، لا يعود إلى عدم تفهم هذا الأخير على الدوام، بل يعود في الغالب إلى الأنا في حد ذاتها، التي لا تحس بطعم العلاقة والترابط، لبعدها عن مكان انتمائها الذي يجعلها لا تحس بقيمة الأشياء والأمور من حولها، فيغدو كل شيء خارج نطاق الانتماء لا فائدة منه، لأنها التي تعاني اغترابا رهيبا، يمنعها من رؤية الأمور والآخرين كما هم:

وأنتِ معي، لا أقول: هنا الآن

نحن معا، بل أقول: أنا، أنت،

والأبدية نسج في لا مكان [11]

إن ضمير الأنا تتحدد دلالته في هذا المقطع من خلال انفصاله الكتابي والدلالي معا، حيث ينفي عن نفسه دلالة الاجتماع والترابط مع الآخر (أنت)، ويلوذ بالوحدة والبعد من خلال ذلك الفصل الكتابي بالفاصلة، والفصل الدلالي بنفي الفاعلية عن ضمير الجمع (نحن)، فيتحول الاجتماع إلى حالة عبثية ناتجة عن أثر المكان، وعن خاصية الشاعر الذي يمثل كياناً مستقلاً بذاته، لا يمكنه الذوبان كلية داخل المجتمع، فما بالك إذا كان داخل مجتمع غير مجتمعه [12].

إن هذا الإحساس بالانفصال يمتد إلى ذوات أخرى تتقاسم القضية نفسها مع الأنا الشاعرة، وإن كانت لا تجتمع معها حيث تتآلف الضمائر تحت عباءة الهموم والآلام، ففي قصيدة (هو، هي) تبدو الذاتان منفصلتان عن بعضهما البعض نفسياً، بالرغم من تحقق اتصالهما واجتماعهما في مكان واحد، إذ لا تستطيعان إيجاد جو حميمي يجمع بينهما، فيمتثل لديهما معا إحساسٌ بالتناقض في وجودهما :

هي: هل عرفتَ الحب يوما ؟

هو: عندما يأتي الشتاء يمسني

شغف بشيء غائب، أضفي عليه

الاسم، أي اسم، وأنسى...[13]

إن الضميرين: هي وهو الدالين على الغائب المبهم المنفصلين لغويا، يتقاسمان أيضاً انفصالاً دلالياً من خلال عدم تقاربهما مما يجعلهما مغتربين معاً، وإن كان لكل منهما همومه الخاصة، كما يبرز الانفصال أيضا عبر الفضاء البصري الذي برز فيه الضميران متقابلين، ولكل منهما فضاؤه الخاص الذي لا يلتقي بفضاء الآخر.

إن دلالات الانفصال والوحدة والاغتراب، التي تأسست عبر ما أحالت إليه الضمائر السابقة من معان، تتعلق بسيرورة الذوات في واقعها، تتحول عبر الديوان من معاناة الذات الشاعرة، التي تمظهرت من خلال ضمير المتكلم والمخاطب والغائب كما أسلفنا، إلى معاناة جمعية ترسم لنا جانباً من واقع المنفيين المتأزم، الملون بألوان القهر والمعاناة وافتقاد نكهة الحياة :

فراغ فسيح، نحاس، عصافير حنطية

اللون، صفصافة، كسل، أفق مهمل

كالحكايا الكبيرة، أرض مجعدة الوجه

***

لون في مرض اللون، كل الجهات

رمادية

لا انتظار إذا

للبرابرة القادمين إلينا

غداة احتفالاتنا بالوطن[14]

إن وحشة المنفى في ارتباطها بمجموعة الضمائر التي اجتمعتْ وفق رباط اتصالي، وهو ضمير النحن، تتحول إلى الداخل، حيث تصير نفسية الشاعر أو أناه مريضة وموحشة؛ لأن الواقع المرير لا يدع لها الفرصة، كي تستعيد أنفاسها، أو تحس بانتمائها وتفردها، لذلك تعجز عن إيجاد عالمها المميز الذي تصبو إليه، ولا تجد اللغة المناسبة التي تهرب من خلالها نحو أفق مغاير، يمكّنها من إيجاد فاعليتها في الوطن الذي نفيتْ عنه، إنه زهر اللوز الذي تبحث له عن لغة وعن معنى لا يموت، يظل خالدا حتى بعد موت الشاعر، مطلقا شذاه:

ولوصف زهر اللوز، لا موسوعة الأزهار

***

فكيف يشع زهر اللوز في لغتي أنا

وأنا الصدى ؟

***

لو نجح المؤلف في كتابة مقطع

في وصف زهر اللوز، لانحسر الغياب

عن التلال، وقال شعب كامل:

هذا هو /

هذا كلام نشيدنا الوطني ![15]

إن الشاعر يبرز قلقا إزاء وجوده الواقعي والإبداعي، وقد حمل ضمير الأنا دلالات الخوف والقلق من القادم، مستعيناً بمكون طبيعي، وهو (زهر اللوز) من أجل توليد دلالات تشير لبعض القيم، التي يراها الأنسب لاستعادة وجوده الفلسطيني على المستوى الفردي والجمعي[16]. إن زهر اللوز هو أيقونة تحيل إلى مسؤولية الشاعر، الذي يرى ضرورة تحمله لمهمة التعريف بالقضية الفلسطينية، وإيصال صوت الشعب الفلسطيني، وإبراز صفات تميزه عن بقية الشعوب، وهي مهمة عسيرة أبدى الشاعر أسفه إزاء عدم قدرته على تحقيقها، وعلى تخليد الصوت الفلسطيني.

إن الشاعر باعتباره (أنا) يبحث عن إمكانية تحقيق حلمه ومسؤوليته تجاه بلده، يحاول البحث عن ذوات أخرى تقاسمه الهم نفسه، لعله يتوصل إلى رؤيا جديدة تحلق بهم جميعاً نحو عالم أكثر أماناً وسكينة؛ لكنه لا يلقى غير المعاناة والاغتراب مخيمَيْن على الجميع؛ لأنهم لا يملكون زماناً ولا مكاناً إلا في أذهانهم، فالزمان لديهم مرتبط فقط بما عاشوه أو ما عاشه آباؤهم في فلسطين، والمكان ( الجغرافيا الفلسطينية) بعيد عن حق الامتلاك، الذي يظل هاجساً تتقاسمه الذوات سواء أكانت أنا أو آخر، ذلك المكان الذي لم تستطع أن تطأه على الرغم من كل المحاولات، فيتحول إلى عقدة كبرى، هي عقدة التاريخ الفلسطيني المسلوب، ذلك أن الإنسان يحمل جغرافياه معه أنى حل وارتحل، وانغراسُ الجغرافيا فيه هو تحقيق لوجوده التاريخي[17]:

قال لي صاحبي: لا أريد مكانا

لأدفن فيه ...أريد مكانا لأحيا،

وألعنه إن أردت.[18]

إن الأنا تقدم نفسها بشكل اتصالي في صورة الآخر (الصاحب)، لأنها تقاسمه المعاناة حيث لا وجود ولا انتماء في الحاضر، في مقابل اعتراف بأحقيتها في العودة إلى مكانها الطبيعي بعد الموت، وهي بؤرة الأزمة التي تحياها والتي تحوّل حياتها إلى دراما.

إذا كانت الضمائر بوصفها ذوات دلالية قد برزتْ في الغالب منفصلة عن بعضها البعض، فإنها على مستوى دلالي أعمق تتقاسم خاصية الاغتراب، وتشكل لُحمة متصلة، وقد سعى الشاعر في مواضع كثيرة من الديوان إلى إبراز ملامح ذلك الاتصال الذي يتمظهر نفسيا وواقعيا:

.....ولكن أسلوبنا في

عبور الشوارع من زمن نحو آخر

كان يثير التساؤل: من هؤلاء

الذين إذا شاهدوا نخلة وقفوا

صامتين، وخروا على ظلها ساجدين ؟

ومن هؤلاء الذين إذا ضحكوا أزعجوا

الآخرين؟[19]

إن الشاعر وهو يستعمل ضمير الجمع المتكلم (نحن)، حيث يتقمص أصوات الآخرين ليعبر عن هَمٍّ واحد، يصف المنفيين -وهو من بينهم- الذين طال بهم الزمن، ولم تتحقق أمانيهم في العودة إلى أوطانهم، ويحيل إلى نظرة الآخرين تجاههم، فإلى جانب المنفى هم محرومون من التعبير عن ذواتهم، وعن التصرف مثلما يتصرف الآخرون، ومحرومون من إبداء حنينهم لكيانهم الفلسطيني.

وإذا كان الشاعر وهو يعبر عن ذاته، وعن الذات

الفلسطينية الجمعية المشردة في أصقاع العالم، قد استخدم الضمائر المختلفة للتعبير عن حالات الانفصال والاتصال، وللإحالة إلى غياب الفاعلية لديه ولدى تلك الذوات، لأثر المنفى العميق عليها، فإنه على مستوى الرؤية الإبداعية التي أراد من خلالها تأسيس بديل فكري، يمكّنه ويمكّن الذات الفلسطينية من تجاوز محنتها على الرغم من اغترابها، بتجاوز تغييب الذوات بالإشارة إليها عن طريق الضمائر إلى الاستحضار المباشر والواضح، وذلك من خلال الإشارة إلى ذات فلسطينية على الرغم من عيشها في المنفى، تمكنتْ من أن تجمع في داخلها تناقضات الحياة، وتستمر في أداء رسالتها على الرغم من كل الظروف، وكأن الشاعر باعتباره (أنا) يريد من تلك الذات التي جعلها مخالفة للذوات الأخرى، إذ لم يرمز لها بضمير بل قدمها باسمها الحقيقي، وهو (إدوارد سعيد) المفكر الفلسطيني الراحل، قلنا وكأنه يريد من خلالها أن يبرز رؤيته للحياة، ولأساليب التعامل مع حياة المنفى، تلك الرؤية التي يأمل أن تكون نبراسا لأولئك المنفيين المبهمين، كي يُبرزوا هوياتهم وصفاتهم، جاعلا من صوت إدوارد سعيد عبر حواره معه، إلى نافذة تمكن الذات الفلسطينية من قهر اغترابها:

منفى هو العالم الخارجي
ومنفى هو العالم الداخلي
فمن أنتَ بينهما ؟
لا أعرف نفسي تماما
لئلا أضيعها، وأنا ما أنا
وأنا آخري في ثنائية
تتناغم بين الكلام وبين الإشارة
***
أنا ما أكون وما سأكون
سأصنع نفسي بنفسي
وأختار منفاي
***
أدافع عن حاجة الشعراء
***
وأدافع عن شجر ترتديه الطيور
بلادا ومنفى [20]

إن الفرق بين إدوارد سعيد وتلك الذوات المبهمة حسب الشاعر، يكمن في أن المفكر يعترف بواقعه وبمنفاه، ويتجاوز خيبة الماضي، ببذل كل جهده من أجل الحاضر والغد، وعودته إلى الماضي ما هي إلا محطة للنهوض، وتجاوز آلام المنفى:

والحنين إلى الأمس ؟
عاطفة لا تخص المفكر إلا
ليفهم توق الغريب إلى أدوات الغياب [21]

إن رؤية إدوارد سعيد تصبح نموذجاً يتوق إليها الشاعر باعتباره (أنا) لا تتصالح مع العدو ، ولا تتوق إلى الماضي إلا لمعرفة الحاضر، ولا تتغنى بالمكان المفقود، بل تقدم قراءاتها للحاضر وللوجود كي تستطيع التأقلم مع أوضاعها، وتخلّد الذات الفلسطينية من خلال فعلها الذاتي، إنه فعل المواجهة مع العدو ومقاومته وكسر شوكته، بالفكر والإبداع والمغايرة وعدم الانبطاح:

هيأتُ نفسي لأن أتمدد في
تخت أمي، كما يفعل الطفل حين يخاف
أباه. وحاولتُ أن أستعيد ولادة
نفسي.
***
لكن وحش الحقيقة
أبعدني عن حنين تلفّتَ كاللص خلفي
.وهل خفتَ ؟ ماذا أخافكَ ؟
.لا أستطيع لقاء الخسارة وجها
لوجه. وقفت على الباب كالمتسول.
هل أطلب الإذن من غرباء ينامون فوق
سريري أنا...بزيارة نفسي لخمس دقائق ؟[22]

إن دلالات الضمائر في ديوان (كزهر اللوز أو أبعد) سواء أكانت انفصالية أو اتصالية، قد خرجتْ عن خصائصها النحوية والدلالية المبهمة، لتحمل معاني الانفصال والاغتراب والمعاناة، إلا أنها على مستوى الرؤية المستقبلية، ارتبطت بمعاني المقاومة والمواجهة من أجل الحفاظ على خصوصياتها، ويمثل ضمير الأنا رغم تعدد مسمياته الضمائرية بؤرة الدلالات في الديوان؛ لأنه سعى على الرغم من إحساسه العميق بالاغتراب إلى تشكيل خيط وصل يربط بين الذوات الفلسطينية، ويجمعها على هدف واحد، من خلال تقديم رؤية مغايرة تحاول مقاومة مشكلات الحاضر الذي تعيشه، وتبحث عن الانعتاق من سطوة المنفى لتسطر سبيلاً جديداً في الحياة، لا يخلدها لوحدها بل يخلد التاريخ الجمعي لفلسطين.

الهوامش:

01 - محمد عبدو فلفل: في التشكيل اللغوي للشعر (مقاربات في النظرية والتطبيق)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2013 ، ص 13.
02 - إبراهيم أحمد الفارسي: معالم الإعراب، دار أسامة للنشر والتوزيع، باب الزوار، الجزائر، ط1، 2003، ص140.
03 - عبد الله التطاوي: اللغة والمتغير الثقافي، الواقع والمستقبل، الدار المعربة اللبنانية ،القاهرة، مصر، ط1، 2005، ص96.
04 - إبراهيم أحمد الفارسي: معالم الإعراب، ص 140.
05 - محمود درويش: كزهر اللوز أو أبعد، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، لبنان، ط2، نوفمبر،2005، ص17.
06 - الديوان: ص 61.
07 - حنان محمد موسى حمودة، يوسف بكار: الزمكانية وبنية الشعر المعاصر (أحمد عبد المعطي أنموذجاً) جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، وعالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2006، ص 36.
08 - الديوان: ص 106، 107.
09 - كمال الدسوقي: ذخيرة علوم النفس، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1988 ، ص 71 .
10 - الديوان: ص 93.
11 - الديوان: ص 97.
12 - يوسف ميخائيل أسعد: سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب، دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1986 ، ص 99 .
13 - الديوان: ص 85.
14 - الديوان: ص 41 ، 42 .
15 -الديوان: 107 ،...، 118 .
16 -محمد إبراهيم أبو سنة: تأملات نقدية في الحديقة الشعرية (قراءات ودراسات)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1989 ، ص 14 .
17 -محمد حجو: الإنسان وانسجام الكون (سيميائيات الحكي الشعبي)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1 ، 2012 ، ص 40 .
18 - الديوان: ص 130.
19 -الديوان: ص 135.
20 -الديوان: ص 184،...187.
21 - الديوان: ص 190 .
22 - الديوان: ص 190، 191.

# شعرنة الفضاء الزمني في (العين الزجاجية) لسحر ملص



**كمال عبد الرحمن - العراق**
**ناقد**

تمثل الشعرية الدراسة المنهجية التي تقوم على علم اللغة للأنظمة التي تنطوي عليها النصوص الأدبية، وتهدف لاكتشاف الأنساق الكامنة التي توجه القارئ إلى العلمية التي يتفهم بها أو بين هذه النفوس، وعليه فإن «مسيرة هذا المصطلح قد تشابكت في تقلباتها بين دلالة تاريخية، وأخرى اشتقاقية، وثالثة توليدية مستحدثة» ولكن اتساع ضفاف الشعرية جعل منافذها متعددة واشتغالاتها تكاد تكون مختلفة من حيث زاوية النظر والاشتغال، أما جان كوهن فقد بنى شعريته على (الانزياح) وتتمحور نظريته حول الفرق بين الشعر والنثر من خلال الشكل وليس المادة أي من خلال المعطيات اللغوية المصاغة وليس من خلال التصورات التي تعبر عن تلك المعطيات، ومهما يكن من أمر فإن تودوروف قد أحسن وأبلغ عندما وصف الشعرية بأنها مجموعة من الضوابط الجمالية التي تجعل العمل أدبياً.

إن شعرنة الزمن في رواية سحر ملص (العين الزجاجية) تبدأ بتشظي الزمن «الزمان: أمس.. اليوم.. أو الغد.. أو بعد عمر سحيق.. ومضة ضوء في قلب الزجاجة.. ماذا يضير؟» حيث تحاول الروائية خلخلة المسار الزمني للنص، باقتراح نقطة بداية زمنية لا مركزية تنطلق من إشعاع زمني فوضوي، للدلالة على أن ما يحدث هو ممكن أن يحدث في أي زمان ومكان.

وقبل أن نستمكن خيطاً زمنياً من مسار السرد، تُسقطنا الروائية في سلسلة من الانثيالات التي تسبق التداخل الجراحي (حيث قرر الطبيب استبدال عين المريضة التالفة بعين زجاجية):

«.. وفي مكان عميق ربما أعمق من منبت الروح تتصعد الآه.. تلك الصرخة التي تتبدد في أحداق الكون بلا صدى.. وعلى قيعان شواطئ الموت تتكدس أجساد فرغت للتو من صخب الحياة.. تحمل شقاءها.. وفرحها صديدها.. وديدانها».

لا شك إن الزمن من العناصر الأساسية المكونة للنص الروائي، فهو كما يرى (فورستر) الخيط أو السلك الذي تنتظم به البنية التعبيرية الروائية، وأن الروائي يصعب عليه كتابة نصه من دون زمن، لأن التتابع الزمني يتدخل في تنظيم أصغر وحدات الجملة. كما أن الاشارات الزمنية المبثوثة في أي نص سردي تشترك وتتفاعل مع جميع العناصر السردية الموجودة فيه، ومؤثرة هذه الإشارات في العناصر ومنعكسة عليها، أي أن «الزمن حقيقة مجردة سائلة إلا من خلال مفعولها على العناصر الأخرى»، ومن هنا تأتي حتمية تواجد الزمن في السرد، وأن لا سرد من دون زمن، وهذه الحتمية التي تجعل من الزمن سابقاً منطقياً على السرد، وجعلت منه «مشخصاً دلالياً ومكوّناً معمارياً يوضح شكل الوحدة السردية، ويحمل الوحدات السردية المرتهنة طابع الكلية والحركة والانسجام، عند ترهينه لوحدات، وإسقاطه لوحدات أخرى، كما يسعى الى إضفاء درجة من المعقولية على المنجز الروائي».

ويمكن ملاحظة أربعة أنواع من الزمن في رواية (العين الزجاجية) لسحر ملص، وعلى النحو الآتي:

1. زمن السرد. 2. زمن استباقي. 3. زمن استرجاعي.
4. الزمن النفسي.

**1. زمن السرد:**

يتناول جيرار جينيت هذا الموضوع بشيء من الدقة والتفصيل، فيفير. كما يرى حسن بحراوي أيضاً المشكلة من أساسها من خلال النظر الى الزمن السردي، بوصفه نوعاً من أنواع الزمن المزيف وأن الحكاية مقطوعة زمنياً مرتين، فهناك زمن الشيء المروي وزمن الحكاية، وزمن السرد يقع بين الزمن الاستباقي الذي هو استحضار المستقبل في الحاضر بطريقة ما، وبين الزمن الاسترجاعي وهو استحضار المستقبل في الحاضر بطريقة (التداعيات) أو (الفلاش باك).

زمن السرد في هذه الرواية يشتغل في مواضع كثيرة فيها إلى جانب أنواع أخرى يتعاضد معها لتشكيل بنية السرد الحقيقية، وهذا الزمن يفتتح الرواية: «أرتدي الثوب الخمري لحفلي التأبيني.. استعداداً تخديري للعملية الجراحية.. والحياة يغلفها ضباب التخدير.. ورتابة العمر... الطبيب يحدق في وجهي، وأنا أحدق في العيون النابتة من الجدران والسقوف.. والشقوق كلها تبحث عن نور.. عن مبضع جراح يعطيها حزمة ضوء غير منكسرة من سراب الحياة الأبدية...» هذا هو زمن السرد، زمن كتابة النص، المتشكل من عنقود أفعال الحاضر «أرتدي/ يغلفها/يحدق/ أُحدق/تبحث/ يعطيها» والرواية ترويها (الأنا الساردة) عن إرهاصات على حافة موت متخيل تبتكر تفاصيله، من موجات قلق وارتباك يصعب تخيلها وتصورها إلا من قبل الساردة، ويستمر زمن السرد في الرواية من خلال تشكيل السرد المتنامي في الحاضر من دون الحاجة إلى استرجاع أو استقدام الزمن: «الشمس تلفح الطرقات.. قضبان سكة الحديد صامتة طويلة ممتدة في المدى اللانهائي.. الرمال تعوي في الصحراء والطيور تبحث عن ظل تحتمي به من الرمضاء على الدرب الطويل الممتد بين عمان ودمشق، كان يسير حافياً بلا زاد أو قربة ماء يطفئ بها ظمأ الصحراء.. يرتدي قمبازاً متسخاً وقد ظهر منه كتفه يضع على رأسه طاقية حجاج، ويحمل خرجاً فارغاً.. تارة يحدث نفسه وأخرى يصمت..» هذا الدرويش الزمني الذي تلفحه سموم الصحراء ويتمغنط في السدى طريق السراب (دمشق-عمان) وربما بالعكس، يشير بأصابع الرمز التأويلية الى تلك الرحلة الغرائبية التي ستمارسها الناصة دون قصد، حيث انشطار الطفولة البيضاء بين عالمين من الدهشة، أو زمنين ينشطران على فضائي مكانين يتشابهان ولا يتشابهان، تبدأ في الأول أولى نبضات الحياة، بينما تشتغل على الثاني سيرة ذاتية كاملة مفترضة من لدن سلطة الساردة على (الأنا) التي تمثل محور الاحداث ونهاياتها المأساوية.

**2. الزمن الاستباقي:**

هو تقنية سردية تدل على حركة سردية تُروى أو تذكر بحدث لاحق مقدماً، أي أنه (الاستباق) يروي أحداثاً سابقة عن أوانها أو يمكن توقع حدوثها ويتطلب ذلك «القفز على مدة من الرواية وتجاوز النقطة التي وصل إليها الخطاب لاستشراف مستقبل الأحداث، والتطلع إلى ما سيحصل من مستجدات».

والاستباق بهذا المفهوم يعني التوغل في المستقبل الحكائي القريب أو البعيد، والإفصاح عن الهدف أو ملامحه قبل الوصول الفعلي إليه، أو الاشارة الى الغاية المستقبلية قبل وضع اليد عليها، ومهما يكن من أمر، فإن الحاضر قد يحتاج لاستكمال بنيته السردية الى استنطاق

أو في الاقل استحضار شيء من الماضي أو المستقبل، أي قد لا تكتمل الحادثة الآتية إلا بربطها بحادثة ماضوية أو مستقبلية، وهذه المستقبلية تقع في الزمن الاستباقي للنص، أي توقع ما سيحدث، وما له علاقة مباشرة أو غير مباشرة في الحاضر أو زمن السرد، ومثلما تشتغل رواية (العين الزجاجية) في سياق منها على زمن السرد، كذلك تشتغل في سياق آخر على زمن استباقي: «إلهي.. نهاجر إليك بقلوب محملة بكل عناء وبؤس الحياة.. بأيدٍ تفيض بالذنوب.. لنتطهر هناك حيث وجه الإله الازلي.. ودعوات الأنبياء.. ودرب مفروشة بالبنفسج تتفتح على لغة التوحيد.. تخبئ في حناياها صلوات ينبض فيها قلب الصحراء..» ونلاحظ أن الوقائع كلها مستقبلية ستقع بعد زمن السرد (زمن الدعاء)، فهذا هو الزمن الاستباقي.

والروائية سحر ملص، لها قدرة كبيرة على التلاعب بالفضاء الزمني، حيث تحرك الوقت بذكاء واضح، فعلى طريقة ماركيز في مائة عام من العزلة، حيث يُبقي الجنرال على منصة الإعدام ويحرك الزمن جيئة وذهاباً ثم يعود إلى الجنرال، كذلك فعلت سحر ملص، فإنها تُبقي أعيننا معلقة بصالة العمليات، وتذهب بنا مرة إلى الماضي وأخرى إلى المستقبل، وتعود مرة أخرى إلى صالة العمليات حيث الطبيب يحاول جاهداً استبدال عين المريضة التالفة بأخرى زجاجية.

**3. الزمن الاسترجاعي:**

يعرف الاسترجاع في المنظور السردي بأنه «ذكر لا حق لحدث سابق للنقطة الزمنية التي بلغ بها السرد»، وعلى ذلك فكل عودة إلى الوراء تشكل بالنسبة للسرد استذكاراً يقوم به الماضي يحيلنا من خلاله على أحداث سابقة عن النقطة الزمنية التي وصل إليها السرد ويكشف عن جوانب مهمة فيه تسهم في إضاءة النص ومن بين الأجناس الأدبية تدل السيرة الذاتية( الحقيقية أو المفترضة) أكثر من غيرها احتفاءً بهذه التقانة.

إن تقانة الاسترجاع تؤلف «نوعاً من الذاكرة الروائية التي تربط الحاضر بالماضي وتفسره وتحلله، وتضيء جوانب مظلمة من أحداثه ومسارات الأحداث في امتدادها أو انكساراتها» هذا فضلاً عن وظائف عديدة ، منها (ملء الفجوات التي يخلفها السرد وراءه، وكذلك الإشارة إلى أحداث سبق للسرد أن تركها جانباً، أو اتخاذ الاستذكار وسيلة لتدارك الموقف وسد الفراغ الذي حصل في الرواية.. ووظائف أخرى لم نذكرها اختصاراً وإيجازاً).

فالزمن الاسترجاعي لا يشتغل على الذكريات أو التداعيات أو الفلاش باك فحسب، بل له وظائف أخرى ينبغي استدعاؤها من الماضي لتعزيز الحاضر وتطوير بنية السرد، بما يستطيع هذا الماضي من سد فراغات التشكيل العام للنص.

وتقوم رواية (العين الزجاجية) لسحر ملص في الغالب على الزمن الاسترجاعي، ومنه الاستذكار الذاتي أو السير ذاتي: «في تلك اللحظة دخلت جدتي وخطفت مني الرسالة وهي تقول موبخة: هذه الأمور لا تخص البنات... هيا اذهبي إلى فراشك...

غافلتها حتى خرجت، ثم جلست على الدرجات المؤدية لسقيفة الحطب، ورحت أبكي.. تمنيت لو أخي عاش.. لآنسني أيضا.. ولفرحت به أمي ثم أرخيت رأسي على الدرابزين وصرت أحدق في السماء.. ألمح النجوم أحلم بأمي.. ووجه أخي ..ثم غفوت.. وحين فتحت عيني كنت أتدحرج على الدرجات..» ونلاحظ هنا عنقود الأفعال الماضية التي تتشكل من الاستذكار (دخلت/ خطفت/ خرجت/رحت/ تمنيت/عاش/ آنسني/ فرحت/ أرخيت/ صرت/غفوت/ فتحت/كنت) والرواية تشتغل كثيراً على الاستذكار أكثر مما تشتغل على الاستباق، فهي رحلة إنسان أو إنسانة في دهاليز العجب، مخلوقة ممغنطة بالخوف والدهشة والقلق، حيث تتكالب عليها مواجع زمكانية تدحض لديها فكرة براءة العالم وبساطة الحياة، الساردة تدعونا بين وقت وآخر إلى العودة إلى الماضي الأبيض الذي فقد بريقه في زماننا المظلم الظالم الظلامي هذا، وحينما تختتم سحر ملص روايتها هذه بفاجعة الموت، فإنها تشير بأصابع الرمز إلى انتهاء الحكايات الجميلة والزمن الجميل، وما فشل العملية الجراحية في استبدال عين المريضة التالفة بأخرى زجاجية، إلا كناية عن محاولة استبدال الأصيل بالمصطنع والحقيقي بالمزيف، ومع هذا صرنا نتمنى المزيف ولا يرضى بنا هو نفسه.

وعلى الرغم من أصابع التأويل التي تشير بها الروائية سحر ملص نحو مكمن الضياع ومواقع الأسى، إلا أنها تستحضر علامات بارزة في تاريخنا المعاصر لعلها تتمكن من خلالها (إنقاذ ما يمكن إنقاذه) بعد خراب الأنفس وتشيؤ الإنسان الذي تحول إلى آلة خالية من العواطف والإنسانية، تحدثنا سحر عن معركة الكرامة، لتبعث في نفوسنا العزة والمجد في زمن بتنا فيه نفتقد إلى مثل هذه المبادئ السامية: «صرح ناطق عسكري بما يلي.. بناء على طلب العدو بوقف إطلاق النار أمام تكبده خسائر فادحة في الأرواح والآليات والمدرعات والدبابات استجاب الأردن لطلب هيئة الأمم المتحدة، وتوقف إطلاق النار وتراجع العدو إلى ما قبل النهر تاركاً العديد من آلياته ومجنزراته وقد سقط العديد من القتلى والجرحى في ساحة المعركة

أما الأردن فقد قدم العديد من الجنود والفدائيين الذين رووا بدمائهم أرض الكرامة».

**4. الزمن النفسي:**

يختلف الزمن النفسي اختلافاً جوهرياً عن الزمن الطبيعي (الواقعي)، فإذا كان هذا الأخير يخضع لمقاييس موضوعية ومعايير خارجية تقاس بالسنة واليوم والشهر والصباح والمساء والليل والنهار فإن الزمن النفسي لا يخضع لمعايير خارجية أو مقاييس موضوعية كالتوقيتات المتداولة، وإنما يمكن معرفته وتحديد سر وقاسياً حين تكون الشخصية حزينة، وعلى العكس لا تشعر بالزمن إذا كانت سعيدة، فحركة السرد في سرعتها أو بطئها في مثل هذا النوع إنما تتحكم بالأحاسيس الشخصية أي أن البعد الزمني مرتبط هنا بالشخصية لا بالزمن، حيث الذات تأخذ محل الصدارة ويفقد الزمن معناه الموضوعي، ويصبح منسوجاً في خيوط الحياة النفسية.

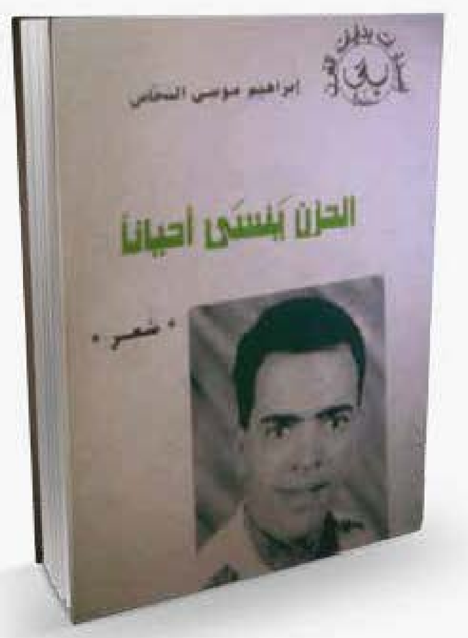
ولهذا النوع من الزمن حضور واسع في رواية العين الزجاجية لسحر ملص، والغالب على الزمن النفسي في هذه الرواية هو (تباطؤ الزمن) حيث تعيش بطلة الرواية في سدم وغيبوبات وانثيالات نفسية ضيقة، تشير بأصبع التأويل إلى ضيق الحياة في مجتمعاتنا التي لا تعرف الاستقرار، وتكتنفها التقلبات والاضطرابات، مما يرسم لشخصياتنا خرائط نفسانية مشوهة: «سجد لك الكون.. صلى ثم جأر.. ثم نحر البشر ضحاياهم وقلوبهم وهتفوا إلهي.. إلهي.. تركت نافذة القلب مشرعة تعبث فيها الرياح.. وأتيت هنا مستسلمة حيث الملاءات البيض والعيون الحسيرة التي تبحث عن النور مثلي. أنا البنت الكبرى التي تكونت في ليلة ظلماء اعترت فيها الحمى جسد أبي فخرجت من دفقة بيضاء علقت بالرحم مثل علقة وردية.. بعدما طرد قبلي توأمين (ذكراً وأنثى)..هل تحركا في الرحم.. هل دبت فيهما الحياة.. أم أن نبضاً حقاً في لجة الرحم نبضاً إيقاعياً.. لعلهما قرءا سفر الحياة فبصقا عليها ثم توسدا مساحة الطين الضيقة لتمتص الأرض جسديهما.. وترتشف ماءهما..» إن هذا الانثيال النفسي الذي يشكل ارهاصات لحظات قبل بدء العملية الجراحية إنما هو زمن مجهول، لا هو بالماضي ولا هو بالحاضر، هو زمن ينتمي إلى عصارة النفس وهو كل الزمن ولكنه مجهول يتحرك بين المسافة الماثرة بي القلب والروح، في هذا الزمن يضيع الزمن، وعلى الرغم من أنه يتحدث في الغالب بلغة الماضي، إلا إنه زمن المستقبل، زمن العملية الجراحية التي ستفشل.مع الأسف.فتهمد الصور وتطفأ الأضواء وينمحي الزمن كله.

لقد أتقنت الروائية سحر ملص تقانات السرد الزمنية، وقد مثل الزمن لديها هماً إبداعياً استناداً إلى طبيعة المعالجة وإشكالية هذا التناول، ومن هنا برزت مهارتها في التلاعب بخطية الزمن وتسيّده التقليدي على مساحة أغلب أحداث الرواية، والتمرد على القوانين السردية التي يمكن أن تعيق ظهور الزمن حسياً ومادياً، مجسدة بتحديدات معينة، قدرتها الفذة على قولبة الفضاء الزمني في خطوط الأحداث المتداخلة، والعمل على خلق زمنية خاصة تعتمد الزمن التاريخي بوصفه ظهيراً لا يمكن تجاوزه، لكن في الوقت نفسه تسعى إلى تشكيل زمنها السردي الخاص بها.

# عتبة استهلالية: دراسة في ديوان (الحزن ينسى أحيانا) للشاعر إبراهيم موسى النحاس



بقلم: عيسى ماروك - الجزائر




لا يمكن الولوج إلى أي بناء إلا بعد وطء عتبته ، التي تقودنا لا محالة لمدخله ، فتكل مدخل عتبة لذلك فقد اهتمت السيميائية الحديثة بدراسة الإطار الذي يحيط بالنص، كالعنوان، والإهداء، والرسومات التوضيحية، وافتتاحيات الفصول وغير ذلك من النصوص التي أطلق عليها (النصوص الموازية)، والتي تقوم عليها بنايات النص، ويأتي الدور المباشر لدراسة العتبات متمثلاً في نقل مركز التلقي من النص إلى النص الموازي، وهو الأمر الذي عدته الدراسات النقدية الحديثة مفتاحًا مهمًا في دراسة النصوص المغلقة؛ حيث تعد تلك العتبات نصًّا صادمًا للمتلقي، له وميض التعريف بما يمكن أن تنطوي عليه مجاهل النص».

## 1 -العنوان بوصفه بنية تواصلية :

وفي هذه الدراسة سنحاول مقاربة العنوان من خلال تعالقاته مع العتبات الأخرى المحيطة بالمتن، لأن: «العنوان علامة لغوية، تتموقع في واجهة النص، لتؤدي مجموعة وظائف تخص أنطولوجية النص، ومحتواه وتداوليته في إطار سوسيو ثقافي خاصاً بالمكتوب، وبناء على ذلك فالعنوان من حيث هو تسمية للنص وتعريف به وكشف له، يغدو علامة سيميائية، تمارس التدليل، وتتموقع على الحد الفاصل بين النص والعالم؛ ليصبح نقطة التقاطع الإستراتيجية التي يعبر منها النص إلى العالم، والعالم إلى النص، لتنتفي الحدود الفاصلة بينهما ويجتاح كل منهما الآخر».

## 1-2 العنوان والغلاف:

إن موقع الغلاف والمكان الذي يحتله كعتبة قرائية في مواجهة القارئ وما يثيره من تأويلات - كعتبة أولى- يحدد أهميته لدى الباحث والمتلقي على حد سواء.

غلاف الديوان مساحة بيضاء كتب في أعلاها دار النشر واسم الشاعر وفي الوسط تقريباً العنوان بلون أخضر وتحته الاسم التجنيسي للعمل الأدبي (شعر) وفي المستوى نفسه تبرز الصورة الشخصية للشاعر مبتسماً مع خلفية رمادية، ولأن الصورة علامة أيقونية تعمل على نقل الأفكار والدلالات من لغة إلى لغة أخرى فهي تحكي المعنى بلغة الشكل: الظلال والخطوط ... ومنه يمكن اعتبار الصورة بأنها رسالة بصرية تحمل خطاباً يرتبط بالعنوان، ومن خلال التأويل نصل إلى أن البياض هو الفرح الذي يملأ دنيا الشاعر وهو كذلك المحيطون به الذين يجملون حياته، وما الحزن إلا لحظات عابرة تنغّص عليه سعادته وعلى الرغم من ذلك فالشاعر متفائل، لأن اللون الأخضر الذي اختاره للعنوان دلالة على الخصب والنماء، وما الابتسامة المرتسمة على وجهه إلا دليل على هذا التفاؤل رغم قتامة الحزن التي يعكسها اللون الرمادي المحيط بإطار الصورة، وأمام ضبابية المشهد المحيط به - وعلى الرغم من ما قد يخبئ له المستقبل - يقف مبتسماً في وجه الشدائد، ولعل دلالة الصورة الشخصية التي يؤازرها اسمه المنقوش في أعلى الصفحة إلا دليلاً على الاعتزاز والاعتداد بالنفس ومواجهة العالم، فالوجه المقابل في عرف التشكيليين يساوي الجرأة كأنما الشاعر يقول: هاأنذا.

## 1--2 العنوان والإهداء:

يشكل الإهداء عتبة أخرى من عتبات الكتابة التي توجّه للقراءة بغية الوصول إلى مكامن الانفعال في النص الأدبي، بما له من وظائف سيميائية ودلالية وتداولية، يمارس من خلالها سلطة الإغواء والتحفيز على القارئ، فيوجه ويرسم آفاق توقعاته للمعنى الذي سيطالعه، وقد خص الشاعر عائلته بالإهداء دون غيرهم: ابنه محمد والدته ووالده المتوفى، وأخيراً زوجته ناهد، فهم مصدر سعادته وفرحه في هذه الدنيا المليئة بالأحزان، ولأن الأسرة مصدر فرح وأمان للإنسان يلوذ بها إذا ما ألم به خطب، فالشاعر يوظف ذلك من خلال تعلقه بالعنوان (الحزن ينسى أحيانا) فهو ينسى الحزن ويتناساه بين أحضان أسرته، وحتى روح والده الذي فارقه تصنع فرحته بما انطبع في ذاكرته من لحظات سعيدة، وخير دليل على ذلك مخاطبته له كأنما هو شاخص أمامه لم يمت «امتدادك لم يزل قائما» نعم لا يمكن أن ينفذ الحزن للحظات الجميلة التي ارتسمت في مخيلته، وتلقي بظلالها على حياته فتنجلي الأحزان عنه.

### 3 - النص-العنوان أوالعنوان(الموسع)

كثيراً ما ينحى المبدعون إلى عنونة أعمالهم الأدبية من خلال ترشيح قصيدة من الديوان الشعري، أو قصة من المجموعة القصصية ليكون عنوانها على غلاف المجموعة، ولا يكون ذلك اعتباطاً أو محض مصادفة بقدر ما هو اختيار واع نابع من أن النص يمثل روح المجموعة ككل، بل إن النص المرشح هو الديوان، فإن كانت القصيدة العمودية تنبني على بيت هو بيت القصيد وما عداه يدوره حوله شرحاً أو تفسيراً أو تفصيلاً فإن القصيدة أو القصة هي بيت القصيد إن جاز التعبير في العمل الأدبي، ومن هنا: «بوسعنا الحديث عمّا يمكن تسميته بالنص – العنوان، أي البنية النصية الكلية التي تصلح لعنونة مجموعة كبيرة من النصوص، نظراً للترابط الدلالي بينهما».

والشاعر إبراهيم موسى النحاس لم يخرج عن هذا المنحى فقد اختار قصيدة عنواناً لديوانه، مما يجعلنا نركز على هذه الخصيصة في عمله لاستكشاف إستراتيجيات الكتابة عنده، من خلال ما تقوم به القصيدة/العنوان بتحويل الديوان إلى بنيات صغيرة أو «بنيات نصية موسعة لتدل عليها وتوجه مضامينها باختزال» يجعلها تتآلف وتتعاضد مع بعضها على مستوى الخطاب، لتشكل في النهاية المتن الشعري في الديوان.

من المعلوم أن لغة العنوان غير مشروطة بأي شرط سابق من حيث التركيب، ومن ثم فإن إمكانات التركيب التي تقدمها اللغة كافة قابلة لتشكيل العنوان دون أية قيود أو حدود، فيكون كلمة، كما يمكن أن يكون جملة فعلية أو اسمية، وأيضاً أكثر من جملة بل تنفتح أحياناً لتكون نصاً – قصيدة– تقوم مقام العنوان في وظائفه، وتنطلق التأويلات «من المكون البنيوي والتكوين الجملي والدلالي لهذا النص أو من معانيه الظاهرة والخفية».

إن عنوان القصيدة المركزية والمحورية في الديوان (الحزن ينسى أحيانا) يؤسس لشبكة من العلاقات من خلال اختيار الشاعر له: عنوانا للقسم الأول من الديوان أولاً ثم عنوانا للديوان ككل فـ«أي ذنب جناه الحزن» على الشاعر حتى يعقد معه قراناً أبدياً ما يكاد يتخلص منه حتى يعود ليغزو فؤاده؟

«كان يكفي مشهداً كهذا/أن ينتزع بسمة وحيدة/من شفاه/عقدت قرانا أبديا مع الحزن». لكنه حزن لم يتعرف بعد إلى ذاته المقاومة التي لا تستسلم، فتقف شامخة أمام أمواج الحزن التي تضرب شواطئه

«لم يعرفني الحزن جيدا/ربما لهذا/يشاكسني من حين لآخر»

إنه حزن غير ملامحه فأنكر وجهه، وأنكر تجاعيده التي تركتها آثار الزمن عليه فتصفعه كل يوم أما المرآة:

«نفسه ذلك الوجه الروتيني/لم يرحمني مرة/من صفعي بالمرآة في الصباح»

هي مرآة الذات التي لا ترضى بواقعها فتثور عليه وتخلع رداء الخواء، وتنسف كل الحواجز لترتاح ،ثم تقف موقف الضاحك من هزلية الحياة

«ماذا/لو خلعت الخواء/وتركت لأعضائي حريتها»

لم يكن يحتاج وقتاً ليعرف ذلك، فهو يعلمه أصلا منذ لامس الخراب وحتى دون أن يفكر في نفسه، فالحزن جزء من حياته، بل هو كل حياته

«لم أكن أحتاج وقتا/لأعرف أن الجسد وحده/لا يصلح مرآة لذواتنا»

«لم أكن أحتاج وقتا/لألمس بيدي هاتين خرابي»

ولأنه لا يعرف الاستسلام كـ «هديل الحمام لا يعرف الاستسلام»، فصلابته اكتسبها من كمية الخيبات التي تجرعها «متناسياً عن عمد كمية الصلابة التي تجرعتها» الخيبات في الأصدقاء الذين، ولكن ما الخيانة التي يقصدها الشاعر؟ أهي تركهم له وحيداً في مواجهة الحياة ورحليهم؟ أم هو الغدر؟ فحتى الأماكن تخون وتنسى روادها لأنها تكتسب عاداتهم، فخواء الأمكنة من الأصدقاء لهو أشد وقعا عليه حين تفقد دفئها في غيابهم وتتنكر له بعدهم:

«كان يعلم/أن المقاهي مخادعة/الكراسي/لا تحتفظ دائما بدفء وارديها»

فتصبح الصداقة مرادفاً للخيانة حين: «يقيس ابتسامته بحجم ما يدفع له»

فيتوق لرسم خطاه دون أدنى بصمة أو حتى خيانة صديق يعكر ساعات الفرح التي يسترقها «دون أدنى بصمة / أو حتى / خيانة صديق»

هو الحزن الذي تضافرت فيه خيانة الأصدقاء، وخيانة الأمكنة، ولأجل تجاوزها يقنع نفسه بالتناسي: «وسأقنع نفسي/أن المكان تخلى عن خيانته»

وحتى الوالد الذي غيبه الثرى أسهم في هذا الحزن الذي ينهش فؤاده وقد خانته الصحة وتوالت عليه نوبات الصرع تزيد من مأساته، إنه الوالد الذي لم يعد إلا مجرد ذكرى تمسح دمعة الحزن من عين طفل يغالب الحياة، وقد أحاط الأغراب بمائدة والده فلا تصلها يده، كأنما حالوا بينهما.

«كأن أتذكر قلب طفل من نسيج الخصوبة/تجاعيد عقل أبي/واجتماع أغراب حول مائدة/يفترشون التوحد»

وكيف وجد الحزن طريقه إلى قلبه الملاك، قلب الطفل الذي لا زال يلهو بمفردات العالم ويحلم بقيادة العالم وبركوب الموج، يسبق النهايات يؤثثها بآماله: «عجيب أمر هذا الـ –أنا–/ملائكة تتطهر من دمائي»

فيباغته الصرع قبل اكتمال الحلم يسرق منه طفولته:

«كنت أناقش الصداع/أغفو قليلا/فأبصر رجلا»

فتعود صورة أبيه ترتسم أمام ناظريه كقطع سكر لم يشبع من طعمها حين باغته الموت كأنما انتزع صورته من الجدار لتحل مكانها صورة الشقاوة والفراغ الرهيب الذي طبع حياته بعد فراق والده: «قطع من السكر / أسميناها ذكريات/ألبسناها تيجانا مرصعة»

إذن هما حياتان حياة «البراءة / التي غرستها في سجادة الصلاة» وحياة الشقاوة والفراغ «طفولة خالية من ضجيج الملاهي» فخلّفت جروحاً غائرة في نفسه استحالت أحزانا أبدية لا فكاك منها: «أذكر/أن دمعة تفر كاليمام/كلما سمع/(قد أفلح المؤمنون)/و(إيمان)/وما حاولت مرة اختراق الستائر/ أو تجولت في شوارع القلب/ أو تصفحت شظايا الذاكرة»

ذكرى والده تطارده حينا وتهادنه أحياناً وطيف (إيمان) الحبيبة المفترضة فوحدها التي لم تنس أن الصيد هوايته الوحيدة فهل ارتباط الصيد بالحبيبة هو الحب ذاته وأم مصارعة هذا الحب وعدم الاستسلام لجبروته؟

«الحب بيني وبينها مثل قلمي/ أعرف أنه تشبيه مجنون»

هو حب يلازمه فيدخل السرور عليه حيناً، وكثيراً ما يؤرقه ويسهد جفونه كما القلم تماماً يسايره حيناً ويعانده أحياناً، لكنه يشكل آماله العريضة التي تدغدغ مشاعره، فيغدو والحبيبة وقد غُرسا «تمثالان جميلان ببسمات عريضة» في مساحة الأمل ونافذة الحياة ليعبرا طريق المستقبل: «أدرك/أن الضياء داخله/لم يعد وحده كافيا لعبور الطريق»

طيف الحبيبة يشع نوراً يهديه سبله وينير دروبه التي لن يجتازها ما لم يجرب مرارة الهجر وقسوة الوحدة وبرد العزلة: «ربما لم أحدثها/عن صعوبة تضحيتي لمجرد التجريب/وإني لا أكره الاكتئاب/حيث لم أعرفه /فقط/ سعادة تفجؤني»

كم هو مؤلم أن نعايش الاكتئاب حتى يصبح مألوفاً، وحتى لحظات الحب التي نعيشها تفقد لذتها فتلتصق بيومياتنا المبللة بالقلق والروتين والكآبة «جعلت قلبي –كأحد أوانيها –صالحاً للغسيل»، فمن قال إن الحياة تصفو لمحب؟ فالصداقة سيّجتها الخيانة، والأبوة سلبتها الموت، والحبيبة أستحوذ عليها العادي والروتين مما يجعل السؤال مشروعاً: «من قال إن أهل الأعراف محظوظون؟»

### خاتمة:

إن العنونة عند الشاعر إبراهيم موسى النحاس اختيار واع نابع من إستراتيجية يتبعها الشاعر من خلال تعالقات عنوانه بالعتبات المحيطة به من جهة ومن خلال الدلالات التي تتولد من بنيته المصغرة بوصفه كياناً مستقلاً يقوم بوظائفه الجمالية والسيميائية، بالإضافة إلى ترشيحه للقصيدة / العنوان كبينية موسعة تتضمن وتشتمل دلالات المتن ككل، فتكون بذلك عنواناً أطول للمتن، مما يدفعنا للقول: إنه ليس بالضرورة أن يكون العنوان مكثفاً ومختزلاً يتصف بالاقتصاد اللغوي دائماً، بل يمكن أن يكون أكثر من جملة، فيتسع ليصبح قصيدة تعبر عن روح الديوان ومضامينه المختزلة فيها.



# خورخي بورخيس: عالمي هو المكتبة[1]



ترجمة : د.سعيد بوخليط
مراكش - المغرب

خورخي لوي بورخيس (1899–1986)، ابن محامي أرجنتيني، صار فترة سنوات العشرينيات، أحد الوجوه البارزة للحياة الأدبية في بيونس آيرس، فأصدر (دراسات ونقد أدبي). مع نهاية سنوات 1930، شرع في تأليف الحكايات التي منحته بعد الحرب شهرة عالمية. سنة1955، فقد بصره، لكنه مع ذلك سيواصل الكتابة عبر وسيلة الإملاء، حتى وفاته عن سن السادسة والثمانين.

اضطر بورخيس، كي يكسب قوته، إلى الاشتغال منذ سنة 1938، كمستخدم في مكتبة توجد في ضاحية بيونس آيرس، فبورخيس الشاعر والناقد المعروف، شرع لحظتها في كتابة مشروع قصصه المتخيلة مثل (العمل النافذ لكتبي بئيس).

كتابه (قصص خيالية) الصادر سنة 1944 في الأرجنتين، هو مؤلف ضخم، يضم أربع عشر قصة، أقام ديكوراً عجيباً، يندرج داخله كل عمل بورخيس. عالم ذهني، زاخر بالإحالات الأدبية والعوالم الطوباوية الغريبة جداً وكذا التأملات الميتافيزيقية والمتاهية.

يصف بورخيس عالماً، يشكله عدد لانهائي من الخزانات الزاخرة بالكتب المدهشة، والأمر في العمق، ليس إلا كاريكاتورية لرؤيته للعالم.

إذن، لتسليط الضوء على جانب من مسار الكاتب العالمي، نقدم هذا الحوار مع جون بيير بيرنيس، أستاذ الأدب الأسباني في جامعة السوربون. كان قد التقى بورخيس سنة 1975، في مدينة بيونس آيرس. أشرف على نشر الأعمال الكاملة لبورخيس التي دخلت مكتبة لابلياد أو الخالدين. كما أصدر مؤلفاً تحت عنوان: خورخي بورخيس، الحياة بدأت (2010). أما الجزء الأول عن السيرة الذاتية لبورخيس، فقد نشره عام (2013).

يعتبر بيير بيرنيس، أحد آخري الأصدقاء الحميمين لبورخيس، لذلك فشهادته في هذا السياق، تشكل أفضل إحاطة بالمتخيل المتميز جداً للكاتب الأرجنتيني، المتشبع حد الدوار بالمرجعيات الأدبية. عالم متاهي، سيكشف عنه مؤلفه (قصص خيالية) ،أشهر منجز قصصي في القرن العشرين.

س1 – لقد أعاد بورخيس، بصحبتكم قراءة كل متنه، في أثناء رقاده بالمستشفى في جنيف، قصد تحضير الطبعة النهائية إلى مكتبة لابلياد، غير أنه لم يكن منجذبا جدا نحو نصه قصص خيالية؟

ج- ولا باقي أعماله الأخرى، فقبل وفاته بمدة قليلة، انتهى به المطاف كي يهمس إلي: «أظن بأني لم أكتب إلا عملين هما: تقرير برودي (1970)، ثم كتاب الرمل(1975)، أما ما تبقى فهي مجرد مسودات ينبغي نسيانها». معتبراً كل عمله مثل تمحيص تدريجي، في كتاباته الأخيرة، لم يستعمل إلا معجماً محدوداً جداً. أعتقد في العمق، قد توخى اختزال جميع كتبه، في جملة واحدة ،لكن أن يرى كل مؤلفاته، موضوعة على رفوف مكتبة لابلياد، فلم يذهب تفكيره بتاتاً نحو هذا السعي! غير، أنه أخيراً وجد نفسه «متجاوراً مع أصدقائه، كما كرر القول، يعني بجانب دانتي وشكسبير وسيرفانتس ومونتين».

س 2 – مع ذلك فكتابه قصص خيالية، هو من منحه شهرة عالمية...

ج-نعم، لكنه لم يكن راغباً في هذا العنوان. لاسيما أنه من اقتراح روجي كيوا Roger Caillois، الذي أشرف على إصدار هذا العمل في الأرجنتين سنة 1944، قبل ترجمته إلى الفرنسية سنة 1955، ضمن منشورات غاليمار، فكان ذلك بداية الاعتراف به عالمياً. بورخيس، الذي التقى كيوا في الأرجنتين مدة الحرب، سيعده الأخير مثل (مكتشفه)، لكنه أيضاً يضمر له مشاعر الكره، فقد اتصفت علاقتهما بالندية، منذ تعارفهما. أيضا، يعتقد بورخيس بأن عنوان (قصص خيالية)، عام وفضفاض جداً، وكان يفضل عوضه زخارف، وكان على استعداد إن اقتضى الأمر، كي يقبل عنوان (خيالات وزخارف). لكنه لم ينجح في إقناعهم بذلك.

س 3 – إنه عنوان سطحي شيئاً ما، قياساً لعمل جد مدهش، فأكثر من كونها مجرد تخيل، تعد تلك القصص المقتضبة تجليات فكر في غاية التعقيد والأصالة، بحيث أبدع بورخيس جنساً خاصاً به، فكيف نعرفه؟

ج- نتكلم غالباً عن حكايات (عجيبة)، لكن هذا يبدو لي بالتأكيد مختزلاً جداً فحتى نهاية أعوام الثلاثينيات، لم يكتب بورخيس غير القصيدة والنقد الأدبي ،سنة 1938، عاش صدمة على واجهتين: توفي والده، وقد كان هائماً به، ثم من ناحية ثانية، كاد بورخيس وقتها أن يفقد حياته، بعد تعفن دمه نتيجة حادث متهور على سلم، أدى إلى جلف فروة رأسه، عندما استفاق من الغيبوبة، قال مع نفسه بأنه سيحاول مواصلة عمل أبيه الذي كتب حكايات صغيرة شرقية، هكذا كتب (بيير مينار كاتب كيشوت) Quichotte، ثم النصوص الأخرى التي شكلت مؤلفه (قصص خيالية)، لقد كان هذا منعطفا جوهرياً في إنتاجه الأدبي، لكن بالنسبة إليه فهي مجرد نقطة انطلاق.

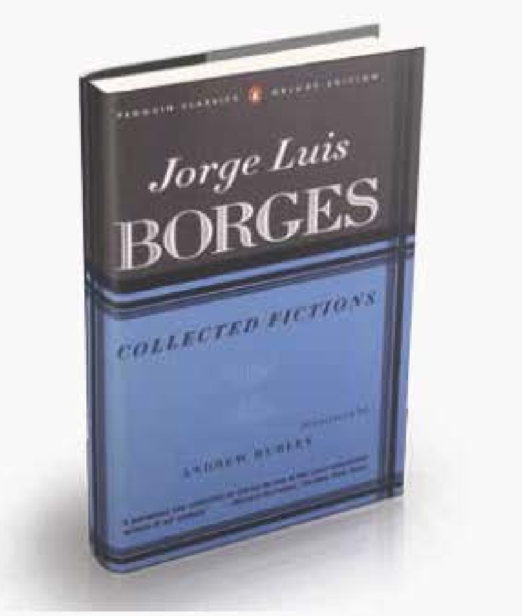

بيير بيرنيس

س 4 – الذي ميز سرديات بورخيس، فيما وراء إطارها الشرقي غالباً، بل الغريب في جميع الأحوال، يكمن في إحالاته الأدبية المتواصلة، فقد كان بورخيس بحق، قارئاً كبيراً...

ج-ينبغي العلم، أنه حتى خلال حواراته العادية، لا يتوقف بورخيس عن الاستشهاد بشكل شبه حصري، بمرجعيات أدبية مفعمة بالرموز في الغالب، مع أصدقائه الأكثر حميمية، كالكاتب (بيو كاساريز) وزوجته (سيلفينا أوكامبو)، اللذين يلتقيهما كل يوم تقريباً، فمارس معهما بلا توقف هاته اللعبة: أحدهما ينشد مقطعاً شعرياً، وعلى الآخرين إتمام القصيدة، لم يكن بورخيس، يعيش إلا وسط الكتب، لقد قضى شبابه محبوساً بين زوايا خزانة كتب لأبيه، ثم بالتأكيد نعيد التذكير بأنه اشتغل عاملاً في مكتبة صغيرة متواجدة في ضاحية المدينة، بعد وفاة أبيه لدواعي الحاجة المالية، بحيث قرأ لحظتها من بين أشياء أخرى، نص الكوميديا الإلهية، تمتع بورخيس، بذاكرة استثنائية، فمختلف ما يقرؤه يحتفظ به في رأسه، ليس فقط نصوص الأسبانية بل الإنجليزية أيضاً، اللغة التي اطلع بواسطتها على أشياء كثيرة، أستحضر في هذا السياق، أنه طبق على نفس اللعبة التي أشرت إليها: كان يستشهد ببعض المقاطع، متعمداً أن يحدث فيها تغيرات صغيرة، مترقباً ما إذا كنت سأنتبه للأمر أم لا، بمعنى كان يختبرني! وحينما، شرع في الكتابة، فقد صارت طبعاً الكتب عناصره المفضلة.

س 5 – حتى لحظة إبداعه للمفهوم في ديباجة الجزء الأول من كتابه قصص خيالية، سيكتب بورخيس «هو هذيان شاق ومنهك، أن نؤلف كتبا ضخمة... لقد فضلت تدوين ملاحظات على كتب متخيلة، هكذا سيبدع إن صح القول، مفهومه عن (الغريب الأدبي)، والذي سيبلغ أوجه مع نص (مكتبة بابل) الأكثر رمزية ربما ضمن باقي حكايات الكتاب...

ج-لقد فضل بورخيس القول عن نفسه بأنه هو ذاته (كتبي بابل)، لقد وصفت حكايته هاته، عالما متفرداً تشكله مكتبات لانهائية زاخرة بمؤلفات عجيبة، لكن ليس




هذا في العمق سوى كاريكاتورية نظرته إلى الكون الذي لا يتجلى بالنسبة إليه سوى عبر الكتب، عندما فقد بصره سنوات الخمسينيات، تكفلت أمه وكذا أقاربه، بوظيفة أن يقرؤوا له، ومن ثم لم يشعر بأي صيغة من صيغ الانزواء، ولم ينعكس عليه الوضع سلباً أو يشعر بثقله، لذلك يقول: «المكتبة هي العالم، إنه عالمه في جميع الأحوال.

س 6 – مع ذلك لا يعد كتابته سوى (إعادة كتابة)؟

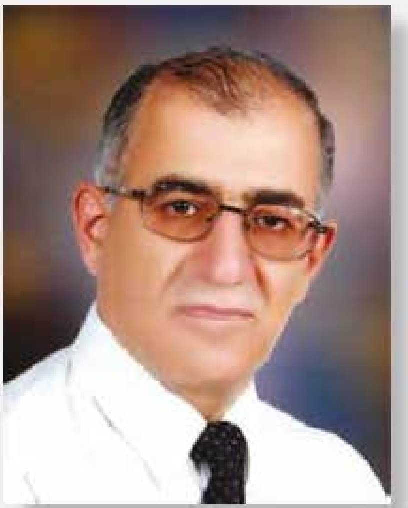
ج-التأويل بسيط، فبورخيس يعد بأن كل شيء قد كتب آنفاً في التوراة، الذي قرأه في سن صغير جداً، إذن، منذئذ لم يعد كل الأدب بالنسبة إليه سوى كتابة ثانية، في عمله قصص خيالية، فإن حكايته عن (بيير مينار)، الكاتب المبدع الذي أعاد تأليف (دون كيشوت) خلال بداية القرن العشرين، تعد حكاية عن ذاته، عندما كان طفلاً، فقد انجذب نحو سيرفانتيس Cervantès، وقد قرأه بداية بالإنجليزية.

س 7 – لكن ربما الأكثر إثارة، يحيل على مفهومه للأدب، باعتباره صياغة ثانية، يهمل كل مفهوم كرونولوجي، قصصه، هي مجرد مفارقات تاريخية، وكتابة مغايرة للتاريخ، هي رجات للتاريخ الأدبي تحدث الدوار، ألم يكن الأمر، مثل لعبة؟

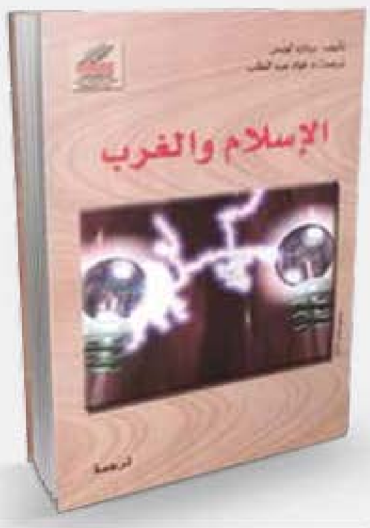
ج- بالتأكيد، لم يحب بورخيس فقط اللعب مع القارئ، لكنه أخبرني بجدية واضحة، أن الأبيات الأخيرة من الكتاب المقدس(سفر الجامعة)، ليس بحسبه سوى إعادة صياغة لبعض الأبيات الشعرية عند مالارميه، لا يدخل الزمن قط بين طيات الاعتبار في رؤيته الأدبية، التي لم تكن خاضعة لشيء من العقلانية، إنه يشتغل أولاً وفق حس التداعي، ومراسلات أدبية مدهشة غالباً، نظن بأن جميع الكتب كانت في العمق مرتبطة الواحدة بالأخرى، لذلك قال لي قبل موته «لم أكتب غير سطور معدودة، حول هذا الكتاب الكبير الذي يكتب ثانية من طرف الجميع».

1-Le nouvel observateur;hors-série; juin-juillet 2013; pp 70-71.

# قراءة في كتاب (الإسلام والغرب)



د . وليد السراقبي
كلية الآداب الثانية – حماة – سوريا




الكتاب: ( الإسلام والغرب )
المؤلف: المستشرق برنارد لويس
الناشر: الطبعة الإنكليزية الأولى جامعة أكسفورد سنة 1993.
الناشر: ( الطبعة العربية) اتحاد الكتاب العرب في دمشق.
تاريخ النشر: 2007.
عدد الصفحات: 271 صفحة - القطع المتوسط.

إذا ذُكر الاستشراق المعاصر لمع في أُفقه اسم برنارد لويس، وانداحت أمام الدارس قائمة من المؤلَّفات التي صنَّفها هذا المستشرق، وهي ناضحة بجوانب معرفية وثقافية مترامية الأطراف. كان من آخرها كتابه الذي يحمل عنوان ( الإسلام والغرب)، و(برنارد لويس) أحد مستشرقي العالم الأنجلو أمريكي. تعلَّم أصول الاستشراق في (كلية الدراسات الشرقية والإفريقية) في جامعة لندن، ثم شرع في التعليم فيها، وفي جامعة باريس من بعد. وكان أحد تلاميذ لويس ماسينيون ( ت 1963م).

انضمَّ – من بعد – إلى القوات البريطانية التي أعارته إلى وزارة الخارجية، فعاش تلاقح الدراسات الشرقية والسياسة، ثم انكفأ إلى التدريس في جامعة لندن وغدا رئيساً لقسم تاريخ الشرق الأدنى فيما بين الأعوام (1957 – 1974). ثم انتقل إلى الجامعات الأمريكية أستاذاً زائراً فيما بين (1949 – 1974). وفي عام 1974 انتقل إلى أمريكا مهاجراً سنة 1974م، إلى أن أحيل على التقاعد سنة 1988م، وخلال هذا العمر المديد أشرف (برنارد لويس) على جملة من الأطاريح الجامعيَّة لتلامذة كان يتخيَّرهم بخبرته الواسعة، وكان كثير منهم من العرب، وكان نتاجه العلميّ موضع اهتمام كبير بين مفكري العرب والمسلمين، ونُقل كثير منه إلى اللغات العربية والفارسية والتركية وغيرها، و«بعد انتقاله إلى الولايات المتَّحدة عمل مرات عديدة مستشاراً للجان الشؤون الخارجية بالكونغرس الأمريكي، إذ أصبح عندئذ أحد أهم كبار المتخصصين والمعلقين في شؤون الشرق الأوسط .....» و«ما زال – بعد تقاعده – أستاذاً فخرياً في جامعة برنستون يشرف على عدَّة رسائل دكتوراه في موضوعات عربية وإسلامية مختلفة».

أثارت مؤلفاته وأطاريحه غير ما قليل من النقاش في الأوساط العلمية الإنكليزية والعربية، فكتب عنه غيرما واحد، من أهمهم: عبد اللطيف الطيباوي، وادوارد سعيد، وسمير عبد ربه، وغيرهم، وكتب الباحث ( مازن مطبَّقاني) كتاباً جعل فيه كتابات (برنارد لويس) ميداناً تطبيقياً في دراسة الاستشراق وعلاقته بالاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، وقد صدر هذا الكتاب في المملكة العربية السعودية، وهو من الكتب القيِّمة التي تُقْرأ بحق.

وإذا كان بعض المؤلفين أو المترجمين يرفعون عقائرهم مفاخرين أنهم ألفوا كذا وكذا كتاباً، أو ترجموا مثل ذلك = فإن ما خلَّفه (برنارد لويس) – عبر عمره المديد – يعكس عمق التجربة الفكرية، واتساع الثقافة، وعمق الأفكار التي يطرحها، وخير دليل على ذلك ما أثارته من مناقشات وردود أفعال في غير ما صُقْع، كما ذكرنا من قبل، فمن آثار هذا الرجل على سبيل التمثيل لا الحصر:

1. أصول الإسماعيلية: ترجمة خليل أحمد جلو وجاسم أحمد الرجب، بغداد، مكتبة المثنى، 1957م.
2. إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، ترجمة سيد رضوان علي، جدة، الدار السعودية للنشر، 1982م.
3. اللغة السياسية في الإسلام: ترجمة محمد علي المقلد، بيروت، معهد الإنماء العربي، 1991م.

إلى جانب جملة عدد من المقالات التي نشرت في غير ما وعاء من أوعية البشر.

أما مترجم الكتاب فهو: الدكتور فؤاد عبد المطلب، يحمل شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة إسكس 1989م، وعمل باحثاً زائراً في جامعة لوبرلين– أوهايو الأمريكية في عامي 1993 / 1994، وأستاذ الأدب الإنكليزي والترجمة في جامعات حلب، ولبنان، وجامعة الملك عبد العزيز، وكلية المعلمين في الرياض، وهو الآن أستاذ الأدب الإنكليزي في جامعة جرش في المملكة الأردنية الهاشمية، كانت له إسهامات كثيرة في ترجمة كثير من الأعمال عن اللغة الإنكليزية كان من آخرها هذا الكتاب الذي نعرض له في هذه الصفحات، وكتاب ( الأدب المقارن ) لـ ( هنري) غيفورد، وقد صدر عن اتحاد الكتاب العرب سنة 2013م وهو الكتاب الخامس في سلسلة الترجمة التي يصدرها الاتحاد، وكتاب ( الغرب والإسلام ) لـ ( أنتوني بلاك ) وقد صدر برقم (394) في سلسلة ( عالم المعرفة) الكويتية سنة 2013م، هذا إلى جانب عدد من الأبحاث التي نشرت منجَّمة في مجلات عدَّة.

3 - الكتاب:

صدر هذا الكتاب عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق في طبعته الأولى سنة 2007م، وشغل إحدى وسبعين ومئتي صفحة من القطع المتوسِّط. والكتاب صدر في طبعته الإنكليزية الأولى عن جامعة أكسفور سنة 1993م.

أما معالم الهيكلية العامة للكتاب ففي مقدورنا أن نوزعها على مقدمتين وثلاثة أقسام على النحو الآتي:

أ- مقدمة المترجم. (ص 5 – 17).

ب- استهلال المؤلف ( ص 17 – 21 ).

ت- القسم الأول: ( الصّدامات ). ( ص 21 – 97 ).

ث- القسم الثاني: (دراسات ومفهومات) (ص 97 – 181 ).

ج- القسم الثالث: ( الاستجابة وردّ الفعل الإسلامي) (ص 197 – 258 ).

فرش المترجم في المقدّمة اهتمام الغرب الأوربي والأمريكي بدراسة الإسلام في هذه الأيام، بهدف فهم «ظاهرة الإسلام» وسبل مواجهتها محليّاً اتكاء على وكلاء سياسيين وفكريين، وعالمياً من خلال امتطاء صهوة مراكز البحوث التي تقوم على سواعد غربية مسلمة أو عربية، وتوظيف الإمكانات العلمية والبحثية والبشرية في سبيل ذلك . فالعلاقة بين الشرق والغرب ليست وليدة الأيام أو السنوات الراهنة، ولكنها علاقة تعود إلى «بدايات تأثير حضارات الشرق القديم في التطوّر الحضاري أنساني، وتأثير المنظومة الحضارية العربية القديمة، في العراق وسوريا ومصر وشبه الجزيرة وشمال إفريقيا ... في بلاد اليونان تحديداً وفي الغرب عموماً».

فالكتاب يعكس اهتمام برنارد لويس في دراسة العلاقات بين حضارتين يسمّي الأولى الإسلامية، ويسمّي الثانية بالمسيحية، أو الأوربية، أو الغربية، وذلك أن «علاقات الإسلام لا يمكن مزاوجتها أو دراستها منطقياً مع القارة الأوربية أو الغرب، بل مع الدين المسيحي أو العالم المسيحي، الذي هو في الوقت نفسه مفهوم قروسطي، أخذ يضعف تدريجياً بدءاً من الربع الأخير للقرن الثامن عشر عبر تخلّي الأمم والثقافات الأوربية عن الصفة الدينية المسيحية».

عقد المؤلف (برنارد لويس) استهلاله على دراسة هذه العلاقة بين الإسلام والمسيحية منذ بدء ظهور الإسلام، إذ إن «الكتاب والتقاليد الإسلامية، والحضارة الشاملة التي نشأت تحت رعايتها، تثبتُ، وبألف طريقة، الصّلات العميقة التي تربط الإسلام بالمسيحيّة وبأسلافها المشتركين من اليهود والهيلينين والشرق أوسطيين» . وذهب إلى أن الديانتين الإسلامية والمسيحية ديانتان شقيقتان تتقاسمان موروثاً عظيماً، وتتشاطران السيادة، ولكنّهما في الغالب تتنازعانها، فكان ذلك مفضياً إلى نزاعات وصراعات ابتدأت بما يسميها برنارد لويس بالحروب المقدّسة الأولى ، وما عرف في التاريخ العربي الإسلامي بالحروب الصليبية (حروب الفرنجة) و«في هذا الصراع الطويل الأمد الذي ينتهي – للأسف – افترقت هاتان الحضارتان بما تشابهتا به أكثر مما اختلفتا فيه».

ثم يدلف برنارد لويس إلى تحديد هدف الكتاب، وهو دراسة العلاقة بين هاتين الحضارتين: المعروفة إحداهما بالإسلامية، والأخرى بالغربية، لينتقل – من بعد – إلى بَسْط بعض مضامين الأقسام الثلاثة التي تمحور حولها الكتاب. مع الإشارة إلى تعهُّد برنارد لويس مباحث الكتاب عامة بمراجعته إياها في سبيل تخليّها من الأخطاء والتداخلات، وفي سبيل تحقيق التناغم والاتّساق فيما بينها آخذاً في الحسبان آخر ما وصلت إليه أدبيات هذه العلامة بين الإسلام والغرب. وختم ذلك بما عبَّر به عن خَلّة الوفاء والامتنان لكل من ساعد في إعداد هذا الكتاب وطباعته ونشره، سواء أكانوا من ناشري الكتب والصحف ومحرريها، أم من أولئك الذين أذنوا له بإعادة نشرها بعد أن نشرت منجَّمة في صحفهم، أو الذين قرؤوا أجزاء من مخطوطة الكتاب، وعلّقوا عليها تعاليق أخذ بها وأفاد منها، مُنْهياً ذلك بعدم تحميله أحداً منهم وِزْرَ ما قد يتناثر في هذه الكتاب من أخطاء، فـ «ليكن في النهاية واضحاً أن أيَّ أخطاء متبقيّة هي في جلها أخطائي» . أمّا القسم فنجد فيه: ما يأتي:

أ- أوروبا الإسلام.

ب- الانعكاسات الشرعية والتاريخية على وضع السكان المسلمين تحت حكم غير المسلمين.

وقد أجرى برناردو لويس في هذا القسم مسحاً تاريخياً للتفاعل بين الحضارتين الإسلامية والغربية في السلم، ومسحاً آخر تناول فيه التفاعل التجاري بينهما أيضاً. وناقش كذلك قضية نشوء أقليات مسلمة كبيرة في الغرب أوجدتها الهجرة قبل كل شيء. ثم ناقش أثر وجود هذه الأقليات، إذ إنها تشكل مشكلة لغالبية المجتمعات الأوربية المضيفة، ونظر إلى المسألة من خلال وجهة نظر إسلامية لا غربية وفي سياق تاريخي إسلامي. فعلى مستوى التسمية «أبدى الأوربيون في أجزاء متعددة، من القارّة تردّداً غريباً في تسمية المسلمين بأيّ اسم يحمل مدلولاً دينياً، مفضلين نعتهم بأسماء عرقية، وهادفين بوضوح من خلال هذا إلى إضعاف قيمتهم وأهميتهم، وتقليص دورهم في نطاق محلي أو حتّى عشائري، وقد اعتاد الأوربيون في أوقات مختلفة وأماكن مختلفة، أن يسمّوا المسلمين بالعرب (saracens) = السراسين، أو المغاربة (Moors) أو الأتراك (Turks)، أو التتار (Tatar) تبعاً للشعوب التي صادفوها» . وكان مصطلح «التركي» أظهر هذه الألقاب، حتّى إنّ من يعتنق الإسلام من الأوربيين كان يوصف بأنه أصبح تركياً .

وهذا يعكس إحجاماً متكرِّراً عن معرفة طبيعة الإسلام وحقيقته بوصفه ظاهرة مستقلة ومختلفة وقائمة في حدّ ذاتها، وهو إحجام يتكرّر منذ العصور الوسطى ولا يزال يكرّر، وقد وجّه برنارد لويس إلى أوربا وإلى الغرب هذا الإحجام. فهذه التسميات التي أطلقها الأوربيون على المسلمين ( الساراسين– الأتراك ........) كلها تسميات عرقية، ولفظ (الساراسين) لا أصل له، ولكنه يحمل معنى عرّقياً، وهو موجود قبل المسيحية والإسلام . فأنشودة (رولان) تصوّر (الساراسين = المسلمين) عبَّاداً لثلاثة أشخاص، أولهما: محمد ﷺ مؤسس الدين. والثاني: (أبولين)، والثالث: (تيرفاغانت)، وهذان شيطانان. وقد نظر (برنارد لويس) إلى هذا الفهم بأنه شيء هَزْلي مضحك من إنسان العصور الوسطى الذين لم يستطع فهم الدين إلا عبر تصوّره الخاص .

القسم الثاني: ( المفهومات الناجمة عن الصّدامات السابقة )

تمحور هذا القسم حول الموضوعات الآتية:

أ- رؤية الغرب للإسلام.

ب- مشكلة الترجمة من العربية إلى اللغات الأوربية.

ت- أثر التهديد التركي للآداب والفكر في أوربا والأبحاث الغربية في الثقافة والتاريخ الإسلاميين. وقد نوقش الفكرة الأخرى من خلال الفصول الثلاثة الآتية:

ف-1 دراسة ما كتبه جيبون عن النبي (محمد) ﷺ في كتاب المسمّى (انحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها).

ف-2 دراسة أصول الدراسات العربية والإسلامية وتطورها وأهدافها في العالم الغربي مع الالتفات إلى الجدال حول مسألة الاستشراق.

ف-3 مشروعية دراسة تاريخ شعب آخر.

يُقرّ برنارد لويس بأن القرون الوسطى شهدت تغيّرات مثيرة في الفهم الأوربي المسيحي للإسلام ومؤسساته، «غير أنه لم يكن العالم المسيحي مستعدّاً للاعتراف بأي ميزة حسنة أو أصالة للإسلام بوصفه ديناً أو رغبة حتى في التعرُّف على حقيقة كونه ديناً» واستدلّ على ذلك باستمرار الأوربيين ينعتون المسلمين بأسماء عرقية على نحو ما ذكرنا فيما سبق. وقد انطلق العالم المسيحي إبان القرون الوسطى في دراسة الإسلام من هدفين اثنين، هما:

1 - حماية المسيحيين من التهديدات الإسلامية.

2 - تحويل المسلمين إلى المسيحيّة.

لقد كان معظم الباحثين آنذاك كهنة أو رهباناً، وقد خلّفوا كمّاً وافراً من الأدبيات التي تعرض للإسلام ولنبيه

محمد ﷺ وللقرآن الكريم. وقد اتصفت أساليب هذه الدراسات بسوء الأسلوب وبأنها صُمِّمت لتحمي وتثبِّط الهِّمة أكثر من سعيها إلى تقديم معلومات. فالكتابات في هذه الحقبة «تحكمها التحاملات والمجادلة .... وبقي المجادلون يسيطرون على الكتابة في الموضوع ... ». وفي هذا الوقت أخذ «جيبون» بالتعرف على الإسلام عبر قراءاته عنه.

وقد كانت مصدر «جيبون» عن النبي محمد ﷺ الترجمات الثلاث للقرآن الكريم إلى اللاتينية والفرنسية والإنكليزية التي قام بها من كل من:

1 - ماراكسي.

2 - كلودسا فاري ( 1758 - 1788 ).

3 - جورج سيل ( 1597 - 1736 ) .

وإلى جانبها سيرتان كتبهما كل من هامفريبريدو، والكونت دي لانفيليه (1658 - 1722)، ومقالة مرتبطة بذلك لجان غانييه. واستفاد جيبون كذلك من عملين آخرين هما: بحث عن دين محمد للباحث الهولندي (أدريان رولاند) و (نموذج من التاريخ) لـ (إدوارد بوكوك 1604 - 1691م).

فكتاب (النموذج) لبوكوك «كان عملاً مهماً في بدء عهد جديد في تطور الدراسات العربية والإسلامية في أوربا ... أما العمل الآخر فهو السيرة التي كتبها بولينفيليه. فبالرغم من إدراك (جيبون) عيوب هذا العمل، والتعليقات الساخرة التي تطلق أحياناً حوله، فإنه تأثر تأثراً كبيراً بعرض بولينفيليه لشخصية النبي» .

لم تكن أوروبا تحترم الإسلام وسمعته ومؤسسه بفعل الثقل الاجتماعي أو بالقرار الأوربي، فقد استخدم «مطية رائعة للجدل المعادي للدين والمسيحية». وقد حقق (جيبون) هذا الهدف من خلال مهاجمة الإسلام وهو يريد المسيحية، فكان يكيل المدائح للإسلام لينفذ من طَرْف خفي إلى مهاجمة الأعراف والاعتقادات والممارسات المسيحية الدارجة. وكان من الدروس التي أراد (جيبون) استخدامها من السيرة النبوية أن مؤسس الإسلام بشر خالص، وهذا - عنده - حجة ضد المذهب الذي يقول بقدسية المسيح، عليه السلام .

لقد جهد جيبون في استخلاص دروس متعددة من السيرة النبوية ليردَّ بذلك على المسيحيّة التي تجعل المسيح ابناً لله، فكان - جيبون - معتمداً في ذلك «على شيء إسلامي خالص ، وأظهر ذكاء حاداً إلى أبعد من الإضافات الأسطورية إلى السيرة النبوية، فعاد إلى شخصية النبي الموثّقة، وإلى التقاليد الإسلامية الأولى التي تؤكد أمرين هما: نبوة محمد ﷺ وبشريته. وجهد جيبون كذلك في إثبات استقرار العقيدة الإسلامية وفق ما جاء به النبي ﷺ، وخلوّها من البدع المحلية اللاحقة على غرار تلك التي لحقت برسالة السيد المسيح. وقد ردَّ برنارد لويس على آراء جيبون هذه وخطّأه في ذلك مشيراً إلى أنَّ عليه أنْ يعير شيئاً من الانتباه إلى ما كان يمارس عليه الإسلام في أرجاء مختلفة من العالم الإسلامي في أيّامه.

وقد رأى برنارد لويس أنّه - أي جيبون - كان يصّر على أن الإسلام بمضمونه أكثر حريَّة لعدم وجود قساوسة وكنيسة، وأن فيه قليلاً من العقائد الجامدة، في حين أن المسيحية تنوء بأعباء ذلك، ولكن عدم وجود كهنوت ديني، لا يمنع وجود كهنوت اجتماعي - وفق رأي لويس - يمارسه رجال الدين. وقد نظر إلى جيبون على أنه أشبه بكتّاب الرسائل الفارسية والجواسيس الأتراك الذين نوّروا الغرب وشرحوا له عيوبه، ولذا لا يمكن عدّه في صف المؤرخين الجادين في الشرق، فقد كان ما قاله عن العقيدة الإسلامية قليلاً، فاهتمامه منصب على جوانبه الاجتماعية والعامة.

يؤكد برنارد لويس أن تأثير (جيبون) في فهم الغرب عن النبي والإسلام كان عظيماً، فقد «استطاع - يعني جيبون - تجسيد صورة النبي وظهور الإسلام بوضوح وروعة ، وفوق كل شيء بإقناع». ولكنه - أي جيبون لم يحزم أمره بشأن موضوع التسامح، فقد وصف النبي محمداً بأنه حمل السيف بيد والقرآن باليد الأخرى، وأقام عرشه على أنقاض المسيحية وروما. وهذه مغالطة من مغالطات جيبون، «فقد استمرَّت المسيحية وروما كلتاهما بعد ظهور الإسلام» . لم ير جيبون «ظهور الإسلام على أنه سيء منفصل ومعزول، أو أنه انحراف يدعو إلى الأسف عن مسيرة الكنيسة المتقدّمة، بل رآه على أنه من التاريخ البشري يمكن أن يُفهم في إطار إمبراطوريتي روما وفارس، وفي ضوء اليهودية والنصرانية، وفي تفاعل معقّد مع بيزنطة وآسيا وأوروبا» .

وإذا انتقلنا إلى الفصل الثاني من القسم الثاني، وهو يحمل عنوان (قضية الاستشراق) نجد برنارد لويس في هذا الفصل يسعى إلى تأصيل مصطلح (الاستشراق)، ويرى أن كلمة الاستشراق كانت تعني - قبل أن تلتاث بشيء من التلوّث الفكري - في معنيين: الأول يشير إلى مدرسة الرسم التي يمثلها مجموعة من الفنانين معظمهم من أوربة الغربية، وزاروا الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، ورسموا ما شاهدوه أو تخيّلوه بأسلوب رومانسي غالباً. والثاني: فرعاً من فروع البحث العلمي الذي وجه ممثلوه عنايتهم إلى دراسته وغدا خاصّاً بفقه اللغة.

وفرق في هذا الفصل بين مفهوم الشرق عند الأوربيين والأمريكان، فقد كان مفهوم الشرق عند الفريق الأول «المنطقة الواقعة مباشرة إلى الشرق من أوروبا» وهو - عندهم - مصدر الخطر بدءاً من طلائع الجيش الفارسي وانتهاءً بأواخر الجيش العثماني، ولكن مفهومه عند الأمريكيين ينطبق على أماكن «لم تكن لأوربا القديمة والوسطى معرفة كبيرة أو حتى علم بها».

وقد حفل هذا الفصل بمناقشة ضافية لمصطلح (مستشرق)، فقد عدَّه فاسداً إلى حدٍّ لا يمكن إصلاحه، وفقدت كلمة مستشرق قيمتها، وكان الهجوم على ذلك في مؤتمر الاستشراق الذي عقد في باريس سنة 1973 بمناسبة مرور مئة عام على مؤتمر الاستشراق الأول الذي عقد في المدينة نفسها، وفيه انقسم الدارسون بين رافض لهذا المصلح (مستشرق) وبين مؤيد للإبقاء عليها، وكان على رأس الفريق الثاني (بابا جان غفورق) مدير معهد الاستشراق في موسكو، فقد قال: «إنَّ هذا المصطلح قد خدمنا لأكثر من قرن فلماذا يجب علينا أن نتخلّى عن كلمة تدل دلالة صحيحة على علمنا، وأوجدها بفخر أساتذتنا وأساتذتهم لعدة أجيال خلت ؟».

وعرض برناد لويس لبعض مصادر الهجوم على الاستشراق والمستشرقين، هذا الهجوم الذي مرَّ بمراحل عدَّة بدأت عند الشروع في إعداد الطبعة الثانية لدائرة المعارف الإسلامية، وكان مصدر هذا الهجوم كراتشي الباكستان. ثم قام أحد أساتذة جامعة الأزهر بوضع كتاب صغير عن المستشرقين وما يقومون به، فالمستشرقون «أكثرهم من المبشرين الذين يهدفون إلى إضعاف الإسلام وتدميره»، وقد وضع هذا الباحث لائحة ضمَّت «أسماء باحثين مراوغين وخطرين ينبغي معاملتهم بحذر خاص»، وكان بينهم (فيليب حتّي) من جامعة برنستون، وعدّه مؤلف الكتاب (أحد أكثر الناس المثيرين للجدل من أعداء الإسلام، يزعم أنه مدافع عن قضايا العرب في أمريكا، وهو مستشار غير رسمي لشؤون الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الأمريكية» . وينتصر برنارد لويس لـ ( فيليب حتّى)، ويؤكّد أنه كان «في الواقع من المدافعين الشجعان عن قضايا العرب، وكان كتابه (التاريخ) لترنيمة لمجد العرب».

ويذهب برنارد لويس في هذا الفصل إلى نفي عمليات التبشير التي رُمي بها الاستشراق، وعَدَّ ذلك «منهجاً نُبذ في العالم المسيحي منذ مدة، ما عدا قليلاً من المراكز الأمامية الدينية المتعصّبة» وعلى الرغم من ذلك بقي هذا الفهم سائداً في العالم الإسلامي.

يرفض برنارد لويس الكتابات العربية التي تكيل الاتّهام للاستشراق، ويعرِّج على مقالة (أنور عبد الملك) المنشورة سنة (1963) بعنوان (الاستشراق في أزمة)، وهي - على ما يرى برنارد لويس - مكتوبة بانفعال واضح، وهو يعبّر فيها عن مبادئ يعتنقها بقوة، ومع ذلك لم يحط لويس من قدرة، فرأى أنها تبقى في حدود المناقشة العلمية، وتعتمد اعتماداً واضحاً على دراسة متأنية لا تتعاطف مع كتابات الاستشراق .

وينظر لويس في هذا الفصل إلى ( إدوارد سعيد ) على أنه الممثل الرئيس لمعاداة الاستشراق في الولايات المتحدة، فقد نشر هذا الأخير كتابه (الاستشراق) الذي يتضمّن – وفق لويس – طرحاً مفاده النظر إلى الاستشراق على أنه ناجم عن تقارب من نوع خاص بين بريطانيا وفرنسا والشرق الذي كان يعني حتى القرن التاسع عشر الهند وأراضي الكتاب المقدس . وقد شنّع لويس على إدوارد سعيد أطاريحه، فهي عند لويس اعتباطية، تقدم على عزل الدراسات العربية من سياقاتها التاريخية الثقافية، وتعمد إلى ترتيب إدوارد سعيد جغرافية الاستشراق وتاريخه، فالشرق بالنسبة إلى إدوارد سعيد انحسر إلى الشرق الأوسط فحسب، وهذا ينحسر إلى جزء من العالم العربي.

لقد أنكر لويس على إدوارد سعيد أطاريحه، وجعل كتاباته محيِّرة، ومنافية للعاقل، وقاسية، وهي أقرب إلى روايات الخيال العلمي، وتؤكد جهله بالحقائق التاريخية، وعجزه عن التقييمات الحقيقيّة، وقدرته على تحوير الأحداث لتنسجم مع أطاريحه. إن معاداة الاستشراق في أسّها قضيّة معرفية تهتم بنظرية المنهج أو بعلم المنهج أو أرضيات المعرفة. فالمستشرق – وفق إدوارد سعيد – عميل للإمبريالية، أو أداة من أدواتها، والاستشراق مصدر للقوة. وبرنارد لويس يؤكد رفضه للتفسير الإمبريالي للاستشراق ودليله على ذلك أمور منها:

1 – عندما أسس أوّل كرسي للغة العربية في فرنسا لم يكن المغاربة قد طُردوا من أسبانيا.

2 – كان الأتراك ما زلوا يهدّدون فيينا.

3 – استمرار القراصنة البربر في مهاجمة شواطئ إنكلترا.

4 – توق فرانسيس لمساعدة سليمان الكبير في إستانبول.

5 – إن التفسير الإمبريالي للاستشراق لا يقدّم أي شرح للتطور الكثيف في دراسة الشرق القديم.

6 – أيّ هدف إمبريالي يراد من فك رموز اللغة المصرية القديمة؟

يؤكد برنارد لويس بعد عرضه هذه الأدلة أنَّ التفسير الإمبريالي للاستشراق تفسير يسير بعكس حركة التاريخ.

وفي الإجابة عن سرّ اهتمام الغربيين بدراسة الشرق يرى أن الغربيين يجيبون على ذلك بما يأتي:

1 – الحضارات الأعلى تدريس الأدنى لا العكس.

2 – غير الأوربيين يرون أن المعرفة قوّة، وهدف الدراسات الغربية للشرق السيطرة عليه واستغلاله.

أما السؤال الأول فيرد عليه برنارد لويس بأنه لا يتطابق مع الوقائع التاريخية إذ إنَّ أوروبا عند ابتدائها دراسة الإسلام كانت هي الأدنى، والعالم الإسلامي هو الأعلى. فالحضارة الإسلاميَّة كانت أكثر تقدُّماً من أوروبا، ومع ذلك درست أوربا الإسلام، ولكن الإسلام لم يدرس أوروبا.

أما مقولة (المعرفة قوَّة) فهي مقبولة عاطفياً، لأنها تحقّق هدفين:

أولهما: إدانة الاستشراق الغربي. وثانيهما: تجعل غياب أي دراسة مرتبطة بالشعوب الغربية في الشرق فضيلة.

فكتاب (الاستشراق) لإدوارد سعيد وموجة العداء للاستشراق ناجمان عن التأثير بقراءة كتاب (النهضة الشرقية) للباحث الفرنسي (ريمون شواب) وهذا يستخدم كلمة (نهضة) بمعناها الأصلي، وهو إحياء المعرفة في أوروبا. أما مصطلح (الشرق) فالمراد به الهند مع بعض التوسّع شرقاً وغرباً، فالإطار مختلف والمنطقة مختلفة، والمجال متغيّر، والهدف متغير أيضاً.

ويعود لويس إلى التشنيع على إدوارد سعيد وكتابه (الاستشراق) ويرميه بالأمور الآتية :

1 – التخيّلات الجنسية.

2 – التشويه.

3 – الاختيار الاعتباطي لأعمال المستشرقين.

4 – التركيز على كتابات ثانوية من دون الإسهامات المهمَّة.

5 – إعادة التنظيم الاعتباطي للأحداث التاريخية والاحتيال لذلك.

6 – إعادة تفسير النصوص المقتبسة.

7 – تصنيفه بعض الإداريين الأدباء في دائرة المستشرقين.

8 – إلقاء الاتهامات الغربية.

9– التطاول على شخصيات استشراقية مهمة مثل (سلفستر دي ساسي).

10 – إغفال الاستشراق الروسي والألماني.

11 – الاستخفاف بالبحث العلمي العربي.

12 – معاداته الغرب الليبرالي الديمقراطي.

ولكن كل هذه النّقدات للكتاب لم تُعَم عيني برنارد لويس عما فيه من حسنات، من أهمها:

1 – الأفكار الفلسفية والأدبية المطروحة فيه أفكار شائعة حالياً.

2 – لغته الأدبية.

3 – تلبيته حاجات العالم المتزايدة في تبسيط الأمور من خلال التقليل من تعقيدات المشكلات القومية والثقافية والدينية والاجتماعية في العالم العربي.

4 – تحويل هذه التعقيدات إلى شكوى موجَّهة ضد مجموعة من الأشرار يَسْهُل التعرُّف عليهم وتمييزهم.

5 – انتقاداته الصارمة للبحث العلمي النصّي والفقهي.

إن نقد الاستشراق والمستشرقين أثار كذلك نقداً مضاداً متزايداً من الكتاب العرب، على الرغم من أنهم غالباً يشتركون والمعادون للاستشراق في تحرّرهم من هم الحضارة الغربية. وقد أعلى لويس من دراسة الفيلسوف د. فؤاد زكريا عن الذين يعادون الاستشراق، فقد قسمهم زكريا إلى:

أ- مدرسة النقد الأولى، وهي مدرسة دفاعية دينية، تدافع عن الإسلام وكماله وتماسكه ضد من يعاديه من القوى التي توصف بالمسيحية، والبعثات التبشيرية، واعتمادهم على اقتباسات مما ترجم عنها، وعدم تفهمهم البحث النقدي المعاصر الذي يشكل الاستشراق الغربي جزءاً.

ب- فئة تهاجم المستشرقين انطلاقاً من وجهة نظر سياسية لا دينية، بدليل أنَّ الأعلى صوتاً بين أفراد الفئة هم مسيحيون أو أبناء مسيحيين مهاجرين يعيشون في أوروبا الغربية أو أوروبا.

لا يخلي فؤاد زكريا الاستشراق من الشوائب، ولكن الخطر الأكبر في أن ننكر نحن أخطاءنا لأن الآخرين يتكلمون عنها لأهداف غير موضوعية، ولذلك يرى زكريا «أن مهمتنا الثقافية في هذه المرحلة هي أن نأخذ بقرون ثور التخلّف وننتقد أنفسنا قبل أن ننتقد التصور الذي يشكله الآخرون عنا حتى وإن كان مشوهاً على نحو مقصود» .

ينفي ما اتهم به الاستشراق من التحيّز ضد البلاد المدروسة أو العداء لها، لأن الباحثين ككل أنواع البشر عرضة لنوع من التحيّز، ولكن «الاختلاف الأساسي هو بين أولئك الذين يدركون تحيّزهم هذا ويحاولون تصحيحه وبين أولئك الذين يطلقون له العنان» . ولكن المسألة الأكثر أهمية هي دقة نتائج البحث الاستشراقي وصحتها، وهي مسألة قلما يتطرق إليها ناقدو الاستشراق، لانصباب تركيزهم على نتاج باحثين لهم مواقف مزعومة ودوافع تصلح أن تكون موضوع حملة النقاد عليهم.

وفي ختام هذا الفصل يؤكد أن النقد العلمي لنتاج المستشرقين ضروري فعلاً، وهو جزء من العمليّة برمّتها، وأشد نقداً وأكثره نفاذاً إلى البحث الاستشراقي سيأتي من زملاء المستشرقين أنفسهم، ولا سيما أولئك الذين يعملون في حقل متخصص واحد .

ف3 (تاريخ الشعب الآخر)

محور هذا الفصل دراسة موقف الأوربيين من التاريخ غير الأوربي، ففي القرن التاسع عشر قال الشاعر لورد ألفردتنيسون (1809–1892) في قصيدة له بعنوان (قاعة لوكسلي ): خمسون سنة من حياة أوروبا أفضل من تاريخ الصين كله، وهذا الفهم عن التاريخ الشرقي لم يكن مفهوم تينيسون وحده، لكنه عام في الكتابات الأوربية في القرن التاسع عشر. ويضرب برنارد لويس مثالاً آخر يؤكد هذه النظرة الأوربية للشعوب الأخرى من المنشور البابوي

الذي كان يحمل عنوان (الإله الخالد) وقد أصدره البابا ليو الثالث عشر في الأوّل من تشرين الثاني سنة 1885م فهنّأ فيه أوربا على قدرتها التي استطاعت بها «ترويض الأمم الهمجية ونقلها من التوحش إلى الحضارة، ولأنها قائدة الشعوب ومعلمتها في التقدم والحرية وتخفيفها البؤس الإنساني.

إن الغربي الذي يتقصى ثقافة غير ثقافته تواجهه مسألتان اثنتان هما:

1 - لماذا نتهم؟

2 - هل لنا الحق؟

ويجاب على هذه المشكلة بأنه ما دام في مقدورنا – بل علينا أن نفعل ذلك – دراسة تاريخنا الخاص بعين ناقدة، فهذا يمكن فعله فيما يخصنا لا فيما يخص الآخرين. أما المنهج النقدي فلا يصحّ تطبيقه على الثقافات الأخرى، وما علينا إلا الاكتفاء «بتلقي ما ينتقيه الخلفاء الشرعيون لتلك الثقافات الأخرى ويحضرونه ويعالجونه ويقدمونه لتعليمنا». ولدراسة الحضارات سبل عديدة ومصادر متعددة، فهي تدرس في لغات أعمالها الكلاسيكية، وفي كتبها المقدّسة، ولغات أنظمة الحكم فيها، وفي التجارة. ويرى الغربيون أن الحضارات الأعلى تدرس الحضارات الأدنى وليس العكس. أما الجواب الحالي غير الأوربي فيتمثل في أن المعرفة قوة، وأن هدف الدراسة الغربية هو السيطرة والاستغلال.

لا ينفي برنارد لويس أن يكون بعض المستشرقين قد خدموا الإمبريالية أو استفادوا موضوعياً وذاتياً من الهيمنة الإمبريالية، ولكن عدّ ذلك تفسيراً للاستشراق عامة يمثل قصوراً عبثياً. وإذا كان بعض نقاد الاستشراق يجعلون السعي وراء القوة عبر المعرفة هو الدافع الوحيد أو حتى الدافع الأساسي، فإن دراسة العرب والإسلام في أوربا قد بدأت من قرون قبل أن يغادر المسلمون الفاتحون (لويس يسميهم الغزاة) أرض شرق وغرب أوروبا. ثم إن الدراسات الاستشراقية ازدهرت في بلدان أوربية لم تكن لها مساهمة في السيطرة على الوطن العربي. والسؤال الذي يبقى يلح على ذكر برنارد لويس هو: لماذا فعلنا ذلك نحن في الماضي، والأكثر منه إلحاحاً: لماذا علينا أن نفعل ذلك في المستقبل.

وفي الإجابة على سؤاله الأول يقدّم برنارد لويس الإجابات الآتية:

1 - حاجة أوروبا المسيحية إلى توجيه أنظارها وتعلم لغات غريبة للوصول إلى منابع عقيدتها المسيحية وحضارتها، فكتبها المقدّسة كانت مكتوبة باللغة العبرية واليونانية، وبعض الصفحات بالآرامية، وهي لغات صعبة.

2 - الخوف من تهديد المسلمين بالغزو وتحويل الدين.

3 - معظم الأراضي الإسلامية الجديدة انتزعت من العالم المسيحي (!).

4 - وجود الأماكن المسيحية في أماكن الحج التي سيطر عليها المسلمون.

5 - إشباع رغبة الأوربيين العلمية.

6 - التطور الفكري الأوربي.

7 - التوسع التجاري. فقد سُمح للأوربيين بإقامة مراكز تجارية على أراضي المسلمين ولكن أوروبا لم تسمح بشيء من ذلك، فعندما قدّم اقتراح بإنشاء نزل للتجار الأتراك في البندقية دارت صراعات مريرة وطويلة وجدالات قبل أن توافق المدينة أخيراً على السماح لعدد قليل من التجار الأتراك بالبقاء مُدَداً قصيرة. ولا يخفى أن التجارة وما قدمه التجار من فرص، وطبيعة الجو الفكري الذي يتمخض عن المجتمع البرجوازي كان له اليد الطولى في تقدم البحث العلمي في أوروبا.

وينتهي لويس إلى إشارة إلى أهمية تبادل الدراسات في «ضوء الاعتماد المتبادل للوجود البشري في الوقت الحالي، ووحدة الثقافة البشرية التي تزداد رسوخاً كل يوم على الرغم من وجود الاختلافات السياسية والاختلافات الأخرى التي تمزّقنا فمن الجيد أن يكون على تلامذتنا أن يدرسوا (المعلقات)، ومن الجيد أيضاً أن يكون على الطلاب العرب دراسة بيوولف» .

القسم الثالث: (الاستجابة ورد الفعل الإسلامي). وقد بحث فيه الموضوعات الآتية:

1 - النهضة الإسلامية، وما يسمّيه بالأصولية.

2 - مكانة الشيعة في التاريخ الإسلامي.

3 - الوطنية الغربية وتطورها.

4 -إمكانات التعايش الديني المشترك.

وعبر إضاءاته جوانب هذه الموضوعات يخلص إلى جملة من النتائج، منها:

1 - الإسلام هو الصيغة الأكثر تأثيراً للاجتماع في البلدان الإسلامية، ويزداد ذلك بازدياد تأصيل شعبية الأنظمة. فالإسلام هو الهوية الجماعية الأساسيّة بين الجماهير.

2 - إن الوطن فكرة مقدّسة لا تشكلّه خطوط وهميَّة مرسومة بسيف فاتح أو قلم كاتب، وهذه الفكرة «تنبع من اتحاد مشاعر نبيلة عديدة، مثل الأمة، والحرية، والخير، والأخوّة، والملكية، والسيادة، واحترام الأسلاف، وحب الأسرة، وذكرى الشباب ...» .

3 - يعني التعايش المساواة بين المجموعات المختلفة التي تشكل المجتمع السياسي بوصفه حقّاً طبيعيّاً متأصّلاً لهم جميعاً – منحه ليس ميزة، ومنعه أو الحد منه جريمة . وهو مصطلح يختلف كل الاختلاف عن مصطلح التسامح.

إطلالة أخيرة:

يعكس كتاب (الإسلام والغرب) برنارد لويس شخصيةً لاهثةً وراء المعرفة غنيةَ المعارف، متشبعة المشارب والثقافات، فهو بحق أحد أفراد جيل من «المستشرقين الكبار الذين لا يَحدُّهم اختصاصٌ معيَّن». وتتمتع كتابات برنارد لويس بالعبارة المكثّفة، والأسلوب السامي، وهذا ما يجعل قارئه يُعدّ كل عدّة للإبحار في خضم كتاباته، وتفرض عليه أن يكون قارئاً ممعناً فيما يقرأ، يسبر أغوار ما يقع تحت أنظاره من فكر. والكتاب الذي بين أيدينا لا يمنح قارئه لحظة واحدة من تهاون، إذ عليه أن يستجمع جُماع قواه الفكرية، ويستحضر ما يستطيع من مخزونه الثقافي فهو ينتقل بقارئه من مشكلة إلى أخرى، ويثير عنده تساؤلاً بعد تساؤل ولكن ذلك لا يجعل من الكتاب خلواً من التقصير، بريئاً من الأغاليط، بعيداً عن الصواب، طافحاً بالمغالاة والتحيُّز في مقابل كثير من الموضوعية والنَّصفة اللتين تظهران في الكتاب.

فمن مظاهر الموضوعية مثلاً إقراره بالهدف الإمبريالي لبعض الكتابات الاستشراقية: «كانت هناك تقاليد للكتابة، ولا سيما في التاريخ، والهدف منها إمبريالي من دون شك، يلحظ المرء هذا في بعض الكتابات الإنكليزية عن تاريخ الهند .... وهي كتابات يتضح أن لها هدفاً مزدوجاً فهي من جهة تؤكد للقراء الإنكليز صواب حكمهم في الهند والطرائق المطلوبة للحفاظ عليه، وتحاول من جهة أن تثني الهنود عن تطوير أفكار خطيرة حول ماضيهم ومن ثم عن حاضرهم ومستقبلهم».

ومن ذلك إقراره بالتحريفات التي حصلت في الديانات السابقة على الإسلام، ونقده للممارسات الخاطئة لأوروبا تجاه المسلمين بعد استرداد صقلية والبرتغال، فقد أقرَّ بأنهم كانوا يرون استحالة وجود مسلمين بينهم وقاموا بترحيلهم أو بإكراههم على تغيير دينهم . ومن الأمثلة على تطرّفه ومغالاته قوله: «فعلى مدى ألف سنة من التقدّم الإسلامي لم يكن الغربيون بل المسلمون هم المعتدون والغزاة» . وهي مواضع قليلة لا تخفى على القارئ الحصيف.

وتأتي ترجمة الكتاب نموذجاً للترجمة الدقيقة، المتّسمة بحسن الاختيار، وجودة الأسلوب وإشراقه، ودقة العبارة المفضية إلى سطوع الفكرة، وكل ذلك دليل واضح لا يخفى على ذي لبّ اقتدار المترجم، يضاف إلى ذلك التعليقات والهوامش التي رفد بها المترجم النصّ الأصلي لتجلو الغموض الذي يكتنف بعض المواضع أو الأسماء. وإذا كانت بعض الأخطاء تناثرت كالخيلان متباعدة في صفحات من الكتاب، فإن ذلك لا يغض من قيمة الكتاب تأليفاً وترجمة، ولا يدفع إلى الإحجام عن قراءته قراءة متأنية يجني منها ثماراً فكرية يانعة.



# أروع ما ساقت الأقدار

بدرية المشهوري
@B43220

لن أتصنّع مآسي الحب والبائسين. أنا التي عاشت في بيت مليء بالمحبين وعطف الصادقين وأنجزت في العشرين ما يُنجَز في الأربعين فقد تخرجتُ من صرح العلم قبل العقد الثاني بعامين - حينها صاحباتي مازلن معتكفات على مسألة ومعادلة والدعاء لنيل معدل مرموق يمكّنهم من التخصص في المجال المرغوب- واتّجرتُ بذكائي مع صاحب المال والنفوذ فقد كان إمعةً لا يفقهُ ما يقول ولا أعلم كيف تمكن من جمع ثروات ونقود!! وعند سؤاله لأتيقن إن كنتُ سأكسبُ رزقي بما يُرضي الإله أجابني بأنه ورثها من والده البخيل ولم يعلمه كيف يقوم بالتسيير. فترك لي أمر التوجيه والتدبير وهكذا أنجزتُ ما عجز عنه رجلٌ في الأربعين.

استمتعتُ بالمال وسُبِقَ اسمي بألف و دال بكل يُسرٍ والحمد لله فأساتذتي كانوا أغبياء على الرغم من قولهم بأنهم عباقرة الزمان هههه وما ذنبي إن كنتُ أنا فذّ الزمان!!

وصل بي الحال أن أسافر كلما ضقتُ ذرعاً بالأفكار فلا أحد يشغل فراغ الآخر كما علمتني الحياة. فالتعاطف والاهتمام الذين نشأتُ عليهما في الأزمان نُقبا مع نعش والديّ وطن الراحة والأمان فتركوا لي جحيم الوقت وملل العباد واخوتي أراهم حسنةً كل عام فلم يعودوا يهتموا بوجودي غير المعتاد و نسوا وصية أمي لهم بالسؤال.. ولا عتب فهم مسؤولون على أي حال.

وبينما كنتُ على الشاطئ وسط الازدحام لمحتُ أحمق يجمع الصدف بشغف الأطفال ويُحصيها بطمع شريكي في الأموال - فقد ورث حب المادة والبُخل ولم يعتبر من حال والده قبل الممات- ثم وضعها في صندوق قد يم وكأنه من صُنع عاد واستمر على هذا الحال أشُهر وأيامًا حتى قتلني الفضول في معرفة سر هذا المعتوه.

- اعتذر لتدخلي غير المرغوب. لكن ما بالك تجمع صدف البحر بنهم ناطقي العبرية في فتل براءة عربية فقد أذهلتني بأغرب في الأطوار.

- سأجيبك لا تلبية لرغبتك في معرفة الأحوال لكن يبدو عليك علامات الأذكياء فوسع عينيك واستدارة وجهك الجميل و..

- هلاّ كففتَ عن غزلٍ وضيع وأخبرتني سبب جمعك لصوت البحار!! أتعلم لا يهمني لم تجمعها وما يعني لي أخرق يلبس ألوان الطيف وطوله يجب أن يؤخذ بالأقدام.

- لا تغضبي فقط أردتُ بدء الحوار ويبدو بأني فشلت كالمُعتاد. أمي تجلس هناك فهي تعاني النسيان أعني زهايمر العقل والفؤاد. وهي لا تذكر بأني ابنها سُليمان حتى ألبس هذه الألوان. وأجمع الصدف بكل امتنان. فهذا ما فعلته عندما كنت في التاسعة ولم تنسه على الرغم من مرضها والأعوام وإني والله أكره أن يمضي اليوم دون أن تذكرني فيه. فلا بأس أن يسخر مني الآخر وتبتسم أمي فتُقبلني عند الغروب كما تفعل كل مساء.

- هنيئًا لك بقدم أم تبر لك الحياة وهنيئًا لها بولدٍ أخلص لها رجاء ابتسامة وقُبلة. وما عساي أقول في جنة الدنيا وحضن القرار.. فاللهم ألحقني بها في أسرع الأيام فقد سئمتُ الإهمال بين الأحياء.

- وهل أحببت من قبل يا حسناء ؟

- وبلغتُ به سُنن الغرام هو من استطاع علي الاحتيال وجعلني أبكي الليل مع النهار شوقًا والتياعًا. هو من استطاع سلبي الأمل بعد أن كنت مثلاً لنمط السلوك وحيوية النشاط.

- و كيف استطاع ترك عقل وجمال ؟ !!!!

- أنا من تركه !! أخبرته بأني أكره علاقةً في الخفاء فما هذا جزاء عائلتي والإحسان !! وعندما استمرَ في الرفض وجحد التضحيات ونكران حب في عمق الفؤاد شققتُ به الأنفاس لا مجال للاستمرار وبذل الإعذار فهجرته ليعلم قيمة مُخلص في زمن النفاق. والأهم شهدتُ مطاردته للأهواء مع قبيحات الرُخص و الإعياء.

- لا عليك فهذا حال الإخلاص.

- كما قلتُ. ابتسم فأمك آتية يبدو أنها تذكرت سُليمان.

- من هذه يا سليمان؟!!

- لا أعلم!! لكن هي أروع ما ساقت الأقدار ورب السماء.

## عماد العالم وكتاب (رجال من ورق ونساء من زجاج)




صدر حديثاً عن الدار العربية للعلوم كتاب (رجال من ورق ونساء من زجاج) للكاتب عماد أحمد العالم. يقول الكاتب في مقدمة كتابه: هذا الكتاب هو طرحٌ فلسفيٌ وجداني، وأدبي لا علمي أو بحثي، قد يكون خيالياً في بعضه أو من الواقعية السحرية أو الخيالية.

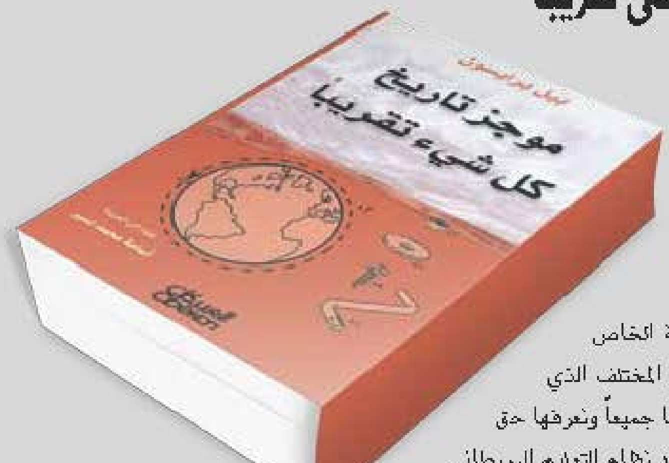
أحاول من خلاله أن أكشف مفهوم آدم وحواء (الذكر والأنثى)، والزواج، ونظرة الرجل والمرأة لبعضهما، كما أتطرق فيه للفطرة والغريزة والبيئة والتنشئة والأهل، وأثرهم على مستقبل أطفالهم وشخصيتهم في حال بلوغهم وكبرهم وزواجهم.

يُسرد الكتاب في إطاره الأقرب إلى حوار الذات، ومناقشتها ومناجاتها، ومحاولة الوصول معها لنقاط التقاء تساعد الوجدان في فهم واقعٍ متسلسل بعيشه وتقوم عليه ديمومة الحياة وما فيها من أممٍ ومجتمعات، منذ الخليقة وإلى أن يشاء الله سبحانه وتعالى.

حرصت على أن ألا أنهك القارىء بدراسات وأبحاث وأرقام، وحديث يكون فيه فحوى الكتاب علميٌ بحت، فأنا لست بباحث متخصص، ولا أجد نفسي حتى قادراً على إسداء النصح بأمرٍ أرى فيه ذوي الاختصاص والعلم أنسب مني وأكثر قدرةً على التوجيه والإرشاد.

كتابي هذا هو دردشة إنسانية أحاول من خلالها أن أكتب ما يمليه عليٌ فكري من قناعات استنتجتها، وقد أكون بالطبع مصيباً أو مخطئاً بها، لكن حسبي فيما أفعل أني أحاول....

## موجز تاريخ كل شئ تقريباً




صدر حديثاً عن شركة العبيكان لنشر كتاب (موجز تاريخ كل شيء تقريباً) للكاتب بيل برايسون، وقام بنقله إلى العربية أسامة إسبر، ولبرايسون أسلوب مميز تماماً في الكتابة، ساعد كثيراً على نجاح هذا الكتاب، وعلى الرغم من حجمه الذي يصل إلى أكثر من خمسمائة صفحة، ويغطي نفس الموضوعات التي غطتها الكتب العلمية قبله، إلا أن أسلوب الكاتب يجعله أقرب ما يكون للرواية شديدة التفصيل، فكل فصل منه طويل نوعا ما، وموجه لموضوع مثل عمر هذا الكوكب الذي نعيش عليه، أو طريقة عمل الخلايا، وهذه الفصول مجمعة معاً في عدة أبواب، بعنوان «حجم الأرض» مثلا أو «الحياة ذاتها»، كما تعد الأحاديث التي أجراها المؤلف مع عدد من العلماء في مختلف المجالات أحد المصادر المهمة لمادة الكتاب، خاصة عندما يتطرق إلى الخلافات العلمية بين العلماء حول بعض النظريات والتفسيرات العلمية لبعض الظواهر.

والشيء الجميل والمثير للدهشة الخاص بهذا الكتاب هو التفسير والمنظور المختلف الذي يتناول به المؤلف معلومات مرت بنا جميعاً ونعرفها حق المعرفة، وعلى الرغم من أن انتقاد نظام التعليم البريطاني ليس ضمن أهداف الكتاب، إلا أن ذلك يتضح بجلاء من خلال التفسيرات المختلفة تماماً التي يقدمها المؤلف عما ورد في المناهج المدرسية والجامعية، ويتضح من هذا الكتاب مدى دقة ملاحظة برايسون ونظرته المتميزة التي تلقي ضوءاً مختلفاً على أمور كنا نعدها بديهية، ولا نفكر في مناقشتها، أو أشياء غير عادية تعدها نظرتنا التقليدية القاصرة عادية تماماً.

## أسود دانتيل لحرية سليمان




تحولاتها النفسية وعالمها المزدحم وكل ما بينهما من تقاطعات بالذاكرة هو موضوع الرواية التي صدرت عن دار (نون) للنشر والتوزيع للكاتبة حرية سليمان التي جاءت في 317 صفحة، وتعد العمل الخامس للكاتبة.

الرواية تكشف بجرأة مناطق صادمة في حياة البطلة، حيث يلعب الماضي دور الشريك الأساسي بحياة صحفية متطلعة، تبحث عن مستقبل، بينما يلاحقها الأمس بكل خباياه وأزماته.

وأضافت سليمان أن الثورة لم تكن هدفاً وقت كتابة الرواية بينما تمت الإشارة لها بشكل عابر لصلتها بالتطور الحاصل بالرواية عموماً وبشخصية البطلة بشكل بالغ الخصوصية.

تثير الرواية حقيقة غاية في الصعوبة فكلنا بالفعل متورط ولا بد لأحد أن يدفع للنهاية .. وتضيف أن الرسالة التي تمررها للقارئ ليست غير دعوة للتحرر من الذات المجهدة والتي ربما تدفعنا للتقوقع بينما يضج الكون بأشياء أكثر قسوة من صخب ترهقنا به الذاكرة.

يُذكر أنه صدر للكاتبة حرية سليمان (بطعم التوت) عن (إبداع) ورواية (سهر) عن دار (أكتب) ومجموعة قصصية بعنوان (ربما يكون مغلقاً)، ونصوص نثرية (عناقيد ملونة) عن الدار نفسها.

# إصدار جديد للباحث المغربي سعيد بوخليط: (بين الفلسفة والأدب دراسات وسير)

عن دار الحامد للنشر والتوزيع بالعاصمة الأردنية عمان، صدر كتاب جديد للباحث المغربي سعيد بوخليط، أستاذ بالتعليم الثانوي، تحت عنوان: (بين الفلسفة والأدب، دراسات وسير) يظهر المنحى الثنائي لعتبة التسمية، هي مقاربة تأرجحت على امتداد قسمين من الفلسفة إلى الأدب أو العكس، ثم هناك جانب، انصب على المتابعة البحثية لبعض القضايا الأدبية والفنية، وآخر التقط مناحي من المسار البيوغرافي لبعض الأعلام الثقافية العربية والغربية، كي نستكشف على ضوئها تأويلات ممكنة لنصوصهم وإرثهم النظري.

عديدة المفاهيم والسياقات، التي تجاذبت أطراف السجال بين طيات هذا الكتاب، بمحوريه الدراسات والسير، قدر تعدد وتباين وتنوع المرجعيات وكذا حقول الاشتغال المعرفية، عند الأدباء والفلاسفة، الذين أثثوا صفحاته، على سبيل التمثيل: توفيق الحكيم، الطيب صالح، أحلام مستغانمي، جيل دولوز، محمود درويش، مارسيل خليفة، طه حسين، محمد منور، ألفريد نوبل، عبد الرحمن منيف، لوي ألتوسير، ابن خلدون، عبد الرحمن بدوي وجاك دريدا . . . .

أما القضايا التي انصب عليها اهتمام الكتاب، فقد تطرق من بين أشياء أخرى، إلى :طبيعة سريان مفهوم الهجرة في الأدب العربي المعاصر، وماهية الأدب عند دولوز، وتجليات التجربة الفلسفية عبر ممكنات الجسد والسؤال والموت، والتداخل المفصلي بين الشعر والعلم، وكيفية تمثل مجموعة من الفلاسفة للمرأة، والمنطلقات المفهومية والمنهجية لدى مؤسسي المنهج التاريخي في الأدب العربي، ونوعية الأرضية الجمالية التي أقام فوقها الثنائي المتفرد درويش-مارسيل خليفة، والوضع الراهن مؤسساتيا وإنتاجيا للترجمة العربية، واستحضار المناخ لرواية فدان الجمل بخصوصه ومتوالياته، والانحرافات التي شابت تاريخ جائزة نوبل ضدا على وصية مؤسسها، وتوثيق عبد الرحمن منيف ضمنياً لمحطات تاريخ العراق الحديث عبر تذكره لمراحل حافلة من حياته الشخصية فكرياً وسياسياً، وملابسات قتل الفيلسوف ألتوسير لزوجته إيلين يوم 6 نوفمبر 1980 جراء إصابته بحالة جنون حادة، والموقف الرجعي لابن خلدون الذي أبان عنه خلال حصار تيمور لنك لدمشق كما كشفت عنه مسرحية (منمنمات تاريخية) لعبد الله ونوس، ثم متابعة لأسرار الصرح العلمي الضخم المشيد من طرف الكبير عبد الرحمن بدوي بعصامية نادرة، وأخيراً تجميع الباحث الفرنسي (بينوا بيترز) لخيوط أول سيرة ذاتية تهم حياة جاك دريدا أحد أكبر فلاسفة القرن العشرين. . . .




إذن، يضاف كتاب بين الفلسفة والأدب دراسات وسير، إلى قائمة الإصدارات السابقة للباحث سعيد بوخليط، وهي :

- غاستون باشلار: عقلانية حالمة، منشورات جريدة الآفاق المغربية، مراكش (2002).
- غاستون باشلار: نحو أفق للحلم، دار أبي رقراق للنشر الرباط (2005) ،تقديم، الباحثة الأمريكية تريزا كاستيلاو لاولس.
- غاستون باشلار: بين ذكاء العلم وجمالية القصيدة، منشورات فكر، الرّباط (2009).
- العقلانية النقدية عند كارل بوبر، (تقديم وترجمة)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (2009).
- غاستون باشلار: نحو نظرية في الأدب، دار الفارابي، (لبنان)، 2011.
- غاستون باشلار: مفاهيم النظرية الجمالية تقديم الناقدة السعودية رائية الشريف العرضاوي عالم الكتب الحديث الأردن2012).
- نوابغ سير وحوارات، ترجمة وتقديم، عن منشورات جداول، (بيروت،لبنان)،2012.
- قضايا وحوارات بين المنظور الأيديولوجي والمعرفي عن منشورات جداول (بيروت-لبنان) ،2014.

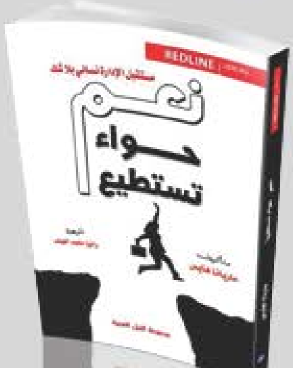



# السلاوي يصدر كتاب (علامات الزمن المغربي الراهن)

صدر حديثاً عن مؤسسة محمد أديب السلاوي للفكر المسرحي كتاب بعنوان: (علامات الزمن المغربي الراهن) للأستاذ محمد أديب السلاوي، من تقديم الدكتور الجيلالي الكدية وتصدير الأستاذ محمد السعيدي.

وبهذا الكتاب الجديد، تكون مؤلفات محمد أديب السلاوي، قد وصلت 45 كتاباً، نظراً لغزارة إنتاجه في مختلف التخصصات والمجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية.

# الطبعة العربية لكتاب (نعم حواء تستطيع)




صدر حديثاً عن مجموعة النيل العربية الطبعة العربية لكتاب (نعم حواء تستطيع) وهو مترجم عن اللغة الألمانية للكاتبة /ماريانا هايس.

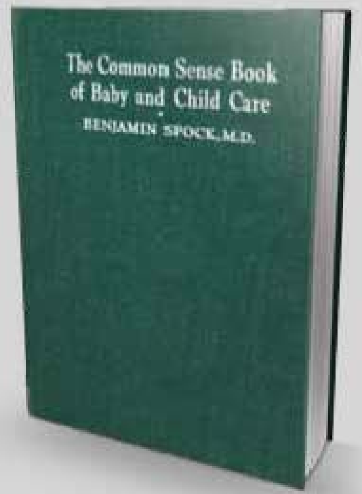
يستعرض هذا الكتاب المهم الذي لاغنى عن قراءته، من خلال لغته الواضحة المباشرة، واقع التحديات المستقبلية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تواجه الدول والمجتمعات المختلفة.

إنه كتاب للنساء اللاتي يُرِدْنَ، حتى دون وجود كوتا نسائية ،شق طريقهن بمهارة إلى الصفوف الأمامية التي يعدها أقرانهن من الرجال مناطق نفوذ منيعة، كما أنه دليل إرشادي للشركات التي تعرف أنه ليس بمقدورها الحفاظ على النجاح بصفة مستمرة إذا أغمضت عينيها عن واقع التحديات المستقبلية الناجمة عن التحولات الديموغرافية.

إن هذا الكتاب يُلقي ضوءًا جديدًا على الواقع العملي للشركات والمنظمات؛ حيث يزيح ذلك العنوان الفرعي الاستفزازي «مستقبل الإدارة نسائي بلا شك» الستار عن حجم الطاقات المهدرة في تلك النوعية من الدول التي تخاطر بفقد أيٍّ من منافذها الإدارية الواعدة في وجه نسائها.

# الكتب الأكثر مبيعاً في القرن العشرين:

**يلح علينا دائماً سؤال «ما هيَ أكثر الكتب مبيعاً حول العالم؟» يثير الفضول بشكل كبير، فإن كان القارئ يرحل حول العالم بقراءاته.. فأي الكتب التي قامت بدورها برحلة واسعة عبر العالم وحققت الأرقام المليونية في المبيعات لتكون من أشهر الكتب..**
**لعل الجواب سيكون مؤشراً جيداً على ما استثار الجماهير القارئة مؤخراً وأي الكتب اعتبرت شعبية جداً بحيث تناسب مختلف الأعمار والمستويات والأجناس واللغات..**




## كتاب العناية بالطفل The Common Sense Book of Baby and Child Care:

كتاب العناية بالطفل للطبيب بنجامين سبوك. نشر الكتاب لأول مرة في عام 1946، وحقق شهرة عالية، وبيع منه 500,000 نسخة في الأشهر الستة الأولى. بعد وفاة سبوك في عام 1998، تشير الموسوعة البريطانية أنه بيع أكثر من 50 مليون نسخة من الكتاب، مما يجعل من الكتاب الأكثر مبيعاً في القرن العشرين في أمريكا، واعتباراً من عام 2011، وقد ترجم الكتاب إلى 39 لغة.

ساعد كتاب سبوك ثورة في أساليب تربية الطفل للجيل الذي وُلد بعد الحرب العالمية الثانية، وتعتمد الأمهات بشكل كبير على مشورة سبوك، ويؤكد سبوك في كتابه ذلك، قبل كل شيء، ينبغي أن يكون للآباء الثقة في قدراتهم والثقة في غرائزهم. وجاء في السطر الأول من الكتاب الشهير ما يلي: «ثق بنفسك، أنت تعرف أكثر مما كنت تعتقد أنك تفعل».

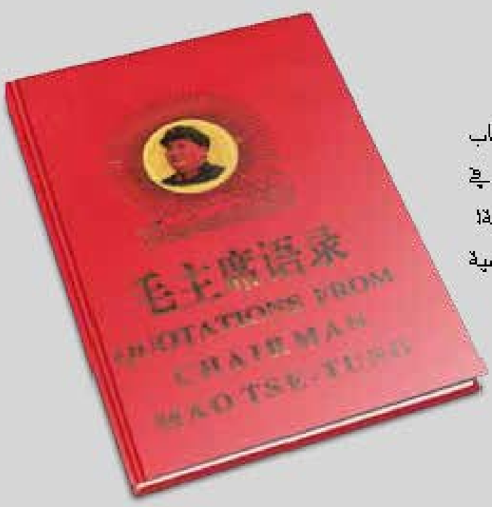



## رواية آن في المرتفعات الخضراء Anne of Green Gables:

رواية كتبتها المؤلفة الكندية لوسي مود مونتغمري (30 تشرين الثاني/نوفمبر 1874 – 24 نيسان/أبريل 1942). نُشرت الرواية لأول مرة في الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1908 وحققت نجاحاً فور صدورها، وأكثر شعبية وجدتها الرواية في اليابان، وأعيدت طباعتها عدة مرات حتى اليوم، وطبعت الرواية أكثر من 50 مليون نسخة، وترجمت إلى 36 لغة. تدور أحداث الرواية في كندا.

يتم تدريس الرواية للطلاب في جميع أنحاء العالم.

تحولت الرواية إلى مسلسلات تلفزيونية وكذلك أفلام سينمائية بدءاً من عام 1919 حينما تحولت إلى فيلم سينمائي صامت.

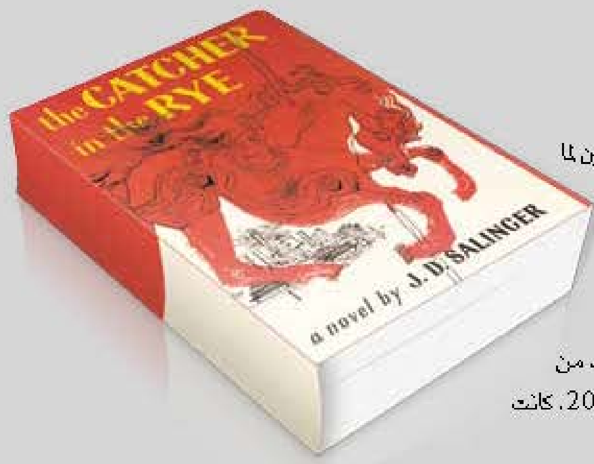



## الكتاب الأحمر Quotations from Chairman Mao Tse-tung

من أعمال تونغ ماو تسي شرح لشخصية وأيديولوجية الشعب الصيني والحزب الشيوعي الصيني وأطلق عليه الكتاب الأحمر. وهذا الكتاب باع ما يقرب من 820 مليون نسخة وقد وصل عدد النسخ إلى المليار نسخة تقريباً ودخل في موسوعة غينيس للأرقام القياسية. ويعد من أهم الكتيبات التي رسخت للفكر الماوي كتطور ثالث للماركسية اللينينية!

يحتوي الكتاب على اقتباسات من أقوال الرئيس الصيني ماو تسي تونغ من مقالاته وخطاباته والمقابلات الصحفية والتقارير السياسية يحتوي على اقتباسات مخصصة في مواضيع بحد ذاتها بلغت 33 موضوعاً.

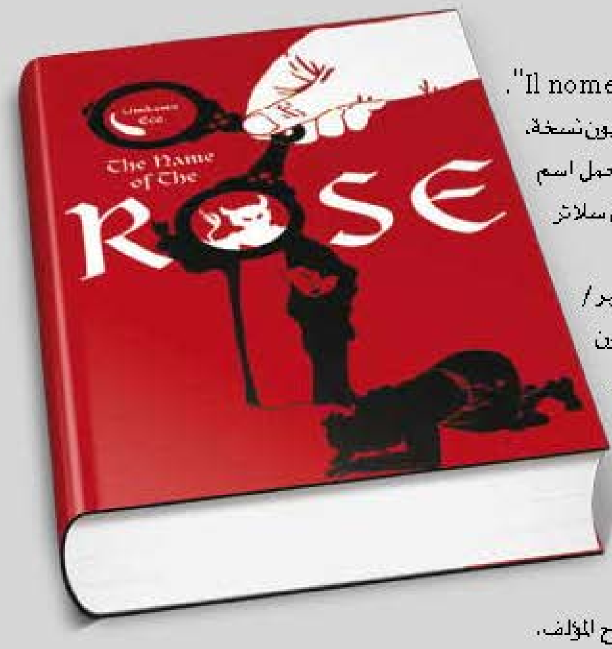
## رواية حارس الشوفان The Catcher in the Rye:




رواية مثيرة للجدل نشرت أصلا للبالغين في عام 1951 ،ومنذ صدورها أصبح لها شعبية من القراء المراهقين لما ما تحمله من موضوعات في القلق والاغتراب في سن المراهقة. ترجمت الرواية إلى معظم اللغات الرئيسية في العالم. ويتم بيع حوالي 250,000 نسخة سنوياً بإجمالي مبيعات أكثر من 65 مليون نسخة. وبطل الرواية هولدن كولفيلد الذي أصبح رمزاً للتمرد في سن المراهقة، وتتعامل الرواية أيضا مع القضايا المعقدة من الهوية ،والانتماء، والاغتراب.

أدرجت الرواية على قائمة أفضل 100 رواية باللغة الإنجليزية عام 2005 مكتوبة منذ عام 1923، وتُعد من قبل المكتبة الحديثة وقرائها كواحدة من أفضل 100 رواية باللغة الانجليزية من القرن العشرين. وفي عام 2003، كانت مدرجة في رقم 15 على قناة (بي بي سي) لأكبر مسح للقراءة.

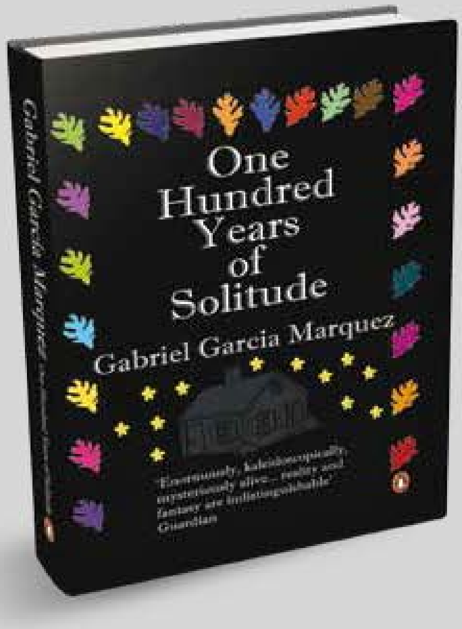
## رواية اسم الوردة The Name of the Rose:




رواية بوليسية لأومبرتو إكو، نشرت لأول مرة باللغة الإيطالية عام 1980 تحت عنوان "Il nome della rosa"، وترجمت للإنكليزية عام 1983، وإلى الكثير من اللغات الأخرى لاحقاً، وبلغ عدد طبعات الرواية 50 مليون نسخة. وقد حققت هذه الرواية نجاحاً كبيراً أدى في نهاية المطاف إلى تجسيد أحداثها في فيلم عام 1986 يحمل اسم الرواية "Der Name der Rose" من بطولة الفنان العالمي شون كونري والممثل الأمريكي كريستيان سلاتر وإخراج الفرنسي جان جاك آنود.

تدور أحداثها الغامضة في أحد أديرة شمال إيطاليا التابع للرهبنة البندكتية، وذلك في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1327، حيث تتكرر في الدير جرائم قتل مريبة ضحاياها جميعهم من النساك، ويكون التفسير الوحيد للرهبان حول هذه الظاهرة وجود روح شريرة (الشيطان) داخل جدران ديرهم، ولكن رجل واحد يشك في وجود شخص ما يقف وراء جميع تلك الجرائم، ذاك الرجل هو راهب ضيف يدعى ويليم من باسكرفيل يتبع الرهبنة الفرانسيسكانية وهو شخص حاد الذكاء سريع البديهة يعتمد على عقله في الإجابة على أي شيء، عمل سابقاً كمحقق في محاكم التفتيش ولكنه تخلى عن وظيفته تلك بعدما رأى أن مهمة محاكم التفتيش لم تعد فقط إرشاد الناس بل أيضاً معاقبتهم وبوسائل بشعة بعيدة عن روح المسيحية.

يقوم ويليم بزيارة للدير –المذكور سابقاً- مع تلميذه آدزو الذي قام هو نفسه بتدوين القصة كما يقترح المؤلف، وبعد سلسلة من الأحداث الشيقة يصطدم فيها الراهب ويليم بأحد محققي محاكم التفتيش الذي كان قد اتهمه سابقاً بالهرطقة مهدداً إياه بالموت، ولكن في نهاية الأمر يتمكن ويليم من فك ألغاز الجريمة، ويتوصل لمعرفة القاتل الحقيقي.




## رواية مائة عام من العزلة One Hundred Years of Solitude

رواية للكاتب غابرييل غارثيا ماركيز، نشرت عام 1967، وطبع منها قرابة 50 مليون نسخة، وترجمت إلى ثلاثين لغة وقد كتبها ماركيز عام 1965 في المكسيك، بعد ذلك بسنتين نشرت سودا أمريكانا للنشر في الأرجنتين ثمانية ألف نسخة، وتعد هذه الرواية من أهم الأعمال الأسبانية الأمريكية خاصة، ومن أهم الأعمال الأدبية العالمية، مائة عام من العزلة هي من أكثر الروايات المقروءة والمترجمة للغات أخرى.

يروي الكاتب أحداث المدينة من خلال سيرة عائلة بوينديا على مدى ستة أجيال الذين يعيشون في قرية خيالية تدعى ماكوندو، ويسمون الكثير من أبنائهم في الرواية بهذا الاسم.



# بأي ذبح ستفديني؟

شعر: فاتحة معمري

الجزائر

يا قاطعاً بي حبال الوصل وا أسفي
يا من ظننتك يوماً بالعهود تفي
تغفو الليالي على وهم يؤملها
حتى شكى جِنة الليل الكرى تلفي
كم ذكريات على أكتافنا حملت
خطت سكاكين هذا الجرح في الصحف
ما لي أرى خنجراً بي ساح مقبضه
لما ذبحت الهوى في رجفة السعف
هل يا ترى صدقت رؤياك أزمني
حق على ظلمك الممزوج بالشرف
حق عليك ترى الأقدار هازئة
كفي عليك و (صَهْ) هيهات أن تصفي
ما لي ولؤمك كم بدلت أقنعة
أنت الصدوق ولي كيّالة الحشف ؟
جاءت عشاء لها آلاف أحجية
تبكي بضاعتها المزجاة للترف
غابَ البشير وطال البعد مبعثه
يشكو الإلهَ فتى في الجب لم يطف

قلبي لديك بفرط الذبح مشتعل
فامدد يديك على أوجاعه وقف
واشدد على يدك الأخرى تشديدا
وانصت لزلزال هذا الخفق لا تخف
إسبح ببحر الصفا أرجوك خذ بيدي
جذف لبرّ الوفا كن خير مغترف
لا يخدعنْ غرور فاح عنبره
سدّ العطور شموخ الشم بالأنف
تالله ليس سواك العين تنظره
في كل طرفة شوق صادق العلف
روحي تعض فهل عطشى نواجذها
جنّى جنوني بها كالواله الشغِف
ألق القميص الذي تحيي به نظري
أنا كظيمك قُمْ ضئْ ظلمة الغرف

# ما تنبأت أمي

شعر: سعاد التوزاني - المغرب

.. ما تنبأت أمي أن أكون
هواء لا رئة له في جسم الأرض
أو حتى قشرة قمح تستفها شفاه الريح
جناح طاحونة يتشبه بكبير السرب
ريشة نورس تركها خلفه
ذكرى لأعز الناظرين

.. ما تنبأت أمي أن أكون
حبة غبار عزيزة النفس
لا تقبل أن تثقل على حصى
رفرفة فراشة
تحط على زهرة ثلج
على منحوتة ملح
على نيلوفر متطاير ، مل
الرقاد ، وسط البركة

.. ما تنبأت أمي أن أكون
ظل شجرة الأرز ، يتبرأ من
زينة المصابيح
و الأجراس
و الشرائط المذهبة
و علب الهدايا اللامعة

.. ما تنبأت أمي أن أكون
هبة حلم يسترخي فوق
هدأة نخلة
فجراً يزيح العمش عن نسمته
دعاء مناديل بيضاء
يلوح بها المودعون على سطح المراكب

.. ما تنبأت أمي أن أكون
غمزة امتنان من حبق
لسيد البستان
صدى ماء بارد في جرة الغجر
صلاة دومة في الرمال المتحركة
تنشد الخلاص من جذور
متشابكة

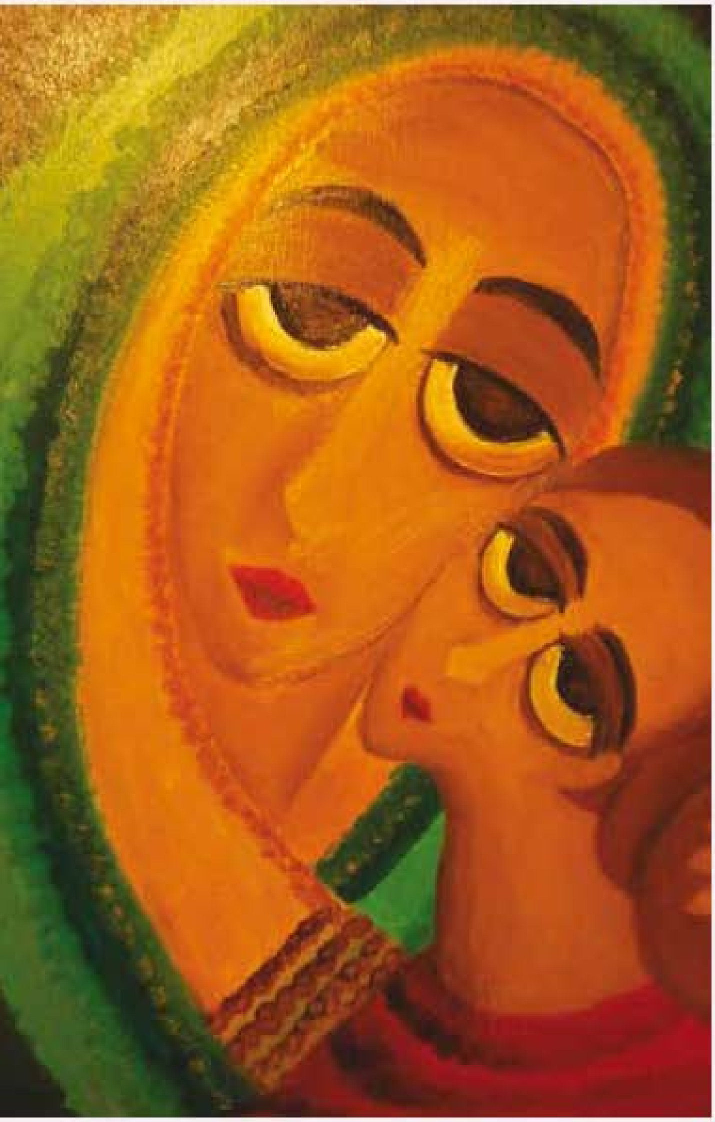
.. ما تنبأت أمي أن أكون
حفيفاً يستأنس بلغط الكتاكيت
صلح مد و جزر بخاتم زبدي
انسكاب غسق على شفاه شقائق النعمان

.. ما تنبأت أمي أن أكون
نفخة في بوق الصالحين
صيحة في - وادي الأوحال
بحق ضعفي الآدمي
لا يصبح فيه القوم جاثمين

.. ما تنبأت أمي أن أكون
رشة من عصارة عشب للظامئين
ريحاً غريبة الخصب لمشتهى
الزيزفون
أو عطر بوح في جعبة قصب أخضر

.. ما تنبأت أمي أن أكون
هلاماً معلقاً في صومعة
لا يراه النساك
بلسماً من ربطة بابونج سماوية
شحنة رعد فوق غيم
يجري وراء البرق
أن أكون
همسة تشق الطريق
لسواقي الحقول
حيرة أقحوانة سامقة
لمن تحني الجانب الأيسر

.. ما تنبأت أمي
ما تنبأت
ما تنبأت
أن أكون
لو أكون





# التأسيس لنظرة في الكون والحياة

تامر جابر محمود

**لابد للعلم من فلسفة (أو سَمِّها حِكمة)، تُفسِّره وتجمع شتاته، وتُبيِّن ما وراءه لعوام الناس من غير العلماء. بهذا أمسى العلم ببقاع الأرض (عدا واحدة)، ديناً يحيا به الناس كل يوم، من تنظيمهم لعاداتهم الغذائية على أساسه، لجعله ترفيهاً يُروِّحون به عن نفوسهم بعد يوم عمل شاق، بقنوات علمية لا حصر لها. بل وبصِبْغَة آدابهم به، مما أثمر ديوان الأَدَب العلمي الغني عن الإشارة. فأمسَوا ولا تكاد تتفقد موضعاً من مواضع حياتهم، لم يُؤسِّس على العلمِ، أو يُزيَّن به. فأوْرَثَهُمْ هذا جَذاذاً وارفةً من الأمن والرفاهية والحياة اليسيرة الرَّخِيَّة. ولم يزل كل يوم عليهم في دنياهم، خير من الذي سبقه ثمرة ذلك. ودع عنك حُجّة البُلداء.**

أمَّا بيقعتنا المُستثناة، فلم تزل القطيعة التامة (بل المُوحشة)، بين ديانة العلم وديانة الناس، نهجاً مُتبعاً، لاهين ومُتلاهين، عن كون السُّنن التي يُعالجها العلم، كلمة حق ملأ الله بها سمواته وأرضه، وأمَرَنا القرآن نفسه بإصاخة السمع لها، دون جدوى، يقول تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (سورة الروم - الآية 8)

ولطالما ساءلتُ الآباء الذين ألتقيهم: هل عَرفنا نحن الآباء والأمهات، هذا الحق الذي ملأ طباق سماوات الله وأرضه، فملأنا قلوب أبنائنا منه، وأوتجناهم بحب سبيله؟!، أم هل ظننا أن كل واجبنا نحو أطفالنا، هو ملء معدتهم طعاماً؟، وأن الله لن يُحاسبنا يوم القيامة، عما مُلأتْ به أفئدتهم وأدمغتهم وهم بعهدتنا، وعن النظرة التي كَوَّنُوها عن الوجود والحياة، فصحبتهم ما بَقِيَ من عُمرهم؟، ألم نعلم بأن العقل أثمن وأبهى ما زوَّد الله به فلذاتنا، فإن عُطِّلَ أو أُفسِدَ، فَسَدَ أداؤه لمهمة عُظمى، سَمَّتها الزهراء الأولى «الخلافة في الأرض»؟ ولعمرك لا هي بالمهمة الهيِّنة، ولا التي بالوسع التَّنَصُّل منها.

لقد ترتَّب على تراخينا في تزويد أبنائنا بخير الذخيرة ... ذخيرة العلم، أنْ سار أهل الكوكب جُملةً إلى وِجْهَة، وسِرْنَا نحن إلى وجهة أخرى معلومة بالطبع!، فضيَّعنا بهذا أغلى وأثمن ما بحياة الطفل المسلم، وهو معايشته العلم كمعتقد ودين ، فأغلقنا دونه أرحب باب لمعرفة ربه، وأغنى مادة لتزكية قلبه وروحه.

ولم نزل نقصي علماء الفيزياء والكيمياء والرياضيات، عن الإدلاء بدلوهم الرائق في معتقد الطفل، وسلوكه إلى الله، على الرغم من مخالفة ذلك للغايات وللوسائل القرآنية، ولمهمة الخلافة المَنوطة بهذا الطفل، فكانت أصح نتيجة عن إقصاء العلماء المذكورين عن تَعَهُّد عقل الطفل العربي، وأصوب رصد وتحليل لشيوع الإرهاب باسم المعتقد في الوقت نفسه، ما أشار له أحد المراقبين، من ميل جماعات العنف والإرهاب جميعاً لمسلك واحد هو (اختصار وتبسيط العالم)، اختصارٌ يتمثل في «إما إيماننا .... أو كُفرهم»، مُختزلاً الوجود في فكرة معسكرين، أحدهما للإيمان والآخر للكفر، ثم اختصار الإسلام نفسه في فكرة أو فكرتين، بحيث لا يتطلب تطبيقهما الكثير من إعمال العقل أو التفكير، وهو رصد تُؤيده الدراسة التي نشرتها صحيفة (نيو ريبابليك) New. Republic مُؤخراً، إذ تُساءل الدراسةُ القارئَ ابتداءً، عن آخر ما قد يرْغبُ اثنان من المسلمين البريطانيين من أصول باكستانية، في التزود به، قبل أن يغادرا محلهما في برمنجهام، متوجهين للقتال مع (داعش) بسوريا ، فتُخَبِّر القارئ ما بين (معالم في الطريق) لسيد قطب، أو (رسالتي للعالم) لأسامة بن لادن، أو أحد الكتب المُتَطَرِّفة، والتي تحوي طُرقاً مختصرة لصناعة القنابل والتفجير عن بُعد وخلافه، لتعودَ فتنفي كل ذلك، ولتفجع القارئ بأن آخر ما ابتاعه (يوسف سرور) و (محمد أحمد) قُبَيل مغادرتهما ، كان كتابين ساذجين، أحدهما عن الإسلام والثاني عن القرآن، من سلسلة (For.Dummies) الشهيرة للمبتدئين.

(اختصار وتبسيط العالم) ... تلك كانت – ولا تزال – آفة العقل العربي، صحيحٌ اقتصر أثرها بالسابق على تخلف الثمرة العلمية والاقتصادية، لكنها من اليوم فصاعداً، ستُمسي مُفَرِّخَة لأجيال من أمثال سرور ويوسف، وأبو سلمة المصري، لتُسلِّم هؤلاء راية الإجهاز على حُطام ما يُعرف، بالشرق الأوسط القديم، مفرخة بوقتها مناهجنا الهزيلة لعلوم الربوبية والألوهية، وحليتها نظم التعليم الفاشلة، وإجرام الآباء الذين لم يجدوا من بين أربع وعشرين ساعة يومياً، نصف ساعة يُجالسون فيها فلذات أكبادهم، فيتعهدوا فيها عقولهم وقلوبهم، ويُرَبُّوا فيها أفكارهم ومعتقداتهم، مثلما ربُّوا مَعِدَهم، قبل الحسرة من فقدهم، وقبل أن تذهب وراءهم إلى الضياع، أشياء أخرى جميلة وقيِّمة.

إنني أدعوك في الختام، للعودة للنبع الصافي، فتقيس بنفسك ضيق آراء الرجال، على سعة القرآن ورحابة هديه، فإصلاح (الخطاب الديني) المرجو، شيء يتجاوز بكثير، مجرد تقويم (الخطابة الدينية)، فإن سألت عن البداية وعن السبيل، فقيما تقرأ عيناك جُهدي وخلاصتي، فماذا أنت فاعل ...؟؟

# بالفعل والتفعيل

د. نهلة عوده الوشاح - جدة

أبدأ سطوري بكل المعايير الجمالية التي تعيش بداخلنا من لحظة الوجود حين بدأت النفس بفطرة الخالق لها تجيد العلوم المعابرة بمقياس جمالي تنبض الروح من وحي القلب الرحيم، ونبدأ نستعد بعقل حكيم ونعيش الضمير، فهيهات لتلك العناصر المدخلة بموجب المتغير الدخيل من مثيرات تعمل على الاستجابة بفعل الفعل والتفعيل، ويبدأ التسجيل في اللاوعي بعرف كل العلوم بالمعرفة والتفصيل.

نعمل على البحوث وندرك الجداول في التنظيم بعد عملية الجميع لكل أنواع المعرفة لمختلف العلوم وبالترتيب والتصنيف نعمل على كل قطرة في بحور التجارب لإيجاد الحلول واستكشاف إن كان من الكم والكيف تصنف العقول بعد كل تجربة في عداد المفكر والمبتكر لكل عقل وضع في مختبرات الخبراء لكل شخصية يكتب بكل نمط يكون من حيث كل حركة له نترجمه بالعيون وكل كلمة تحرك اللسان نبلورها بأنواع السمع بكل درجة لصوت المخرجات تكون، ونلعب على وتر الإحساس بانخفاض الصوت وكل خطوات المشي بميل وأطرق أبواب الكون بمختلف الطبيعة والتضاريس في كل بقاع الأرض لها تلوين بكل شخصية تحمل جرعات من جمال المكنون وكل مخلوق خلق له نوع من التلوين، وتجذبنا النار حين يطفئها التراب من حين وتأتي الرياح المحملة بالتراب ليطفئها الماء لحين، ونتأمل البحار حين نعمل على مزج النار مع التراب ونطفئها بالماء لنلون كل حرارة وبرودة بالمتوسط وعمل الوسيط في كل نفس وعقل وفكر نتحاور من خلال كل ملف في الترميز مخزن كل تجربة أو معرفة أو خبرة في قاموس المصطلحات من إيجابية أو سلبية تكون إنساناً كما أنت تريد لا كما هم يريدون، فقط عليكم أن تكونوا كما الموقف يريد بقلب رحيم وعقل حكيم تعيش الضمير.

# زينة الحياة الدنيا

بقلم : سعاد الورفلي - ليبيا

في بلدي لا تستقر الطيور تتناوب في رحلات متلاحقة، قد أسميها «مكوكية»، فهي تنتقل أسراباً أسراباً تسبح في الفضاء العميق، وتطول رحلة البحث عن الاستقرار، لكنها سرعان ما تعود وتصر على بناء أعشاشها فوق أشجار الزيتون والكرم والسرول؛ المزروع على حواف الطريق عبر رقعة بلادي الشاسعة.

هناك التقى شابان على شاطئ البحر، أحدهما أبكم والآخر ثرثار، لكن كيف يأتي هذا التضاد العجيب ويلتقي اثنان، تختلف طريقتهما في الحياة بطريقة عجائبية؛ ناطق وساكت، هادئ ومشاغب، محاور يقابله فضاء صامت يمتثل في إنسان !

تحدث الشاب في كل شيء وعن كل شيء، تحدث عن الطيور التي تملأ مساحة الوطن، عن ألوانها حتى أنه أخبر الشاب الملتزم بالصمت أنه يبيع الطيور، ويستوردها من خارج البلد ! سحب نقاله من جيبه ليريه الصور المتنوعة لأنواع الطيور: هذا ببغاء أفريقي، وهذا الطائر من ساحل العاج، وهذا لونه جميل وصوته أجمل ...

آه يا صديقي لو تسمع صداه في يوم حزين ستصاب بالغبطة والفرح، لقد كان ثمنه غالياً، يشترونه مني الأثرياء فهم يصابون بالكآبة دائماً ولديهم هاجس أن صوت هذا الطائر يزيل الكآبة .. نعم ...

حدثني رجل ثري؛ يتاجر في كل شيء حتى الأعضاء البشرية أخبرني أنه لا ينام أبداً – لا يعرف معنى النوم- مصاب بالإحباط والإفلاس النفسي، سحب سيجارة لو رأيتها لاندهشت منها ! فحجمها كبير ورائحتها جذابة، والأغرب من ذلك أنها لا تنتهي أبداً ... كلما امتصها شعرت أن السيجار ازداد طولاً ...!! قال لي وهو ينفث دخانه: هل عندك طيور تجلب السعادة؟!

ضحكتُ أمامه متظاهراً بالاعتداد قائلاً: طلب رخيص .. تفضل ها هو العرض أمامك تماماً واختر ما شئت من زينة الحياة الدنيا ..

بدّل خطواته الثقيلة كثقل نفسه بين أقفية المحل، ونظر كثيراً متفحصاً في طائر عجز كثير من الزبائن في وضع اسم لألوانه المتنوعة، فله ألوان غرائبية جداً ؛ لم أقرأ عنها ولم أشاهد مثلها في الطبيعة .. أشار بأصبعه الذي يحمل الأصبع الآخر – أقصد السيجار- قائلاً: هذا – هذا نعم ... لقد أصبتُ بشيء من الارتياح مجرد أن نظرت إليه، كأنه يحاورني بعينيه ويعرف أنني أحتاج إليه ... ضُمه إليّ ...

وأخذته بلهفة وضممته في أجمل قفص، ناولتُ المال وناول الرجل القفص ..

بعد أيام جاءني الرجل نفسُه وبصحبته (المدام) تبدو سيدة في منتصف العمر، حاجباها معقودان وشفتاها ملتصقان ببعضهما، وتمتنعان عن الابتسام يبدو عليها الضيق، اقترب مني قائلاً: اختر أحلى ما عندك لزوجتي العزيزة، فهي حسدتني على الفرحة التي غمرتني منذ أن اشتريتُ منك سعدون!

قلت: ومن سعدون هذا؟ ضحك الرجل طرباً وقال: العصفور ذو الألوان الغرائبية!

لقد تفرغتُ لطعامه وشرابه ومحادثته، أكاد أن أسجل صوته ورقم هاتفه بجوالي، واسترسل الرجل ضاحكاً ...

اقتربت السيدة من عصفور صغير جداً جداً؛ يمتاز بلون أبيض يخامره الاصفرار بين ريشاته الحريرية، ورقبته تبدو متموجة، بابتسامة باهتة أشارت: هذا ...

أومأتُ برأسي .. حسناً ... تفضلي بكل سرور سيدتي ... رأيتها تداعبه بصمت .. حينها اقترب زوجها مني وهو يقول: زوجتي منذ أن فشلت في أن تنجب لي طفلا .. أصيبت بشيء غير مفهوم، كرهت الأطفال! وسماع أصواتهم .. لقد أنجبت في البداية؛ لكنهم لا يعيشون !! ذهبتُ بها إلى أصقاع الدنيا، غير أنه كُتب علينا الحرمان من الذرية .. بتنا نراها من حولنا لكننا لا نملكها ...

انتهى حديثي مع هذا الرجل الذي يبيع كل شيء ولا يملك شيئاً!

التفتُ لمرافقي الذي يجلس بجواري ولا يأبه لكلامي، غير أنه يطيل النظر في البحر، أشرتُ إليه: هَيْ هَيْ.... أنت لا تسمعني ؟!!!!

لكنني فوجئتُ بعد هذا السرد الطويل، والضحك والحكايات المتنوعة التي جلتُ وصلتُ بها شرقاً وغرباً؛ أن جليسي لا يمتلك من رأسه سوى النظر! فلا هو يسمع ولا يتكلم ....

علمتُ حينها أن زينة الحياة الدنيا لم تكن فقط الذرية ... أو ما نمتلكه في أجسامنا من صحة وعافية، أو ما نتوهمه في هذه الحياة أنه سعادة ونعيم ...

إن زينة الحياة الدنيا : في كل ما حولنا من طيور تضفي السعادة على حياتنا، وبحر يمتد لآهاتنا، وسماء نرفع أبصارنا نحوها في ساعات الضيق؛ فتنجلي وتنشرح صدورنا ... وأناسٌ يستمعون إلينا بكل هدوء – فقط - لنتحدث نحن بانطلاق يلقى صداه بين أفانين الحياة.

# تكنولوجيا الأسئلة



محمد شلبي - مصر

أين ومتى طرحت سؤالاً جيداً على نفسك وعلى آخرين!؟ للأسف علمونا لسنوات طوال كيف نجاوب، ما تعلمنا نسأل! وكبرنا ونحن نعانى هذا الافتقار إلى الأسئلة الجيدة في العمل والحياة الخاصة، وتسهم تكنولوجيا الأسئلة في سد هذا النقص لتزيد من قدرتنا على طرح الأسئلة الذكية وممارسة التفكير الناقد.

والسطور الآتية تحمل لنا تطبيقات وقصصاً طريفة وملهمة لفهم واستعمال 3 تقنيات للأسئلة هي:

1. تقنية الأصدقاء الست باستخدام الخرائط الذهنية.
2. تقنية السلسلة الخلفية.
3. تقنية الأسئلة في المواقف الحرجة.

## تقنية الأصدقاء الست

يخبرنا الشاعر الإنجليزي كبلنج عن ستة من خدمه المخلصين! علموه كل ما يعرف. وأسماؤهم هي ماذا ولماذا ومتى وكيف وأين ومن. وأخبرك هنا عن قصة لأصدقاء كبلنج الست طريفة وملهمة..

## خبرة شخصية مع الأصدقاء الست

سألني مصطفى ابن أخي، وهو تلميذ بالمرحلة الابتدائية، لأساعده في كتابة موضوع تعبير مدرسي عن (التعاون). وطلب مني تحديداً قائمة بعناصر الموضوع، فاعتذرت له، وطلبت أنا بدوري منه أن يفكر بنفسه في عناصر الموضوع بمساعدة الأصدقاء الست!

وبمرح أحضرنا ورقة بيضاء وأقلامًا ملونة ووضعنا دائرة في الوسط بها عنوان موضوع التعبير المطلوب، ومن الدائرة رسمنا أفرع ستة حملت له أسماء أصدقائه الجدد.

وخرج مصطفى من حالة قصور ليفكر بنفسه ويكتب بنفسه قائمة عناصر موضوعه:

1. معنى التعاون ماذا؟!
2. الفائدة من التعاون لماذا؟!
3. من نتعاون معهم؟
4. متى يصبح التعاون ضرورة؟
5. كيف نتعاون؟
6. التعاون في المدرسة والبيت والحى أين؟

وضع ابن أخي بين يدى بفخر موضوع تعبير (تحليلي) عن التعاون من ٤ صفحات كاملة! والطريف أنه وثق علاقته بالأصدقاء الست وصار عنصراً مزعجاً بمدرسته. كما اشتكى منه والده لكثرة أسئلته وصعوبة انقياده! ولك أن تتصور ما يمكن أن يواجه مصطفى في مسجد الحي من شيخ اعتاد الإملاء والتلقين وتأمين الحضور وراءه.

## تقنية السلسلة الخلفية

وينضم عوف إلى مصطفى في تكنولوجيا الأسئلة الجديدة، بعد أن ترك لي صديق سعودي كتابين هدية في الاستقبال بالسكن في العليا بالرياض. فهاتفته سريعاً لشكره لكن رد عليّ عوف ابنه الأصغر. سألته عن والده د. جمعان القحطاني.

فسأل عوف: لماذا؟ أو (ليش) تبغى أبي؟ قلت: لأشكره على الكتب. فكرر لماذا للمرة الثانية: (ليش) تشكره على الكتب؟ هنا توقفت لأفكر معه.. وربما هذا ما نجح فيه عوف بطريقته هذه.

والإثارة هنا في تكرار لماذا 2-4 مرات بتتابع في سلسلة خلفية لمعالجة مسألة واحدة. ومن رقم 2 ستجد نفسك في مغامرة فلسفية تساعدك على ممارسة التفكير بطريقة سحرية ومختلفة.

واستمرت تقنية عوف هذه للعمل في الاستشارات وتطوير الأعمال، وذلك حين سألني مدير تنفيذي لتقديم برنامج تدريبي لتحسين مردود الاتصالات الهاتفية بالعملاء القدامى لسلسلة محال البصريات.

سألته لماذا 1 يجرى اتصالات هاتفية بالعملاء القدامى لمحل بصريات؟ فأجاب: للاحتفاظ بهم.

وسألته لماذا 2 الاحتفاظ بالعملاء القدامى مهم بالنسبة له؟ أجاب: لتوفير أساس قوى للتوسع في أعماله. هنا استثرت خياله للبحث في طرق بديلة للاحتفاظ بعملائه من دون اتصالات هاتفية ربما تكون مربكة للبعض!

## ماذا تسأل عندما لا تعرف ماذا تقول

الأسئلة تقنية لغوية فاعلة للخروج من المواقف الحرجة، وللتعامل مع تحرشات لفظية! لديك أصدقاء ست لتقديم الدعم والإسناد!

## التعامل مع الازدراء

في الحياة الخاصة:

ألم تنتهى من غسيل الأطباق بعد!

الأصدقاء الست: لامتى كنت تريدني أن أنتهى منها؟

في العمل:

أحدهم يقلل من قيمة فكرتك ويصفها بالمثالية وغير الواقعية.

الأصدقاء الست: ماذا تقترح أنت لتحسينها وتطبيقها؟

أحدهم يملي عليك ما تفعله، ويبالغ في استخدام صيغة الأمر!

- أين ذهبت «من فضلك»؟

في المطعم، الفندق، المتجر..

استقبال بارد وغير مبال!

- لماذا الاستقبال هكذا؟ هل سيقضى اللطف عليك؟!

## التعامل مع الإزعاج والمضايقة

زميل يتصرف برعونة

- قلة نوم هذه أم قلة أدب؟

أحدهم يستثيرك باستمرار، ويستخدمك هدفاً لدعاباته.

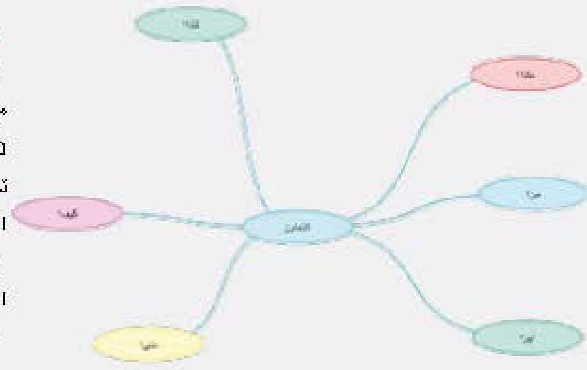
- متى ستنتهي هذه الدعابات؟

- رصيد النكت والعقد لديك كارت أم اشتراك؟

- هل تحاول أن تكون شريراً أم غبياً؟

**صدمة فيسك**

آخر صدمة إيجابية بالنهاية لروبرت فيسك حين صرخ No NO NO لهتاف حضور بقناة الجزيرة مسقط حكم العسكر ليسألهم: ماذا بعد سقوط حكم العسكر؟ أي دولة تريدون؟ صدمة كانت لبقاء قاصر يردد ما يسمعه بدلاً من طرح الأسئلة!



**خلاصة**

توجد طريقة ثورية أخرى لتنظر إلى عالمك كسلسلة من الأسئلة، فالموت سؤال والحياة سؤال. الأسئلة عنصر ثابت في وجودنا كالهواء الذي تتنفسه، وهذا جيد كي لا تحرم نفسك من متعة الاستكشاف الذاتي والبحث في الاحتمالات!

إن روحك الصغيرة داخلك تتوق إلى طرح الأسئلة كما الأطفال، فقط تذكر هذا التتابع البسيط بحلقاته الثلاث:

- توقف عن البحث عما تقول.
- وجه سؤالاً قادراً على التركيز والإيضاح.
- أصغ جيداً للإجابة.

# سرعة في نقل الخبر مع عدم تحري الدقة


ريم علي الحاجي محمد

الأحساء


مواكبة لوسائل التواصل الاجتماعي ونتيجة لحرص أفراد المجتمع بأن يكون لهم السبق في نقل المعلومة إلى من يهمه الأمر أو لا يهمه، وبغض النظر إن كانت هذه المعلومة ذات فائدة للمنقول له أو أن نقلها قد يتسبب في الضرر النفسي للمنقول إليه. أصبحت أخبار المجتمع في متناول الجميع والفضل يعود إلى سوء استخدام وسائل التواصل الاجتماعي والتقنيات الحديثة المتوافرة.

الواقع المؤلم الذي وصلنا إليه هو تهافت الجميع على سرعة النقل للخبر دون الالتفات إلى أهمية الدقة فيه، ومدى مصداقيته. وسيكون الخبر أقوى حينما يكون هذا الخبر موثقاً بالصور دون مراعاة تأثيرها السلبي على نفوس متلقيها.

كم من والدة أفاقت على خبر منشور في (الواتس آب) بخبر وفاة موثق بصور الجثث بعد الحادث، لتكتشف أن هذا الخبر يخص إحدى فلذات كبدها، وكم من شخص تفاجأ برسالة تنعى أحد الراحلين للآخرة، ليتفاجأ أن هذا الراحل أمه / أبيه / أخاه / أخته. فسرعة النقل تجاوزت مراعاة المشاعر والأسلوب في النقل، وسبقت ذويهم في نقل الخبر لهم بكل هدوء ورحمة.

لم تعد للمشاعر الإنسانية أي موقع في حياتنا، فكم من مار على حادث سير لم يتوقف لإنقاذ أصحابه، وإنما التقاط بعض الصور التي يبادر لنشرها ويتنقل من مكان الحادث وكأن شيئاً لم يكن، فالمهم الخبر والصور.

إضافة إلى ذلك الرغبة العارمة التي استولت على عقول البشرية في نشر الأخبار المتعلقة بالأفراد، سواء كانت أخباراً خاصة أم عامة، ويزداد أفق النشر إن كان الخبر يحتوي على فضيحة لشخص ما ولعائلة معينة، وكأن للموضوع له علاقة بالتشفي من هذه العائلة أو ذلك الفرد.

أتساءل: هل أصبحت حياة الأفراد والمجتمعات سبقاً صحفياً متاح للجميع النشر بسرعة البرق دون تحري دقة الخبر، وإن كان الخبر صحيحاً، ألا نراعي المشاعر الإنسانية ومدى التأثير السلبي الناتج من نشر هذا الخبر وتلك الفضيحة، وصور الحادث وبشاعة مشاهد الدم والكوارث.

أنا أكيدة أن أول إجابة ستأتيني أن الأجهزة الحديثة هي السبب، وأن التقنيات الجديدة غزانا بها الغرب لتدمير المجتمعات ولشغلها في أنفسها عما هو أهم.

ولكن يبقى السؤال:

أين عقولنا المدركة لعواقب الأمور؟! أين المبادئ التي تربينا عليها؟!

أين الدين الذي نفاخر به بين الأمم؟!

> «الواقع المؤلم الذي وصلنا إليه هو تهافت الجميع على سرعة النقل للخبر دون الالتفات إلى أهمية الدقة فيه، ومدى مصداقيته»



# المنهج الدراسي اللاصفي

## أثر الرحلات والزيارات المدرسية في التعليم..(2)



**عبد الله بن محمد اليوسف**

الرياض

**تُعد الرحلات والزيارات من أهم الأنشطة المدرسية إثراء لخبرات الطالب التربوية والاجتماعية كما أنها من الأساليب التي تساعد على الترويح واكتساب المعارف. ولذلك فهما وسيلتان لتحقق كثيراً من الأهداف التربوية..**

1 - ترسيخ العقيدة الإسلامية لدى الطلاب، وذلك بالتفكر والتدبر في هذا الكون الواسع والمخلوقات العظيمة، والذي يؤدي ومن ثم إلى تعظيم الخالق وإجلاله والإيمان به.

2 - تعرف الطالب على المجتمع والبيئة المحيطة والبيئات الأخرى ومعالمها الجغرافية والتاريخية والعلمية وغيرها.

3 - الاطلاع على معالم النهضة والتقدم في أنحاء الوطن ومنشآته ومشروعاته الحضارية والعمرانية.

4 - ربط المادة الدراسية من الناحية النظرية بالواقع العملي المشاهد والمحسوس.

5 - تدعيم الجوانب التربوية لدى الطلاب من حيث تنمية العلاقات الاجتماعية والتدريب على الاعتماد على النفس بعد الله والتعاون والتآلف والمحبة.

6 - استثمار أوقات فراغ الطلاب فيما يعود عليهم بالمنفعة والفائدة.

7 - تحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي والرحمة من خلال الزيارات الطلابية للمستشفيات ومراكز المعوقين ونحوها.

8 - تحقيق المتعة للطالب والترويح عن النفس في إطار الضوابط الشرعية والتربوية.

*أنواع الرحلات والزيارات: تتنوع الرحلات والزيارات بحسب المرحلة الدراسية وفقاً للعمر:

-أ) - الرحلات :- لجميع المراحل التعليمية

1 - وهي رحلات داخلية ضمن محيط المدينة أو ضواحيها أو البيئة المدرسية، خارج المدينة على مستوى البلاد للمناطق الأخرى:

2 - رحلات خارجية إقليمية أو دولية.

ب) - الزيارات : لجميع المراحل التعليمية

1 - زيارات للبيئة المحلية للمصالح الحكومية والمرافق الخدمية والجمعيات الخيرية والمصانع والمؤسسات والمنشآت الحكومية لجميع المراحل التعليمية.

2 - زيارات المدارس بعضها لبعض ( تبادل الزيارات) لجميع المراحل التعليمية.

3 -زيارات برية، بحرية، ترفيهية، علمية، اجتماعية، تاريخية، ثقافية.......إلخ

برامج الرحلات والزيارات

أ) - برنامج الرحلة:

1. لا بد من تحديد برنامج الرحلة الزمني من يوم وساعة القيام وحتى ساعة العودة، ويتم إعداد هذا البرنامج من قبل المشرف على الرحلة.

2. كما أنه يجب أن يكون البرنامج في خدمة المادة الدراسية ما أمكن ذلك.

ب) - برنامج الزيارة:- وذلك بتحديد الجهة المزارة ويتم التنسيق في وضع برنامج الزيارة من بدايتها حتى نهايتها وذلك بالتعرف على جميع مرافق الجهة المزارة وأقسامها ومحتوياتها ولا بد من توافر بعض الخطوات التي تقوم بها جماعة الرحلات داخل المدرسة مثل:

1. التعريف بمفهوم الرحلات أو الزيارة وهدفها وتوزيع الأدوار وكيف يتم ومدى الالتزام بذلك وأثره في نجاح الرحلة.

2. دور الطالب بصفة خاصة والمواطن بشكل عام في المحافظة على البيئة في أثناء الرحلات.

3. إحضار بعض النماذج من رحلات الطلاب الخاصة والاستفادة مما يقدمه مثل هؤلاء الطلاب من تقارير.

4. تنفيذ بعض الرحلات والزيارات سواءٌ كان ذلك في المجال العلمي أو الثقافي أو الترويحي.

5. تقديم برامج ترفيهية وإذاعية عن الرحلات والزيارات وإصدار صحيفة خاصة عن نشاطات الجماعة ومساهماتها في العمل المدرسي.

6. إصدار النشرات عن الأماكن التي يمكن زيارتها.

7. التعريف بجوانب النهضة التي تعيشها البلاد والمعالم الحضارية بها والتي يمكن زيارتها.

8. الزيارات هي قاعدة أساسية من قواعد التربية القويمة نسأل الله عز وجل أن يرشد الآباء والمعلمين للقيام بمسؤوليتهم التربوية وأن يسهل للأبناء ما يسهم في إعدادهم بوصفهم مسلمين نافعين ومواطنين صالحين لمجتمعهم وأمتهم.

3 - عن طريق المغامرات والمعسكرات وألعاب المخاطرة:

- الطالب يتشكل في حياته من خلال مروره بأطوار من التغيرات النفسية والفسيولوجية، ففي مرحلة المراهقة يميل إلى السلوك العدواني وحبه للمصارعة (المضاربة) وألعاب المخاطرة والمغامرات، فعلى ذلك يمكن عمل بعض هذه الألعاب في المدرسة نفسها.

4 - عن طريق الدعاية والإعلان (وسائل الإعلام):

- وذلك مثل عرض بعض الأفلام الجيدة والمناسبة عن الأنشطة الطلابية.

الحوافز المادية والمعنوية:

- مثل تقديم الشكر للطلاب المشاركين ولكل عمل مثمر قد أدوه بنجاح تشجيعاً لما قد قاموا بأدائه في هذا النشاط.

5 - عن طريق الخدمات العامة: الخدمات العامة بالمدرسة أو في الحي أو عن طريق المشاركة في أسابيع الخدمة العامة، فمثلاً المشاركة في أسبوع النظافة بفتح باب المشاركة لعموم الطلاب.

6 - مشاركة المعلمين وأولياء الأمور في بعض المناسبات: إن بعض المدرسين وللأسف الشديد لا يرغبون في الأنشطة الطلابية ولا يحبونها، وهذا ما يؤثر النشاط بداخل المدرسة؛ فإن المعلم أو (هؤلاء المعلمين) سوف يقومون بالتأثير على الطلاب بعدم المشاركة؛ إن هؤلاء المعلمين يجهلون الأنشطة والخدمات التي تقوم بتأديتها، ويقال مثلاً (فاقد الشيء لا يعطيه).

7 - عن طريق حل بعض المشكلات التي تواجه الطلاب: إن الفتى في هذه المرحلة إذا أحس بوقوف معلمه إلى جانبه، وأنه يقدم له العون والمساعدة تجاه المشكلات التي تواجهه فإنه بذلك سيحب هذا المعلم ويعمل معه في النشاط بتفان وتألق، ويستمع دائما إلى نصائحه وتوجيهاته، وكذلك بالنسبة لأولياء الأمور إذا شعروا بأن هذا المعلم طيب الخلق ويساعد أولادهم، فإنهم سوف يدفعون أبناءهم نحو المشاركة معه في النشاط.

8 - عن طريق الحفلات: مثلا حفلات السمر التي تعقد في المدرسة، بحيث تكون عامة لطلاب المدرسة لمشاهدة الحفلات على أن تكون قوية ومؤثرة وجذابة.

9 - عن طريق المعارض: إن قيام الناس بما فيهم المعلمين وأولياء أمور الطلاب بزيارة المعارض ومشاهدة ما أنجزه الطلاب من أعمال يجعلهم يقبلون على الأنشطة وذلك عن اقتناع كامل سواء بالتشجيع أو المشاركة الفعلية من قبل الطلاب.

الزيارات أو المشاركة في الفعاليات والمناسبات خارج سور المدرسة:

نستعرض بعضا منها ونبدأ بأهمها، وهي:

1. أداء الصلاة في المسجد.

2. زيارة المريض.

الرحلات البرية لها فوائد وآداب: الخروج للرحلات البرية لغرض النزهة مطلب تحتاجه النفس، فالنفس تحتاج أحيانا إلى الترويح واللهو المباح لتدفع به الملل والسآمة وعناء الالتزامات ومشقة العبادة وضغوط الحياة وهموم المعيشة.

# المسؤولية المجتمعية للجامعات تتعدى أسوارها

# دور الجامعات المجتمعي في الاستثمار التنموي




**أحمد بن علي العمودي - جدة**

متخصص في الإعــلام والعــلاقات العامة والمسؤولية المجتمعية


نتفق جميعاً بأن الجامعات تعد مظلة المجتمع وروحه، فالعلاقة بين الجامعات والمجتمعات علاقة وثيقة وعميقة، تؤثر كل منها في الأخرى وتتأثر به.

وما يميز الجامعات عن المؤسسات التعليمية والتربوية الأخرى هو أنها تتربع على هرم النظام التعليمي للمجتمع، هذه المكانة تعكس أهميتها في لعب دور مهم في المجتمع وتنميته وتلبية احتياجاته المعرفية والأكاديمية، وهذا ما يمكن وصفه كمسؤولية مجتمعية للجامعات.

فالجامعات ليست فقط لتخريج الطلاب من القاعات الدراسية للمساهمة في بناء المستقبل بل لها دور كبير ومهم في تطوير وتنمية المجتمعات ذاتها والمساهمة في ارتقائها وتطويرها.

يجب أن تتبنى الجامعات مسؤوليتها المجتمعية من خلال تأهيل المجتمع، الذي تعيش فيه وتتعايش معه، يجب أن تعمل الجامعات على تقريب المسافات بينها وبين أبناء المجتمع بحيث يشعر المجتمع بوجود هذه المؤسسات التعليمية الرائدة فيه، وينعكس ذلك عبر تطوير قدرات أبنائه فضلاً عن استطلاع الآفاق المستقبلية للمجتمع عبر الدراسات والمراكز البحثية بالجامعات.

إن تزايد أعداد الجامعات في المجتمعات ظاهرة صحية ومشرقة لكن المؤشرات تفيد بأن دورها لم يرتق إلى المستوى المطلوب في إحداث التغيير الإيجابي في النسق الاجتماعي والاقتصادي والتكنولوجي، الأمر الذي يؤكد على أهمية تبني الدور المأمول للجامعات في خدمة المجتمع وتطويره وتنميته بوصفها مرجعاً معرفياً ومركزاً أكاديمياً تتعدى أهميتها الأسوار التي تحيط بها.

يجب أن تحرص الجامعات على الالتحام بالمجتمع وتنميته من خلال تولي تنفيذ برامج مسؤولية مجتمعية من منطلق إنساني تحرص فيه أولاً على خدمة الإنسان وقضاياه وتسعى لتوظيف هذه المكانة ضمن خطة تنموية تطويرية على المدى البعيد بالتكامل مع القطاعات المعنية الأخرى.

دور الجامعات لا ينحصر في قبول الطلاب والطالبات في الكليات ولا ينحصر في مقاعدها الدراسية، بل يجب أن يتعدى هذا الدور أسوارها من خلال تحقيق الاستثمار التنموي الاجتماعي الذي يحقق أثراً ملموساً لدى جميع أفراد المجتمع من خلال ما تمتلكه جامعاتنا من خبرات وبنية تحتية متميزة وإمكانيات علمية رائدة.

فالجامعات تعد أبرز معالم المدن المتحضرة، وهي منارة التطور والإشعاع الذي يضيء المجتمع وبه يرتقي، وهي واجهة تعكس نمو أي مجتمع أو تخلفه وهذا الأمر يلقي بالمسؤولية الكبيرة على عاتق الجامعات التي تعد منارات للتطور والتنمية والتحضر.

يجب أن تكون أي جامعة نواة تنموية للمجتمع بمختلف فئاته، تحتضن أنشطته ومشاريعه وقضاياه وخططه المستقبلية، لا أن تعزل الجامعة عن المجتمع لأن ذلك سيؤثر سلباً وينعكس على الواقع.

إن إثراء المعرفة ولعب دور حقيقي في التنمية واستفادة المجتمع من الكوادر البشرية الأكاديمية ذات الخبرة والمعرفة وتوظيف البحث العلمي في رسم الخطط المستقبلية هي أدوات تمتلكها الجامعات لتحقيق الازدهار والإبداع والتعليم وتطوير المجتمع وتنميته.

مجتمعاتنا لا ينقصها موارد مالية.. ولا موارد بشرية.. ما ينقصنا هو خطط تنموية تعكس بشكل واقعي وحقيقي على المجتمع وأبنائه فالاستثمار في بناء الإنسان هو الاستثمار الحقيقي.

# التغيير ومستلزماته




شدري معمر علي - الجزائر

الكاتب والباحث في التنمية البشرية


**التغيير سنة الله في خلقه، فكل شيء في الكون يتغير ويتجدد، والإنسان الفعال المؤثر حتى يصنع حضارة ويبني مجدا ينبغي عليه أن يغير من أفكاره وعاداته ويجتاز كل العقبات التي تعترض حياته، لحظتئذ يصنع الفارق ويضع بصمته التي سيذكرها التاريخ.**

**يقول الدكتور علي الحمادي :«لقد أثبت التاريخ أن الإنسان لا يمكن له أن يقيم حضارة أو يصنع مستقبلا ما لم يغير من حوله ومن حوله وعندها سيجني الشهد وإن لم يفعل ذلك فما له غير العلقم والحنظل، إن عمر بن عبد العزيز غير فأحسن التغيير، إذ بنى دولة إسلامية لم يشهد لها التاريخ من بعدها مثيلا، فأمن الناس على أنفسهم وأهليهم وأعراضهم وأموالهم، وعزوا فلم يجرؤ أحد على إذلالهم، وفاض المال حتى لم يجدوا من يأخذه ، وكل ذلك في سنتين لا غير».**

## مفهوم التغيير:

لقد اختلف العلماء في مفهوم التغيير خاصة المفهوم الاصطلاحي.

أولاً: المفهوم اللغوي للتغيير: جاء في المعجم الوسيط : «غير الشيء أي: بدل به غيره أو جعله على غير ما كان عليه، ويقال: غيرت دابتي وغيرت داري أي: بنيتها بناء غير الذي كان، وغير فلان عن بعيره أي: حط عنه رحله، وأصلح من شأنه، وغير (بكسر الغين وفتح الياء): الدهر أي: أحواله و أحداثه المتغيرة».

## ثانياً : مفهوم العلماء للتغيير:

لقد حدث اختلاف كبير بين العلماء في تعريف التغيير، فيرى الدكتور كامل محمد المغربي أن التغيير هو: «التحول من نقطة أو حالة في مدة زمنية معينة إلى نقطة أو حالة أخرى في المستقبل».

إن التغيير :«عبارة عن عملية توازن ديناميكي، ويرى كيرت ليوين (Kurt lewin) بين مجموعتين من القوى تعملان في اتجاهين متعاكسين في المجال المادي والاجتماعي والنفسي للعمل، وتتضمن إحدى هذه المجموعات قوى دافعة في حين تتضمن المجموعة المعاكسة قوى مقيدة أو معيقة، ونتيجة لتفاعل هاتين القوتين بعضهما مع بعض تصل المؤسسة إلى حالة التوازن، ويطلق عليها اسم (الحالة الراهنة).

ويعرف الدكتور علي السلمي التغيير بأنه: «تحول في وضع معين عما كان عليه من قبل، وقد يكون هذا التحول في الشكل أو النوعية أو الحالة».

ويوضح الدكتور (علي الحمادي) في كتابه القيم (التغيير الذكي) أن أي عملية تغييرية لها ستة عناصر أو مكونات أو أبعاد رئيسية ويسميها (سداسي التغيير) أو (الميمات الستة) وهي :

1 - موضوع التغيير: ويتناول جوانب عديدة مثل: قواعد التغيير ومستلزماته ومستوياته وخطواته.

2 - المغير: وهو الذي يطالب بالعملية التغييرية وينادي بها، ويبدأ في ممارستها ويقودها، فهو الأساس الذي يقوم عليه التغيير.

3 - المؤيد: وهو الذي يؤيد العملية التغييرية، ويمكن أن يمارسها أو يسهم في المطالبة بها.

4 - المحايد: وهو الذي يشكل رأياً أو يتبنى موقفاً واضحاً تجاه العملية التغييرية .

5 - المقاوم: وهو الذي يرفض العملية التغييرية، ويسعى إلى إفشالها والقضاء عليها أو تأخيرها وتشويهها.

6 - مقاومة المقاومة: ونعني بها الممارسات التي يمكن أن يمارسها قادة التغيير ومؤيدوه لترويض المقاومة أو إجهاضها والقضاء عليها.

## مستلزمات التغيير:

يوضح الدكتور طارق سويدان والأستاذ أحمد بوزبر مستلزمات التغيير التي ينبغي توافرها حتى يتمكن قادة التغيير من تحقيق ما تصبو إليه نفوسهم، وأهم هذه المستلزمات ما يلي:

1 - السلطة: ليكون التغيير شرعياً وقانونياً.

2 - الألم: وهو الشعور بأن الواقع، مؤلم جداً، حيث ما لم يشعر المغيرون بمرارة الواقع فإن حماسهم تجاه التغيير سيكون فاتراً.

3 - الرؤية: بأن يكون لقادة التغيير تصور واضح للمستقبل المنشود.

4 - النظرة البعيدة: وذلك بأن يكون لقادة التغيير فهم وإدراك ووضوح للآثار المستقبلية لعملية التغيير.

5 - الموارد: حيث إن التنفيذ الناجح للتغيير يحتاج إلى موارد وإمكانات مادية وبشرية.

6 - الحساسية: وهي تفهم المشاعر التي ستنتج لدى المؤيدين والمعارضين والتعاطف معها.

7 - الحجم: وهو الإدراك الدقيق لحجم المجموعة التي ستتأثر بعملية التغيير.

8 - مشاركة الجمهور: وهي الرغبة والقدرة على إيجاد التعاطف الجماهيري اللازم في اتجاه التغيير .

9 - المشاركة الخاصة: وهي الرغبة والقدرة على الالتقاء بالأشخاص المؤثرين الذين لديهم القدرة على دعم أو إعادة التغيير.

10 - الترغيب والترهيب: وهو الاستعداد والقدرة على تحفيز المتفاعلين مع التغيير ومكافأتهم وكذلك القدرة على تهديد المقاومين للتغيير ومعاقبتهم .

11 - مراقبة التخطيط : وهو الالتزام بمراقبة الأداء في أثناء عملية التغيير وتحديد المشكلات والسعي لحلها.

12 - التضحية: وهو الاستعداد لتحمل تبعات عملية التغيير ودفع ضريبتها.

13 - الإصرار: وهو الاستمرار في عملية التغيير وعدم التردد أو التراجع.

## المدارج الخمسة لتغيير النفس:

يقترح الدكتور علي الحمادي خمس خطوات رئيسة

يمكن للمرء بها تغيير نفسه، وهي خطوات متدرجة يتدرج بها الإنسان في سيره لتغيير نفسه. وهذه الخطوات أو المدارج هي كالآتي:

1 - كن جاداً وقوّم نفسك:

ذلك أن أي تغيير لا يكون صاحبه جاداً فيه فهو تغيير هش لا قيمة له.

2 - تأمل المستقبل: ولذا فعليك القيام بالأمرين الآتيين:

الرؤية هي الحلم بالمستقبل أو الصورة التي يرسمها (Vision) أ- تحديد رؤية الإنسان لنفسه وما يود أن يكون عليه بعد سنوات عديدة، ولتكن عشر سنوات مثلاً .

الرسالة هي عبارة عن غاية الفرد وماهيته: (ission)

ب- تشكيل الرسالة وما المجال الذي يود التميز به، والخدمة التي يرغب في تقديمها، والجمهور الذي سيتعامل معه.

3 - خطط لنفسك: ابدأ بالتخطيط للوصول إلى غايتك وتحقيق آمالك وطموحاتك، وهذا يكون بتحديد ما يلي:

- الأهداف المرحلية قصيرة المدى.
- الوسائل الموصلة إلى هذه الأهداف.
- الأنشطة مع برمجتها زمنياً.
- السياسات الحافظة والضابطة للأهداف والبرامج.

4 - ابدأ التغيير متوكلاً على الله: إذ إن آفة كثير من الناس أنهم يترددون كثيراً في تنفيذ ما يخططونه لأنفسهم.

5 - قوم وعالج واستمر: حيث إن واقع التنفيذ قد لا يتطابق مع الخطط المرسومة، لذلك ينبغي أن يراقب الإنسان أداءه، ويقوّم واقعه بعد بدء التنفيذ، ثم يتعرف على الفجوة بين الواقع الحالي والأمل المنشود.

**مبررات التغيير:**

هناك مبررات للتغيير ومؤشرات إذا اكتشفها الإنسان في نفسه فهو بحاجة أن يبدأ عملية التغيير، ومنها:

الإحباط: الإحباط على المستوى التعليمي أو الإحباط في العلاقات مع الآخرين، وللتغلب عليه مارس بعض الهوايات، وتحدث إلى صديق والخروج إلى الأماكن المفتوحة، وأن تنغمس في عمل جماعي يدخل البهجة على الآخرين.

الملل: حيث يشعر الإنسان أن الأمور تجري بالأسلوب نفسه وبشكل يومي.

كثرة المشاكلات: كثرة المشاكلات مؤشر على ضرورة التغيير فركز على الحلول بدل التفكير في المشاكلات.

وختاماً عزيزي القارئ حتى تستمر على نهج التغيير صاحب الناجحين الذين ساروا على الدرب، وأحدثوا الفارق، وغيروا مجرى التاريخ، مثل: عمر بن عبد العزيز وعبد الرحمن الداخل ونيلسون مانديلا ومهاتير محمد وبيل غيتس.

# اكبسريس تعليمي من الحج وأيام العيد



**بقلم: هالة حافظ قباني - كندا**

مدربة تربوية

هاهو العيد شارف على الانتهاء، فكل عام وأنتم والأمة الإسلامية بخير وبأحسن حال. إن من نعم الإسلام علينا بأن طقوسه العبادية لا تنفصل عن حياتنا اليومية، وكأنها جرعة تربوية مكثفة نأخذها بأوقات معينة، لتعيننا على التمسك بالقيم والأخلاق السامية. فعيد الأضحى مليئ بالقيم التربوية والاجتماعية والثقافية، التي إن تمسكنا بها أعانتنا كثيراً على تربية أنفسنا وأبنائنا. فمنك أيها العيد العظيم نتعلم، بداية من أول أيام (ذو الحجة) تبدأ رحلة التربية المباشرة وغير المباشرة وعلى الوالدين أن يستغلوها ويمارسوها في أيامهم العادية.

إن مشاهدة شعائر الحج ومتابعتها تضفي شعوراً قوياً بالعزة والانتماء، تملؤ قلوبنا بالشوق والاستسلام، وتعيد لنا وعينا لنتذكر ماهي حقيقة الحياة، بأن لا فرق بين غني وفقير ولا عربي وأعجمي إلا بالتقوى، هذا الحشد العظيم اجتمعوا كلهم لغاية واحدة، وهي تلبية الرحمن، تركوا راحتهم، وتحملوا العناء وسالت الدموع ورفعت الأيدي وعظم النداء.

وهنا نرى بأن الدرس الأول لنا قد خط سيره وبان، وهو ترتيب الأولويات، وترك الدنيا من وقت لوقت، فاحرص على جلسة أسبوعية تفكرية، تستعيد بها الهدف الأساسي للوجود، فهذا يريح النفس ويذيق الروح حلاوة ويشعرها بالحب الخالد، وهو الحب في الله، وهذا الدرس الثاني فأحبب أفراد أسرتك في الله ولله، وهذا له طعم ليس له مثال. أما الدرس الثالث فكان في طيات الأول وهو التوجه لهدف مشترك، وهذا مايعطي الحافز للعمل ويجعل للعمل جمالاً، ويجمع بين أفراد أسرتك ويذيقها حلاوة النجاح.

أما الدرس الرابع نجده في الوحدة والتخلي عن الاختلافات، فهاهم اجتمعوا من جميع الجنسيات، ومختلف اللغات، ومختلف الأعراق، اجتمعوا كلهم يلبون ربهم ويدعونه، والجميع بلا استثناء يقول: الله أكبر، الله أكبر، هذا جمال الإسلام جعلنا أخوة، وهذا ما علينا زرعه في أسرنا بأن نركز على المتشابهات، ونتخلى عن الاختلافات، فكل فرد منهم فريد ومميز بحد ذاته.

أما الدرس الخامس فنجده بمتابعة الأخبار فنجد معظمنا يتابع أخبار الحجاج بشغف واستماع، وهذا ما علينا فعله مع أفراد عائلتنا بأن نتابع أخبارهم بشغف وحسن استماع، فليس هناك أقوى من أن تجد إنساناً يهتم بك ويعيرك اهتمامه كاملاً لمعرفة أحوالك فلا يلومك ولا يظن بك وإنما يستمع إليك بإنصات لمعرفة أحوالك والاطمئنان.

ويأتي الدرس السادس في تهيئة العالم الإسلامي بأجمعه لصوم يوم عرفة، وهذه فرصة لجميع المسلمين لأن يكسبوا حسنات، فالأجر ليس مقتصراً فقط على الحجاج، وهذا يمثل رحمة الخالق ورفقه بعباده، وهذا يعلمنا التحلي بالرحمة والرفق لأفراد أسرتنا المتفاوتين في عطائهم، وتجتمع الأسرة على الإفطار وقد تأتيك دعوة لبيت أهلك ويحرص الناس على إفطار الصائمين أملاً بالأجر والثواب وهنا يتمثل الدرس السابع وهو أهمية العلاقة الاجتماعية وصلة الرحم والوصال، فلهذا أثر كبير في بناء الاستقرار النفسي والعزة والانتماء للمجتمع.

أما الدرس الثامن فنجده في تحضيرات العيد فمعظمنا يحرص على إدخال البهجة والسرور على أسرته ومن حوله، وهذا يمثل ضرورة الفرح في مسيرتنا التربوية، فالدراسات أوجدت بأن إدخال الفرح يساعد على العلاج من معظم المشاكلات النفسية.

أما الدرس التاسع يتجسد بيوم العيد، الكل مبتسم والكل يسلم والكل يوزع كلمات التهاني على من حوله، وهذا يعلمنا أهمية الابتسامة والكلمة الطيبة، فازرعها في أسرتك، فلها سحر وأثر من الصعب أن يوصف بكلمات.

والدرس العاشر وهو ما يتركه العيد من مشاعر إيجابية وجمال في ذاكرتنا، ونستفيد من هذا بأن نحن من نخط قصصنا ونحفر ذاكرتنا، فلنحاول أن تكون إيجابية، فذكراتنا ستخط شخصيتنا.

وكل عام وأنتم في أحسن حال

# الفنان التشكيلي عثمان حمدي بيه





عثمان حمدي بيه

**«والحقيقة أنه يشار إليه في هذا المجال بالتحديد على أنه مؤسس معظم المؤسسات الثقافية التركية كما أنه أخذ على عاتقه محاربة سرقة وتهريب الآثار»**

ولد عثمان حمدي بيه عام 1842 في استانبول كان والده ابراهيم أدهم باشا يوناني الأصل من جزيرة خيوس اليونانية، وتربى في كنف أحد القادة العثمانيين، وترقى حتى أصبح ذا مكانة رفيعة في الامبراطورية العثمانية.

بدأ عثمان حمدي متابعة دروسه الأولى في استانبول ثم درس القانون، لأول مرة في عام 1856 ذهب لباريس ليكمل دراسة القانون لكنه أحب الرسم كثيراً. فبدأ في متابعة دروس الرسم على يد اثنين من عظماء مدرسة الاستشراق، وهما الفنان الكبير جان ليون جيروم وجوستاف بولونجيه ومكث في باريس مدة ليست بالقليلة حتى إنه تزوج من فرنسية تدعى ماري وبدأت دراسته تؤتي أكلها فاشترك في ثلاثة أعمال في المعرض الدولي في باريس عام 1867 حيث كان أيضاً في شرف استقبال السلطان عبد العزيز الذي دعاه الامبراطور نابوليون الثالث لحضور المعرض.

التقى عثمان بيه العديد من الشباب العثمانيين في باريس، وبالرغم من أنه تعرض لأفكارهم الليبرالية، لكنه لم يشارك في أنشطتهم السياسية، كونه ابن أحد البشوات العثمانيين الذي كان مخلصاً للسلطان وعدم تحدي النظام القديم.

ولما عاد عثمان حمدي لاستانبول في عام 1871 أسندت إليه في مناصب إدارية عديدة منها الإشراف على تطوير نصوص القانون القديمة وتقلد منصب نائب مدير مكتب المراسم للقصر، وحصل على عدة تعيينات في مناصب عليا من البيروقراطية العثمانية، وقام بإنشاء متحف للفن والآثار التي خرجت من جنبات الامبراطورية العثمانية.

وقع عليه الاختيار لتأسيس المتحف الامبراطوري ويكون أول مدير له، وقد اختار حمدي لهذا الغرض بناية في حدائق قصر السلطان، ولكي يؤمن سيلاً لا ينقطع من الآثار والقى والقطع الفنية، فقد استخدم نفوذه الشخصي لإصدار أول نظام للآثار في أرجاء الامبراطورية العثمانية، وهكذا صارت مجاميع الآثار تصل إلى المتحف تباعاً من طريق القسمة مع البعثات الأجنبية العاملة في الأقطار التابعة للدولة، فأصبح متحف الشرق القديم في استانبول بهذا واحداً من أغنى متاحف العالم بآثار العراق ومصر وغيرهما من أقطار الوطن العربي.

والحقيقة أنه يشار إليه في هذا المجال بالتحديد على أنه مؤسس معظم المؤسسات الثقافية التركية كما أنه أخذ على عاتقه محاربة سرقة وتهريب الآثار التي انتشرت في تلك المدة ووضع قوانين صارمة تحارب هذه الظاهرة للقضاء على تهريب الآثار كما بدأ أول حفائر تركية بعد أن كانت بعثات الحفائر كلها أجنبية، وأنشأ المتحف القومي التركي، وتم إرساله إلى محافظة بغداد كجزء من الفريق الإداري لمدحت باشا، وأحرزت بعثته في العراق تقدماً كبيراً في اكتشاف الآثار البابلية والآشورية، وكان مصلحاً مهماً وشخصية سياسية رائدة بين العثمانيين.

مات عثمان حمدي بيه في 24 شباط/فبراير 1910 مخلفاً وراءه بنية تحتية قوية لمؤسسة ثقافية كبيرة كانت نواة المؤسسات الثقافية في تركيا الحديثة.

تميز أسلوب عثمان حمدي بصفاء اللون وتلك الرعشات من السرور الخفي التي تشع بها أعماله وهو يختلف عن بعض المستشرقين في اختيار مساقط ضوئية في أعماله أكثر إشعاعاً ليبعد الكآبة التي تسيطر أحياناً على



لوحة (تاجر السجاد في الشارع)

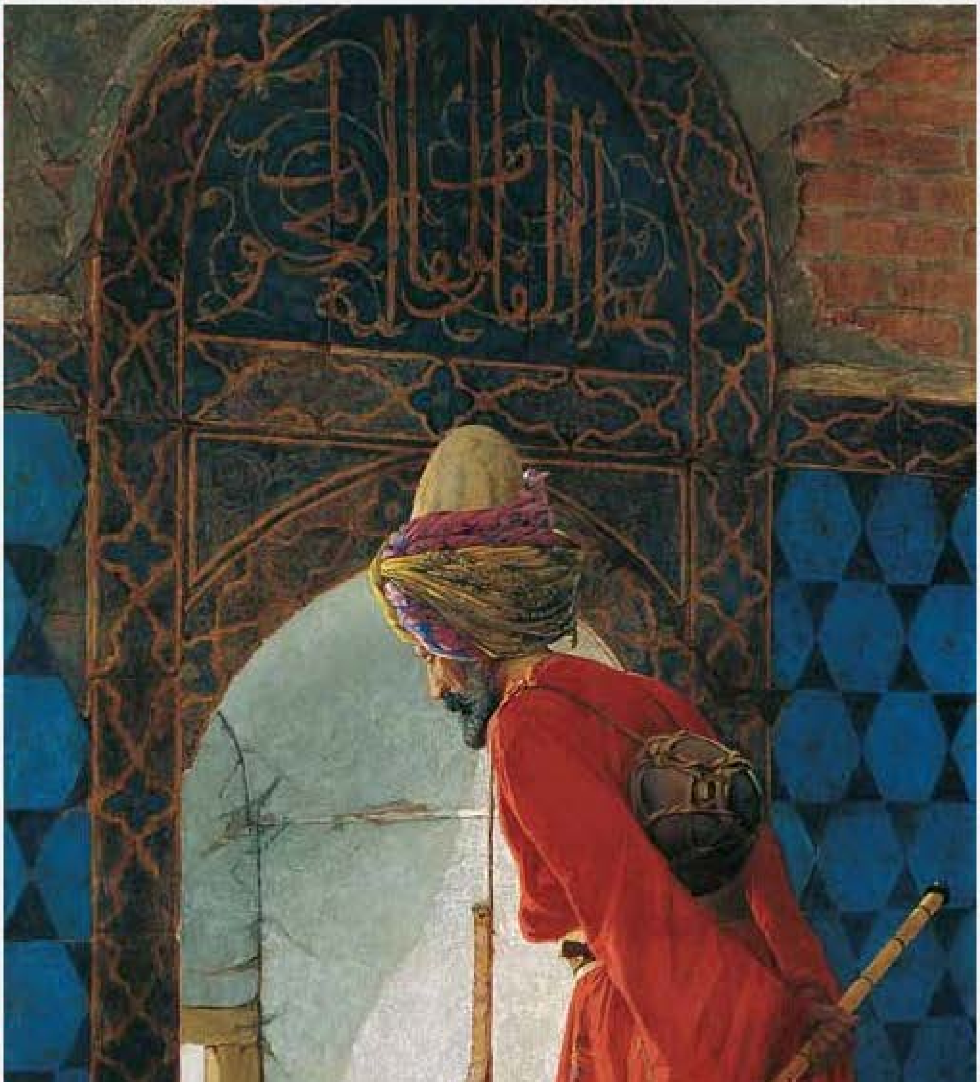
الموضوعات الشرقية في التصوير. كما أنه يعتمد الوقار كإطار أساسي لشخصياته. وهذا بالتأكيد كان نتيجة لاختياره موضوعات دينية في معظم أعماله. مثل (امرأة تقرأ القرآن – رجل يقرأ القرآن) كما أن وجوه شخصياته أكثر واقعية من وجوه شخصيات فناني الاستشراق الآخرين.

كذلك اهتم عثمان حمدي بإظهار جماليات الخط العربي في أعماله الفنية. فهناك دائماً تلك الأدعية والأذكار وآيات الذكر الحكيم التي تزين أعماله بوصفه جزءًا ذا موضوع في اللوحة وذا حاجة فنية.

ما يدهش في اللوحة ليس موضوعها فقط. لكنه أيضاً ذلك التكنيك الذي يعيد إلى ذهنك عظماء الفنانين في مدرسة الاستشراق أمثال أنجي تيسر وجان ليون جيروم وغيرهم من تلك المدرسة. التي قدمت الشرق للعيون المتلقي الغربي، ولكن من منظور القصص الشعبي وحواديت ألف ليلة وليلة.

في عام 1888 – أي بعد سنوات قليلة من نقل أجزاء كبيرة من مذبح البيرغامون من الدولة العثمانية إلى برلين – أهدى عثمان حمدي بيك مديرَ المتحف البرليني، فيلهلم بوده. لوحةً أولى. كانت بعنوان (تاجر السجاد في الشارع). وتظهر اللوحة تجارة الأنتيكات المزدهرة في استانبول والسياح الذين يشترون هذه التحف الفنية القديمة وهم يرتدون قبعات تقيهم من حرارة الشمس وأشعتها. وقد تم عرض هذه اللوحة مؤخراً في المعرض القومي القديم.

له لوحة (مدرب السلحفاة) التي بيعت برقم قياسي في تركيا بمبلغ 3.5 مليون دولار في كانون الثاني/ديسمبر 2004 وحالياً معروضة في متحف بيرا في استانبول.



لوحة (مدرب السلحفاة)



# فانكوفر من أفضل 10 مدن بالعالم يمكن العيش فيها ..

سما يوسف
جدة

﴿بدأ أول استيطان دائم في الموقع الذي هو حالياً فانكوفر بالقرب من المنجرة (المنشرة) التي بنيت في عام 1865. كان لوجود مصادر الأخشاب الغنية أثره في سرعة الاستقرار بالمدينة. وفي عام 1884 اختارت السكك الحديدية الباسيفيكية الكندية هذا الموقع ليكون الطرف الغربي الأخير لخطوط السكك الحديدية الكندية الأولى عبر القارة﴾

مدينة كندية تقع جنوبي غرب ولاية كولومبيا البريطانية سميت على اسم جورج فانكوفر.

بدأ أول استيطان دائم في الموقع الذي هو حالياً فانكوفر بالقرب من المنجرة (المنشرة) التي بنيت في عام 1865. كان لوجود مصادر الأخشاب الغنية أثره في سرعة الاستقرار بالمدينة. وفي عام 1884 اختارت السكك الحديدية الباسيفيكية الكندية هذا الموقع ليكون الطرف الغربي الأخير لخطوط السكك الحديدية الكندية الأولى عبر القارة.

تُعد مدينة فانكوفر أكبر مدينة على الساحل الغربي من مقاطعة برتش كولومبيا الواقعة في غرب كندا.

تتمتع المدينة بمظاهر طبيعية مختلفة وأخاذة. سواء كنت تستمتع بالرياضة أو الفن أو حب التسوق، فإنك ستجد المكان المناسب لممارسة هواياتك في قلب المدينة.

احتلت كندا وللمرة السادسة على التوالي المركز الأول من بين 175 دولة من حيث الرقي ونوعية الحياة، ويشمل ذلك مجالات الصحة والتعليم والمال. وقد جاء ذلك في إحصائية الأمم المتحدة.

يرتكز اقتصاد المقاطعة على مواردها الطبيعية، وبالدرجة الأولى على غاباتها الشاسعة التي تغطي قرابة الـ 56% من إجمالي مساحة المقاطعة.

تغطي منتجات المقاطعة من ورق وأخشاب ... إلخ ما يقارب النصف من احتياجات كندا كلها.

ويعد قطاع السياحة ثاني أكبر مورد لاقتصاد المقاطعة؛ حيث يزور المقاطعة كل عام قرابة 15 مليون سائح.

وتبلغ مساحة المتنزهات بالمقاطعة إجمالاً 5 ملايين فدان، وتبقى سلسلة جبال الروكي (Rocky Mountains) أكبر معلم سياحي بالمقاطعة.

أما ساحل المقاطعة بشواطئه، وطرق رياضة المشي على الأقدام، ومستعمرات الفنانين، والحيوانات البرية، ومشاهدة الحيتان، يُعد أيضاً من أبرز المعالم السياحية بالمقاطعة.

في عام 1995 حصلت مدينة فانكوفر على الميدالية الفضية للمرتبة الثانية من بين 118 دولة على أساس الحياة المعيشية والبيئة، جاء ذلك في إصدار لمنظمة Corporate Resources Group السويسرية في جنيف ..

كما أنها مصنفة من أفضل 10 مدن بالعالم يمكن العيش فيها ..

أعلنت شركة استشارات للموارد البشرية، ويليام م. مارسار في استطلاع سنوي أن مدينة فانكوفر الكندية هي أفضل مدن العالم التي يرغب الناس العيش فيها العام الماضي.

وتطل مدينة فانكوفر على المحيط الهادي الكندي، وكانت مجرد غابات قبل أن يصلها المستكشف البريطاني جيمس كوك (James Cook) في العام 1778، وتوافد الناس على هذه المدينة بغية البحث عن الذهب.

وكانت فانكوفر تابعة للتاج البريطاني قبل أن تنضم للاتحاد الكندي في عام 1867، ويصل عدد سكانها الآن قرابة المليونين نسمة .. وهي في غرب كندا بالقرب من مدينة سياتل الأمريكية.

جوها بارد وأنسب أوقات السنة لزيارتها يكون صيفاً؛ حيث معدل درجات الحرارة 24 درجة مئوية وتوقيتها 8- عن توقيت جرينتش.

أجمل مناطق الجذب السياحي في مدينة فانكوفر:

(1) حديقة الكائنات البحرية:

وبها عروض أسود البحر والدلافين والحيتان القاتلة كل يوم و فيها عدد كبير من الكائنات البحرية الغريبة.

(2) البرج المركزي:

ويقع في قلب مدينة فانكوفر، ومنه يمكن مشاهدة





ناطحات سحاب المدينة..

(3) Playdium :

مكان خيالي..يحتل مساحة 40000 قدم مربع وبه مرافق جذب مكونة من أكثر من مئتي لغز جسدي وذهني..وتقريباً داخل مركز المدينة (يبعد عن المركز قرابة 15 دقيقة).

(4) حديقة ستانلي (Stanley Park):

وهي أشهر حديقة في مدينة فانكوفر معظم مساحتها للمشي في دروب بين الزهور والأشجار.

كما إن هناك العديد من الأسواق والمتاحف والأماكن السياحية.

باختصار فانكوفر أفضل مدينه بالعالم .. جو رائع، وطبيعة ساحرة، ومدينة عصرية وحضارية من الطراز الأول.



جانب من حديقة ستانلي



# مهرجان العشبات السبع في اليابان



حسن محمد النعمي

«مهرجان العشبات السبع (باليابانية ناناكوسا نو سيكّو) هو ثقافة رائعة من ثقافات الشعب الياباني يقام الاحتفال بهذه المناسبة في السابع من كانون الثاني/يناير من كل عام»

لكل شعوب الدنيا تراثها وإرثها الثقافي الخاص بها، وهي فقط ما تتميز به خلاف غيرها من الشعوب الأخرى، ولهذا الإرث الثقافي ارتباط بثقافة كل بلد.

ومهرجان العشبات السبع (باليابانية ناناكوسا نو سيكّو) هو ثقافة رائعة من ثقافات الشعب الياباني، يقام الاحتفال بهذه المناسبة في السابع من كانون الثاني/يناير من كل عام، وهو عادة يابانية لتناول العشبات السبع مع عصيدة الأرز في يوم جينجيتسو أو يوم الإنسان، وهو يوم عطلة وطنية، وهو أحد المهرجانات الفصلية الخمسة في اليابان، وهو أحد الأيام الافتتاحية في أول شهر قمري الذي يكون مخصصاً لأحد المخلوقات التي يحرم قتلها في ذلك اليوم.

وهذه الأيام السبعة هي: يوم الدجاجة، يوم الكلب، يوم الخنزير البري، يوم الخروف، يوم البقرة، يوم الحصان، ويوم الإنسان، وفي اليوم السابع لم يكن يجرى أي عقاب للمجرمين؛ حيث يعتقد في الأسطورة الصينية بأن الإلاهة نووا التي خلقت العالم وخلقت الحيوانات بأيام مختلفة وكان خلق الإنسان في اليوم السابع بعد خلق العالم.

انتقل الاحتفال بهذا المهرجان في اليابان من اليوم السابع في التقويم القمري إلى اليوم السابع من كانون الثاني/يناير في أثناء مدة ميبجي، عندما بدأت اليابان باستعمال التقويم الشمسي، يتم الاحتفال بهذا اليوم في صباح 7 كانون الثاني/يناير أو عشية ذلك اليوم بتناول الناس في اليابان سبع أنواع من الأعشاب أو الخضار مع عصيدة الرز ويغنون قبل أن تأتي طيور الصين إلى أرض اليابان، لتأكل العشبات السبعة، وهي سبع عشبات ربيعية صالحة للأكل، تتكون من:

1 - شمار الماء، وهي عشبة دائمة الخضرة من الفصيلة الخيمية، يبلغ ارتفاعها نحو متر أو مترين، كثيرة الأغصان بأوراق خيطية متقابلة تتدلى إلى الأسفل، ولونها يميل إلى الزرقة، ساقها جوفاء مبرومة زرقاء أو حمراء داكنة، وأزهارها صغيرة بمجموعات مغزلية صفراء اللون ذات بذور بيضاوية صغيرة صفراء رمادية مخططة، المستعمل منها الجذر الغض والبذور، والمواد الفعالة في هذه النبتة هي زيت طيار، وأحماض دهنية، وفلافونيات، وفيتامينات، ومعادن.

2 - كيس الراعي هو نبات عشبي حولي يتبع الفصيلة الصليبية أو المركبة أو الكرنبية...لهذا النبات فوائد عديدة في معالجة القروح وتنوير البصر، يعد هذا العشب من الأعشاب المضادة للأكسدة.

3 - رجل القط نبات ينتمي للفصيلة المركبة، ويعد من النباتات المعمرة، ارتفاعها بين 20 - 60 سم، ساقه زغباء تحمل أوراقاً متعاقبة، يعطي عند الإزهار أزهاراً أنبوبية ثنائية الجنس، لكن البذور تنتج من عملية غير جنسية ذاتية التخصيب، يفضل النبات الأراضي جيدة التصريف والمشمسة ولا يعيش في الظل ويتحمل التربة الفقيرة حمضية أكانت أم قلوية، وكذلك المعتدلة، كما يتحمل قلة الماء والجفاف، ينتشر النبات في بلاد حوض المتوسط، تضاف أفرعه للشوربة و الأرز، و يجب أن تزال قبل تقديم الأكل .

4 - حشيشة القزاز هي نبات عشبي معمر تفترش الأرض ولا يزيد طولها عن 15 سم لها سوق مغطاة بالشعر وأوراقها بيضاوية وأزهارها تشبه النجمة بيضاء اللون وهي تنمو في أوروبا وآسيا وتزرع اليوم في معظم أنحاء العالم، والجزء المستقل منها الأجزاء الموجودة فوق سطح الأرض فقط ،تستخدم حشيشة القزاز في علاج مشاكلات الجلد المتهيج وغالباً ما تستخدم لتلطيف آلام الأكزيما والقروح الدوالية، ولا تدخل هذه العشبة في المواد

المخفضة للوزن كما يعتقد بعض الناس .

5 -عشبة لابسانا وهي عشبة تستخدم ضمن مكونات عصيدة الأرز في يوم الاحتفال.

6 - نبات اللفت يستخدم زيت بذور نبات اللفت أو الشلغم للوقاية من مرض (ALD).. وهو أحد الأمراض الوراثية العصبية النادرة.

7 - دايكون الدايكون يطلق عليه الفجل الأبيض أو الفجل الياباني، وهو فجل شرق آسيوي معتدل الطعم، كبير الحجم، أبيض اللون، بالرغم من أنه يعرف بشكل شائع باسمه الياباني في الولايات المتحدة، إلا أنه لم ينشأ من اليابان، ولكن تمت زراعته في الأصل في آسيا القارية، وتم إدخاله إلى اليابان عبر الصين، خلال حكم مملكة هان، وبالرغم من أن هناك العديد من الأنواع من الدايكون، فإن أكثره شيوعًا في اليابان، هو دايكون-أوكوبي، وله شكل جزرة عملاقة، حوالي 20 إلى 35 سم طولاً ومن 5 إلى 10 سم في القطر، وواحد من أكثر الأنواع غرابة في الشكل من الدايكون المزروع في محافظة كاغوشيما هو دايكون ساكوراجيما، الذي هو على شكل اللفت، الذي ينمو عادة ليصل إلى 50 سم في القطر ويصل وزنه إلى 45 كغم، والطعم يعد معتدلاً مقارنةً بالفجل الآخر، وقد تتنوع العشبات السبع باستخدام أنواع أخرى بحسب توافرها المحلي، وطريقة الاحتفال تتم بوضع الناس العشبات السبع مع ملعقة الأرز (شاموجي) وطاحونة السمسم (سوري باتشي) على لوحة التقطيع في اتجاه الحظ السعيد، ويغنون «قبل أن تأتي طيور الصين إلى أرض اليابان، لتأكل العشبات السبع»، كان السابع من كانون الثاني/يناير مهرجاناً في اليابان منذ قديم الزمن، وكانت عادة أكل العشبات السبع من أجل تمني الصحة والعمر المديد، وجاء هذا التقليد إلى اليابان من الصين من أجل طرد الشر، ولقلة النباتات الخضراء في ذلك الوقت من السنة، فإن وجود الخضار يضيف إلى المائدة لوناً حيوياً يتناسب مع روح السنة الجديدة، فتجتمع الأسرة اليابانية لأكل العصيدة بالأرز في حميمية رائعة، وتبادل التهاني فيما بينها ، ويقام الاحتفال في كل منزل احتفاء بهذا اليوم كعادة شعبية تراثية، حافظ عليها الأجداد وتوارثها الأبناء ليورثوها لأبنائهم، فهم شعب لا يفرط في التقاليد والعادات القديمة بالرغم من تقدمهم العلمي والتكنولوجي، فهنيئًا لهم بهذا السلوك الرائع والحفاظ عليه.


نبتة رجل القط


عصيدة الأرز مع العشبات السبع


حشيشة القزاز

# متحف المتروبوليتان للفن



في عام 1866 التقت مجموعة من الأمريكيين للاحتفال في العيد الوطني الأمريكي الرابع من تموز/يوليو في مطعم (بوا دي بولون) بباريس، وكان من بين المجموعة جان جي حفيد واحد من القانونيين المعروفين في أمريكا الفتية آنذاك. واقترح على المجموعة قائلا: «حان الوقت الآن لإنشاء معهد وجاليري للفن في نيويورك»، وقد استقبل الاقتراح بحماس، وبعد مرور سنة على ذلك اللقاء قاد جان جي الذي كان يرأس نادي النقابة في نيويورك حملة بين قادة المجتمع المدني وتجار الفن وأصحاب الجمعيات الخيرية من أجل إنشاء أول متحف أمريكي يضاهي متاحف أوروبا وفي نهايات سبعينيات القرن التاسع عشر ولد متحف المتروبوليتان للفن الذي انتقل في عدة مواقع حتى استقر به الحال في موقعه الحالي على الجادة الخامسة شمال مانهاتن ليحاذي حديقة نيويورك الكبيرة السنترال بارك.

المتحف بطرازِ معمارهِ القوطي أخذ بالاتساعِ شيئاً فشيئاً حتى أصبح واحداً من أكبر متاحف الفن في العالم وقد وصفه فيليب دي مونتيبيلو مدير المتحف الحالي بدائرة معارف نيويورك ويذهب بعيداً قائلا: «إنه دائرة معارف الفن في العالم»، ومن الممكن أن تشاهد فيه ما يعكس ثقافات شعوب عدة بدءاً من الفن الآشوري والمصري، ومروراً بفن فلورنسه وحتى ما يعكس ثقافة غينيا بيساو الجديدة وهضبة التبت الصينية.

ويعد متحف المتروبوليتان للفن أكبر متاحف الولايات المتحدة، وهو الأكبر في مدينة نيويورك، وهو من المتاحف الكبيرة في العالم.

تبلغ مساحة المتحف أكثر من مليوني قدم مربع ويضم أكثر من 3 ملايين قطعة: من الفن الحديث والقديم من مختلف دول العالم، ويضاف إلى ذلك أن هذا الصرح يضم أيضاً قطعاً من الآلات الموسيقية والعسكرية المتنوعة تعود إلى أحقاب زمنية من تاريخ البشرية متنوعة، وفي البداية اقتصر المتحف على الفن الأوربي وقليل من الفن الأمريكي، ولكن مع مرور الزمن اتسع المتحف ليضم مجموعات كبيرة من القطع الفنية والتحف، إضافة إلى جناح خاص بفن التزيين والتصميم الأمريكي، ويحتوي هذا الجناح على 12 ألف قطعة من نماذج الأثاث والتصاميم الأمريكية، وقد انتهى المعماري ريتشارد موريس هونت خريج مدرسة الفنون الجميلة في باريس من تصميم وإنجاز المتحف بطرازه القوطي عام 1926 ومع ذلك بقيت الإضافات مستمرة حتى أخذ شكله النهائي.

واعتباراً من عام 2012 ، احتل المتحف مساحة حوالي 2.000.000 قدم مربع (190.000 م $^2$ ).

ولا يمكن الزائر لنيويورك تجاهل متحف المتروبوليتان نظراً لموقعه وطرازه المعماري الذي يختلف كلياً عن المعمار الحديث الذي ميز مدينة نيويورك حيث البنايات العالية ذات الواجهات الزجاجية، فالمتحف لا يغري عشاق الفن فحسب، وإنما يغري محبي التصاميم وديكورات القصور الكبيرة وتصاميم الأزياء، والمتحف في نظامه وطريقة عرضه للأعمال الفنية يتجاوز الشكل التقليدي أو الكلاسيكي، الذي ميز متاحف أوروبا خصوصاً متحف اللوفر بباريس أو البرادو في مدريد.

فهو لم يقتصر على الأعمال الفنية وإنما تجاوز ذلك ليشمل عرض آلات موسيقية وعسكرية وأثاثًا قديمًا إضافة إلى جناح خاص بتطور الأزياء حتى العصر الحديث، وما يلفت النظر ضمه مجموعة من أزياء مغنيي ومغنيات الأوبرا والبعض منها لمصممي أزياء معروفين على رأسهم الإيطالي الراحل فرساشي، وإذا تميز متحف المتروبوليتان بحيازته على مجموعة كبيرة من الفن المصري والآشوري القديم غير أنه يتفاخر بأكبر مجموعة لديه من الفن الإسلامي.

الجناح الخاص بالفن الإسلامي يبرز هذا الجناح تطور هذا الفن منذ القرن السابع الميلادي وحتى القرن التاسع عشر ، وليس من المبالغة القول إن الجناح يقدم رؤية شاملة للفن الإسلامي، فالجناح يحتوي على أعمال فنية تمثل مراحل مختلفة من الفن الإسلامي، ولا تقتصر على الخط العربي والمنمنمات والزخارف الإسلامية ، وإنما تشمل أيضاً قطعاً فنياً تعكس تطور المعمار الإسلامي وصناعة النسيج وتطور فن السيراميك، والجناح يضم أعمالاً من العالم الإسلامي القديم من الجزيرة العربية والأندلس ومصر وسوريا والعراق والهند وفارس ومنغوليا الهندية، وقد تكون تحفة هذا الجناح هي القاعة الدمشقية التي تجسد رفعة الفن الإسلامي المعماري، ولا يقتصر المتحف على ما لديه من مجموعات فنية وإنما يقوم بين حين وآخر بتقديم عروض فنية لفنانين من العالم أو تقديم عروض خاصة لمراحل فنية معينة أو لبلد أو قارة معينة.

وأول ما يواجه الداخل للمتحف بوابته الكبيرة التي تقوده إلى ساحة الاستقبال للمعلومات ، وحيث تكون قاعة الآثار المصرية على يمين الزائر ثم مكتبة المتحف الكبيرة ومن هناك إلى جناح خاص لفن القرون الوسطى الأوروبية.

وقد توزعت أجنحة المتحف على قاعات خاصة كبيرة منها جناح خاص بالثقافة والفن الأمريكيين، بدءاً من





متحف المتروبوليتان من الداخل

القرن السابع عشر وحتى بدايات القرن العشرين.

وهناك جناح خاص بفن الشرق الأدنى القديم ويضم أعمالاً من حقبة الألفية السادسة قبل الميلاد وهي من وادي الرافدين وسورية والأناضول. ولعل ما يميز هذا الجناح هي الأعمال التي تعود إلى الحقبة الآشورية ومن بينها جداريات وتماثيل للثور الآشوري المجنح الشهير.

ثم يأتي جناح كبير من أهم أجنحة المتحف وهو جناح الفن البدائي ويضم أعمالاً من أفريقيا ومن سكان الأمريكيتين الأصليين الهنود. ويحتوي على تماثيل وقطع فنية ذات مواصفات عالية من بنين نيجيريا ومن شرق وجنوب أفريقيا.

ويلي هذا الجناح قاعة كبيرة خاصة بالفن الآسيوي القديم تزينها أعمال وقطع فنية وتماثيل من جنوب شرق آسيا ومن الصين واليابان وكوريا الجنوبية، وكلها تنتمي إلى مرحلة ما قبل الميلاد. ومن ثم يأتي الجناح الخاص بالأزياء الذي يعكس تطور الأزياء في العالم.

وبعد هذه الرحلة تفاجأ بالجناح الخاص بالفن المصري القديم، والذي يضم أعمالاً من المرحلة الأولى للمملكة الجديدة في مصر القديمة، ولا يقتصر الجناح على أعمال السيراميك والقطع الطينية، بل يضم مجموعة من التماثيل والبورتريهات لملوك المملكة الجديدة في مصر القديمة.

وإذا واصلت السير بعد التجوال في الجناح المصري ستجد نفسك أمام قاعة خاصة بالتخطيط والرسم الأوروبي، وهي تضم أعمالاً لفناني أوروبا الكلاسيكيين بدءاً من عصر النهضة حتى فناني المدرسة الانطباعية بالفن.

وقد توزعت الأعمال الفنية هذه على دول أوروبية عديدة، منها إيطاليا وفرنسا وأسبانيا وبريطانيا وهولندا والدنمارك ويقدم الجناح صورة متماسكة عن تطور فن الرسم في أوروبا ولا يخلو المعرض من أعمال فنانين مشهورين مثل رامبرانت وجويا وروبنز وسيزان ولوتريك وفان كوخ، غيرهم من فناني أوروبا المشهورين وبعد هذه الصالة يأتي الجناح الخاص بفن النحت والديكور الأوروبيين، ويحتوي على أعمال نحتية بدءاً من العصر المتوسط حتى بدايات القرن العشرين، ومن بين هذه المجموعات لدى المتحف مجموعة خاصة بالفنان الفرنسي رودان.

وأما بقية الأجنحة فهي تتوزع ما بين الفن اليوناني والروماني القديم.

إضافة إلى جناح خاص في الفن الحديث الأوروبي والأمريكي وهو يضم أعمالاً فنية لأشهر فناني القرن العشرين مثل ماتيس وبيكاسو وكاندنسكي وموديلياني وفرناندو ليجير وجورج براك وخوان ميرو وآخرين، إضافة إلى أعمال أشهر فناني أمريكا مثل جورجيا أوكيف ووليم دكوني وجاكسون بولوك واندي وارهول وغيرهم.

ومن بعد ذلك هناك جناح خاص لآلات الموسيقى من أوروبا وإيران وأفريقيا وهو يضم آلات متنوعة من بينها البيانو والعود والجيتار وغيرها من آلات الموسيقى. وما يميز متحف المتروبوليتان ضمه مجموعات خاصة لمحبي الفن أشهرها مجموعة روبرت ليهمان، وقد حرص المتحف على تقديم هذه المجموعة في دليله نظراً لما تضم من أعمال فنية رفيعة، وقد يكون مسك الختام زيارة القاعة الخاصة بفن التصوير الفوتوغرافي، وهي تضم مجموعة من الصور الفوتوغرافية تمتد من أواسط القرن التاسع عشر حتى عام 1946 من القرن الماضي، وتتنوع المجموعة على أعمال مصورين من أوروبا وأمريكا.



من الجناح الخاص بالفن الإسلامي



من الجناح الخاص بالفن المصري القديم



رقميون غيروا حياتنا

هذه المادة مختارة من كتابي (رقميون غيروا حياتنا)

# بريان أكتون وجان كوم مؤسسا تطبيق واتس آب WHATSAPP



ناصر بن محمد الزمل

رئيس التحرير

@nalzumal

لا يخلو هاتف من الهواتف الذكية من تطبيق الـ WHATSAPP الذي أحدث انقلاباً سريًا في حياة البشرية ملموساً، وبخاصة في منطقتنا العربية، وكذلك أحدث انقلاباً ضد شركات الاتصالات؛ لما أمنته من خسائر فادحة خاصة عبر رسائل الوسائط.

وإذا كنت لم تستخدم تطبيق WHATSAPP من قبل، على منصات الآيفون أو الأندرويد أو الويندوز فون، أو حتى على بعض هواتف نوكيا بنظام السيمبيان، فهو تطبيق للترا سل الفوري ومتعدد المنصات للهواتف الذكية، ويتيح لمستخدمه التواصل الفوري بالرسائل والصور والفيديو والصوت والوسائط، إضافة إلى الرسائل الأساسية للمستخدمين مع أي مستخدم آخر للتطبيق في قائمة أسماء هاتفه المحمول، دون حد أقصى، شريطة الاتصال بالإنترنت أو بشبكة الـ 3G .

ويتم إرسال رسائل الوسائط المتعددة عن طريق التحميل، ليتم إرسال الصورة والصوت أو الفيديو إلى خادم HTTP، ومن ثم إرسال الرابط إلى المحتوى جنباً إلى جنب مع BASE64 ترميز الصورة المصغرة.

أسست الشركة التي تحمل اسم WHATSAPP في 10 كانون الأول/ديسمبر 2009 من قبل بريان أكتون وجان كوم، وكلاهما من قدامى المبرمجين في شركة ياهو YAHOO منذ 1997 . ويوجد مقر الشركة في سانتا كلارا، كاليفورنيا.

وصف بريان أكتون على حسابه على موقع LINKEDIN بأنه «غير عالم الاتصال».

عمل بريان أكتون أحد عشر عاماً متنقلاً بين الكثير من الأقسام في رواق العملاق المخضرم YAHOO قبل أن ينتقل إلى الخطوة الكبرى عام 2009 ويؤسس WHATSAPP . والمثير أيضاً أن بريان أكتون قد عمل أيضاً في شركة APPLE وشركة ADOBE في بداياته العملية، فيبدو أنه حصل على الكثير من الخبرة والمعلومات من العمل في أكبر الأسماء في عالم التقنية. وعند تتبع حسابه ومساره الوظيفي، تلحظ أنه ليس بخبير في عالم الدردشة، لكن عمل مدة كبيرة في إدارة المنتجات الكبرى لدى الشركة، ما يعطينا فكرة عن كيفية تفكيره في التطبيق، وكيف أنه أتم ذلك في إنجاح تسويق التطبيق من غير صرف دولار واحد على الإعلان.

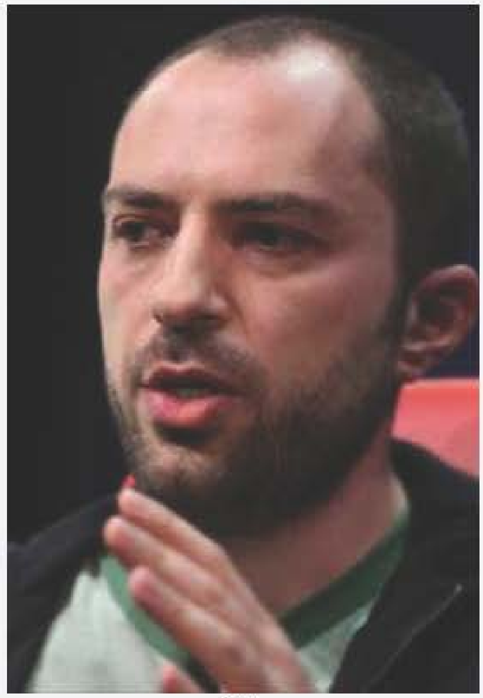
أما الشريك المؤسس الثاني جان كوم الأوكراني، فهو شخص متواضع جداً بحسب صحيفة فاينانشل تايمز وغير مهوس بالإعلام والشهرة، وهو أيضاً خريج YAHOO فالاثنان التقيا عام 1997 . أما محور اهتمام الرجل في التطبيق فهو البساطة والسهولة.

كما كل مشاهير عالم التقنية، فكوم ترك مقاعد جامعة سان جويس في كاليفورنيا حيث كان يدرس علوم الحاسوب والرياضيات، ويعمل ما يحب. لا توجد معلومات على الإنترنت كثيرة حول جان كوم.

الشركة بحسب وصف الصحيفة الأسبانية EL PAIS هي مكتب صغير في أحد مباني MOUNTAIN VIEW نعم، جوجل في المنطقة نفسها! لا علامة على الباب، لا علامة أو شعار على المبنى! المكتب في وقت الزيارة كان يحتوي على 30 موظفاً دائماً و 5 موظفين مؤقتين- الزيارة تمت في تموز/يوليو 2013 وهي حصرية جداً لتلك الصحيفة- وأيضاً كما ذكرت الصحيفة، فإن الموظفين يعملون كما يريدون من غير قيود أو لباس معين. ويبدو أن الشركة مهتمة جداً بإبقاء المعلومات حولها سرية للغاية. أما عن موضوع الخصوصية، فأكدت الشركة أنها

﴿يقول بريان أكتون BRIAN ACTON مؤسس التطبيق في حديث لوكالة رويترز الإخبارية: «إنه يشعر بالشفقة بالفعل نحو خسائر الشركات المقدمة لخدمات الرسائل القصيرة SMS حول العالم﴾

WhatsApp


جان كوم


بريان أكتون

لا تطلب من المستخدمين أي تفاصيل سوى رقم الهاتف.

حصلت الشركة على تمويل كبير من شركة سيكويا كابيتال إحدى الشركات الرائدة في مشروع وادي السيليكون، التي استثمرت 8 ملايين دولار عام 2012 ، مما فرضت شركة WHATSAPP رسوم 0.99 دولار للتطبيق في الآيفون، مع ترك غيرها من المنصات مجانية. وكان مبدأ إنشاء التطبيق بعد ارتفاع عدد المستخدمين في الهاتف المحمول، ما جعل الواتس آب يُستخدم في مئة بلد تغطيه 750 شبكة من شبكات الهاتف المحمول، وهناك 5 مليارات شخص في العالم لديهم هاتف محمول.

ويمتلك WHATSAPP عدم خاصية الحاجة لكلمة مرور، كما في مواقع الشبكات الاجتماعية الأخرى، وكذلك غير معتمد على الإعلانات بعكس الفيسبوك، وجوجل وغيرهما من المواقع على شبكة الإنترنت. كذلك إضافة صديق أو أي شخص في دفتر الهاتف الخاص بك ولديه تطبيق الـ WHATSAPP ويمكن الاتصال معه مباشرة. ويمكن البقاء على اتصال على مدار الساعة، ما جعله ذا شعبية كبيرة ويُعدّ التطبيق رقم 1 في أمريكا والمملكة العربية السعودية، والسنغال، وسنغافورة، وجنوب إفريقيا، وأسبانيا، وسان كيت والسويد وسوازيلاند، والتطبيق الأعلى في البلدان الأوروبية الأخرى، و أفضل 10 تطبيقات للآيفون كأعلى إيرادات على الإطلاق في 47 بلداً، إلى جانب التطبيقات الأكثر تكلفة، وأصبح واحداً من التطبيقات الأكثر تحميلاً في مدة قصيرة من الزمن.

وشهدت إجمالي الرسائل المتداولة خلال تطبيق WHATSAPP قفزة هائلة خلال 4 شهور فقط، حيث تحركت من مليار إلى ملياري رسالة دفعة واحدة (أي 41666667 رسالة في الساعة، و 694444 رسالة في الدقيقة، و11574 رسالة في الثانية)، من تشرين الأول/ أكتوبر 2011 إلى شباط/فبراير 2012 .

في آب/ أغسطس 2012، ارتفع عدد الرسائل من ملياري رسالة ليصل إلى 10 مليارات رسالة يومياً منها 4 مليارات رسالة واردة و 6 مليارات رسالة صادرة.

والتطبيق، اعتمد على إرلانج ERLANG الذي لديه القدرة والطموح في النمو أكثر، ولديه كذلك القدرة للتقدم الكبير في نظام التراسل عبر الهاتف المتحرك في السوق العالمية، وبهذا الارتفاع في حجم الرسائل على الـ WHATSAPP فهو يشكل تحدياً خطيراً لشبكات الهاتف المحمول في جميع أنحاء العالم.

وفي 15 حزيران/يونيو 2013 أعلنت شركة الـ WHATSAPP على صفحتها في موقع تويتر أنه قامت حديثاً بمعالجة ما يعادل 27 مليار رسالة خلال 24 ساعة، وبذلك تكون خدمة الـ WHATSAPP قد حطمت الرقم القياسي السابق فيما يخص عدد الرسائل، الذي بلغ 18 مليار رسالة تمت معالجتها خلال 24 ساعة، وذلك يوم 31 كانون الأول/ديسمبر 2012 .

وبلغ عدد المستخدمين ابتداءً من 6 آب/ أغسطس 2013 ، على الـ WHATSAPP أكثر من 300 مليون مستخدم نشط، و 325 مليون صورة مشتركة كل يوم.

تعرض التطبيق إلى الكثير من محاولات القرصنة التي انتشرت أخبارها على الإنترنت، فحتى تاريخ 28 تشرين الثاني/نوفمبر 2012 ، تعرض التطبيق لهجوم من رسائل السبام وصلت للجميع تقول فيها: إن التطبيق يصبح مدفوعاً، ونفت الشركة ذلك جملةً وتفصيلاً.

ويقول بريان أكتون BRIAN ACTON مؤسس التطبيق في حديث لوكالة رويترز الإخبارية: «إنه يشعر بالشفقة بالفعل نحو خسائر الشركات المقدمة لخدمات الرسائل القصيرة SMS حول العالم، التي بلغت 13.9 مليار دولار في 2011 ، ومن المتوقع أن تقفز هذه الخسائر إلى الرقم 23 مليار دولار مرة واحدة خلال العام 2012 ، وهي خسائر تسببت فيها تطبيقات التراسل الفوري المجانية، وعلى رأسها بالطبع تطبيق WHATSAPP .

وأضاف أكتون: «نحن لا نقتل خدمات الرسائل القصيرة، فقط نحن نقدم حلولاً أفضل لتبادل البيانات».

وفي 18 نيسان/إبريل 2013 يقول المدير التنفيذي للشركة المطورة لتطبيق المحادثة الفورية والرسائل النصية (واتس آب) جان كوم: إن التطبيق المستقل أكبر حالياً من برنامج التواصل الاجتماعي (تويتر) حيث يوجد الآن للبرنامج أكثر من 200 مليون مستخدم بحسب وكالة الأنباء الألمانية.

وجاءت تصريحات كوم خلال مشاركته في مؤتمر تكنولوجي، حيث وعد بعدم وضع إعلانات في البرنامج.

ويقدر بعض الخبراء لحركة خدمات الرسائل الفورية عبر العالم، أن تطبيق WHATSAPP امتلك وحده 18 % من هذه الحركة خلال عام 2011 ، قفز من النسبة 3 % فقط وهو رقم عام 2010 .

وفي تايوان تم زوال رسائل SMS حيث كان الـ WHATSAPP هو السبب الرئيس لانخفاض 12 % من رسائل SMS في البلاد خلال عام 2011 .

وفي 19 شباط/فبراير 2014 أعلن موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك، عن استحواذه على تطبيق (واتس آب) في صفقة قدرت بمبلغ 19 مليار دولار أمريكي مقسمة بين مبلغ يدفع نقداً وبين أسهم في شركة فيس بوك.



# التفرد التكنولوجي Technological Singularity
## ورحلة الروبوتات نحو الروحانية !

**سعي الإنسان نحو الكمال لا ينتهي، فمنذ اكتشاف النار ومحاولاته العديدة في السيطرة على الطبيعة والتحكم بها عادت عليه بحسنات ولعنات لا يزال يعاني منها، وسيبقى إلى أن يفنى. أهم هذه المحاولات هي في تطوره التكنولوجي المتزايدٍ الذي شهد قفزات نوعية جداً خلال المئة سنة الماضية. قدمت العشر عقود هذه مفاهيمٍ جديدة كلياً على البشرية وحلولا لكثير من مشاكلاتها، ولعل الدافع الأساسي لها كان في أمر واحد فقط: أن نكون أفضل.**

تتلخص نظرية التفرد التكنولوجي بأنه خلال ربع قرن من الزمن، سيضاهي الذكاء غير البيولوجي مجال الذكاء البشري ودقته، وبعد ذلك سيتفوق عليه بسبب التسارع المستمر لتكنولوجيا المعلومات، وكذلك مقدرة الآلات على مشاركة معرفتها بشكل فوري، يلي هذا مباشرة قدرة الآلة على (الإدراك) أو (الوعي) والوصول لمستوى ذكاء مماثل لذكاء البشر ويتفوق عليه بأنه يتطور أسرع منه بكثير.

الآن، كان هذا تعريف النظرية بشكل عام التي لها الكثير من التفرعات غير المنتهية، لكن أكثر شخصية مرتبطة بهذا المفهوم الآن هي العالم راي كورزويل Ray Kurzweil، راي هو مبشر – إن صح التعبير – بمفهوم التفرد التكنولوجي أو Singularity ويحاول دائماً أن يجعل تنبؤاته مبنية على أساس علمي صلب (كما سنرى لاحقاً)، لراي مجموعة من الكتب والمحاضرات والأفلام وحتى المؤتمرات والجامعات التي تناقش هذا التفرد وتمهد له.

لكن عبارة (التفرد التكنولوجي) Technological Singularity لم تظهر بسبب راي، ظهرت هذه العبارة وأصبحت شعبية على يد كاتب الخيال العلمي فيرنور فينغ Vernor Vinge وكلمة (التفرد) Singularity حصراً التي تصف ظاهرة التطور العلمي المتسارع والتي ستوصل في النهاية إلى نتائج لا يمكن التنبؤ بها استخدمت بشكل علمي على يد عالم الفيزياء والرياضيات ستانيسلو اولام Stanislaw Ulam عام 1958.

يُعد هذا المفهوم من أكثرها إخافة للإنسان في الحقيقة، ظهر هذا في الكثير من الكتابات الأدبية الحديثة في الخيال العلمي أو في بعض الأفلام المشهورة جداً مثل The Matrix أو Terminator أو غيرها، المهم والمميز في الموضوع أننا إذا ما حاولنا التفكير بشكل تراكمي عن التطور التكنولوجي الحالي سنجد فعلاً أننا في الطريق والمسألة مسألة وقت أمام كم هائل من التطور في عالمي الذكاء الصنعي والنانوتكنولوجي.

لا يعني هذا أن الموضوع حتمي بالضرورة طبعاً، ولا يزال الموضوع في حقل الافتراضات التي – حتى ولو كانت علمية – لا تزال تبحث عن الكثير من الإجابات، الواقع الذي نعيشه طبعاً والتطور المهول يجعلنا نفترض أن الأمر قادم لا محالة والمسألة مسألة وقت لا أكثر.

**قانون مور:**

العصر الذي نعيشه يعده البعض عصر المعلومات، أو عصر السرعة، ويتميز عن العصر الصناعي باعتمادنا على الحواسيب التي تتطور وتزداد كفاءتها بسرعة هائلة جداً لأداء كثير من مهامنا اليومية واختصار الوقت، فمنذ أربعة إلى خمسة عقود انتقل حجم الحاسوب من مساحة تشغل غرفة كاملة إلى أن أصبح صغيراً جداً بحيث يمكن وضعه في الجيب، لكن العجيب أنه كلما صغر حجمه زادت قوته!

وقد لاحظ غوردن مور وهو أحد المؤسسين لشركة إنتل من خلال متابعته لتطور المعالجات، أنها تتطور بصورة سريعة ومنتظمة، بحيث يصبح من الممكن مضاعفة عدد الترانزستورات (التي تعمل على نقل الإشارات الكهربائية) في المعالج كل سنتين مما يعني زيادة قوته على معالجة البيانات مع المحافظة على ثبات التكلفة، حيث كان المعالج يحتوي على 240 ترانزستور في عام 1965 واليوم المعالج الواحد يحتوي على مليارات

الترانزستورات، وهي لا تزيد كل سنتين، بل تتضاعف.

ولإضافة المزيد من الترانزستورات نحتاج لأن نجعلها أصغر، ولإضافة المزيد نحتاج تصغرها مرة أخرى وهكذا، حتى تصل إلى حجم لا يمكننا الاستمرار بتصغيرها. وتحاول شركة إنتل الالتفاف على مشكلة صغر الحجم بعمل بعض التغييرات على طريقة تصنيع المعالج، بحيث تعمل الآن على تصنيع معالج ثلاثي الأبعاد لتستطيع إضافة كمية أكبر من الترانزستورات عليه.

ويتوقع أن يستمر قانون مور ساريا على الترانزستورات حتى عام 2020 ليتم الانتقال بعد ذلك الى ما يسمى بالحوسبة الضوئية التي تستخدم الفوتونات الضوئية (أصغر الجزيئات الضوئية) لتخزين ونقل البيانات.

هذا التطور السريع الذي يزداد في معدل سرعته كل مدة حتى إن البعض يرى أن قانون مور الآن يحدث كل 18 شهراً أو كل سنة وليس كل سنتين سيصل بنا في المستقبل إلى ما يمسى بالتفرد التكنولوجي الذي تنبأ به راي كرزويل المختص في المستقبل، بحيث ستصبح الحواسيب قادرة على معالجة المعلومات بقدرة العقل البشري حتى تصل في تطورها إلى مرحلة من الذكاء الاصطناعي تتفوق فيها على العقل البشري، وتقوم بتطوير وتحسين نفسها بنفسها، لما تملكه من ذكاء وقدرات تفوق البشر.

**راي كورزويل صاحب التوقعات المستحيلة**

في 17 كانون الأول/ ديسمبر 2012، تسلم إدارة قسم الهندسة في جوجل، وكان الناس يطلقون عليه «الوريث الشرعي لأديسون».

يعد راي كورزويل، واحداً من كبار المخترعين وعلماء المستقبل، وهو من توقع أنه بحلول عام 2033 ستكون هناك أجهزة كومبيوتر بحجم خلية الدم، وقال العالم إن النمو الهائل في قوة المعالجات التي تعد محور عمل أجهزة الكومبيوتر إلى جانب تقنية تناهي الحجم سوف يؤدي إلى ظهور أجهزة كومبيوتر متناهية الصغر في الحجم، ومن ثم ستتضاءل الحدود بين الخيال والواقع.

ويرى راي أن حجم الكومبيوتر سيتضاءل خلال السنوات الخمس والعشرين المقبلة، وستكون أصغر من حجمها في الوقت الراهن بمائة ألف مرة، وأن العلم قادر الآن على وضع جهاز كومبيوتر بحجم «حبة الفستق السوداني» داخل الدماغ وهو الأمر المتبع في معالجة الأشخاص المصابين بمرض الباركينسون ليقوم بوظيفة الأعصاب التي أدى المرض إلى تلفها.

ويعتقد راي أن مع إمكانية زيادة طاقة الكومبيوترات مليار ضعف على طاقتها في الوقت الحالي وتقليص الحجم مائة مرة عن الحجم في الوقت الراهن خلال السنوات الخمس والعشرين معناه الوصول إلى أجهزة كومبيوتر بحجم كرية الدم» قادرة على الدخول إلى داخل أجسامنا للمحافظة على صحتنا وحتى الوصول إلى الدماغ ومن ثم زيادة ذكاء الإنسان، أي أنه مع إنتاج مثل هذه الكومبيوترات سيكون بمقدورنا الوصول إلى الصورة الكاملة للعالم الافتراضي الموجودة داخل جملتنا العصبية.

هو ليس من أولئك الناس «ممن يكتفون بوصف المستقبل وحسب، بل هو أحد أولئك المجانين «ممن يحاولون دفع العالم كله لتحقيق ذلك الوصف كما يرونه.

**قانون العوائد المتسارعة**

خلال الثلاثين عاماً الماضية، كان راي مهتماً بطريقة تطور تكنولوجيا المعلومات ومعدلها في كل المجالات، ليس فقط بالمعنى الذي قد يتبادر للذهن أنه يقتصر على الإنترنت فحسب.

تنبؤات راي المستقبلية ليست تنبؤاً في الحقيقة، هي عبارة عن نتائج حصل عليها من نماذجه الرياضية، التي بناها بالاعتماد على هذه البيانات، والتي أظهرت حقيقة مهمة جداً: التطور التكنولوجي يأخذ منحى (أسي) وليس (خطي)، كما يعتقد غالبية الناس، هذا ما يجعلنا -في رأيه- نفشل في عمل تنبؤات دقيقة عن المستقبل، أو أن ننظر لتنبؤات راي أنها بعيدة جداً على أن تحدث.

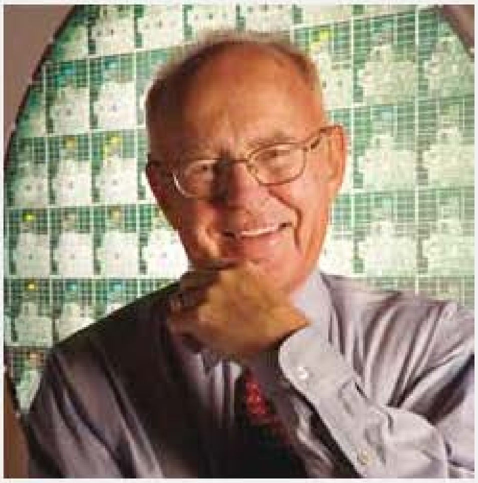
يبرر راي هذه الطبيعة الأسية للتطور التكنولوجي بقوله: إننا نستخدم آخر تكنولوجيا توصلنا إليها لتصنع بها التالية، وهكذا، ومن ثم يتسارع معدل النمو التكنولوجي كثيراً بعد خطوات قليلة، فيما يسميه (قانون العوائد المتسارعة).

يعطينا راي مثالاً على ذلك: انظر للعالم قبل 500 عام، كان من الممكن أن يمر قرنٌ كامل دون أن يحدث أي شيء يذكر، الآن نحن بالكاد نتابع ما يحدث في العالم خلال ستة أشهر!

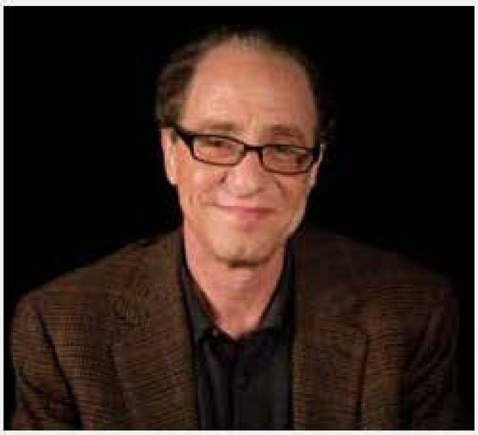
يذكر أن كورزيل هو من اخترع أجهزة التصفيد (scanner) ذات القاعدة المسطحة والأجهزة التي تحول النصوص إلى كلام مسموع، ويحاول العالم رسم صورة للمستقبل قائلاً: «إننا في العالم الافتراضي نقوم بأعمال افتراضية ونعلم ونتاجر لكن الواقع الافتراضي هو الواقع الحقيقي والألعاب الإلكترونية تقدم المثال عما ستكون الأوضاع مستقبلاً، وسنضطر إلى قضاء مزيد من الوقت في بيئات افتراضية.

ويضيف: «إن الروبوت الجديد الذي أطلق عليه اسم (نانو –روبوت) سيتم توجيهه بواسطة الكمبيوتر ويسبح بأعداد هائلة في الشرايين والأوردة على اختلاف أحجامها وأشكالها أو مواضعها، لإصلاح جميع أنواع المشكلات الصحية في العضلات أو العظام أو الشرايين..» حتى إن هذا الروبوت، كما يقول الحالم بالأبدية، سيكون قادراً على إصلاح أي خلل في الجسم من الرأس حتى أخمص القدمين مروراً بالشعر والأظفار.

والأول هو الحفاظ على لياقة الإنسان بما يكفي للوصول إلى الجسر الثاني وهو ثورة التكنولوجيا وعلوم الأحياء.. أما الجسر الثالث الذي يتعين على البشرية عبوره، فهو



غوردن مور



راي كورزويل

تصميم وتصنيع (النانو روبوت)، الذي لا يزيد حجمه على حجم كريّة دم واحدة، ويستطيع حين حقن المئات أو الآلاف منه في مجرى الدم أن يقضي نهائياً على الأمراض، ويعيد بناء أعضاء الجسم التي تحتاج إلى ترميم وضبط.

ويعرب كورزويل عن «ثقة» بأن عالم الغد، حيث بإمكان الروبوتات المتناهية الصغر كبح التلوث، وحيث يتجاوز الذكاء الاصطناعي الذكاء الإنساني الطبيعي، وبإمكان الإنسان أن «يعيش إلى الأبد من دون أن يشيخ»، محقق لا محالة.. وقبل منتصف القرن الحادي والعشرين، ويؤمن كورزويل (61 عاماً) بحق أنه باستخدام تقنيات متطورة والحمض النووي سيتمكن من استحضار والده فريدريك، الذي توفي جراء أزمة قلبية في العام 1970.

ويعد كورزويل أن «المسألة المهمة لا تكمن فقط في أن شيئاً مذهلاً سيحصل في العام 2045، بل «هناك أمر استثنائي يحصل الآن»، محاولاً شرح نظريته في كتابه (الفرادة): «في مرحلة مستقبلية عندما تكون سرعة التغير التكنولوجي فائقة وتأثيرها عميقاً جداً، ستكون الحياة الإنسانية قد تغيرت بطريقة لا عودة عنها». عندها سيكون التطور والتغير السريع قد بلغ علم الجينات وتكنولوجيا النانو والروبوتات، بطريقة تفوق أي خيال.

# خارج المكان ..


## ميسون أبو بكر



أديبة وشاعرة ومذيعة في التليفزيون السعودي

mysoonabubaker@yahoo.com

@Mayabubaker


عندما أعلنت جائزة نوبل للأدب غرة هذا الأسبوع وفاز بها الروائي الفرنسي باتريك موديانو. (وهي جائزة تنتظر إعلانها كل عام بشوق كبير وبخاصة فرعيها في السلام والأدب) كنا آملين أن تكافئ هذا العام الشاعر أدونيس أو حسب تطلعاتي الشخصية الروائية رجاء عالم، لكنها خيبت توقعاتنا كعرب وذهبت إلى مبدع فرنسي تكلم في أدبه عما عاناه اليهود من قمع وتشريد. وليس مجال حديثي في هذا المقال لأشكك في نزاهة الجائزة لكن سأتساءل قبل أن آخذك أيها القارئ خارج المكان إلى المستشرق العالمي العربي إدوارد سعيد. لماذا غيب درويش رحمه الله في حياته عن هذه الجائزة التي كان استحقها بجدارة قياسا بإبداعه الجوهري أو الشكلي وقضيته العادلة التي حملها إلى العالمين، حيثما صدح بها على منابر عالمية، وحيث ترجمت إلى لغات العالم؟ قياسًا ببعض من نالوها ولم يكونوا على مستوى كبير من الشهرة ألم يكن محمد الثبيتي أيضًا جديرا بها؟ هذا الشاعر البدوي الذي غنى للصحراء فسقته قهوتها ورقصت قصائده على أنغام ربابتها!

سأذهب إلى خارج المكان وهي السيرة الذاتية للمستشرق الفلسطيني الأمريكي إدوارد سعيد. التي كتبها عن مشواره في الحياة، وقد عاش في لغة وكتب بلغة أخرى مشبها نفسه بالروائي البولوني جوزف كونراد مع فارق بينهما أن الفجوة ما بين العربية والإنجليزية أكثر اتساعًا منها بين البولونية والإنكليزية، فقد كانت الكتابة لدى إدوارد فعل استذكار لطفولة عاشها بين القدس والقاهرة، وهي إلى ذلك فعل نسيان، أو هي عملية استبدال اللغة القديمة باللغة الجديدة حيث هاجر الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة، حاول جاهدًا كاتبنا تجسير الهوة من سوء التفاهم التي تفصل بين عالميه الاثنين، بيئته الأصلية وعالم تربيته لأنه آمن كمثقف أن عليه السعي وحده دون سواه في هذا الموضوع، مقاومًا نسيان ماضيه، ومتحديًا كل أولئك أيضًا الذين شككوا في أصوله الفلسطينية في عملية اغتيال رمزية لجماعة بصيغة فرد، نافيًا في الوقت نفسه الاعتقاد السائد الذي يقول: إن الانتماء العربي يقضي بإقامة علاقة متنافرة مع الغرب، متجاوزًا صعوبة الكتابة الصريحة عن الذات التي تعد نادرة في تراثنا، لكن إصابة إدوارد بمرض السرطان في 1994 هي من شجعته مع من حوله لكتابة مذكراته التي ترجمها المبدع فواز طرابلسي الذي خرق قاعدة أن المترجم وحيد دائمًا مع نصه، فقد زامن إدوارد وأصرّ أن يأخذ ذات المصطلحات العربية التي احتفظت بها ذاكرته.

في كتابه كان وفيًا لذكرياته وتجاربه ولم يكن من واجبه كما قال أن يكون لطيفًا، والذي يعترف أنه لم يخرج من شرنقة أبيه إلا بعد العشرين عامًا، فقد كان يتحكم بوقته دقيقة بدقيقة حتى لم يكد يترك له فسحات انفراج إلا نادرًا، وقد كانت لإدوارد سعيد نصيبًا من مكتبة الكتب والقرطاسية التي أدارها والده بالقاهرة، حيث كان قارئًا نهمًا ولديه سعة أفق وخيال عند القراءة.

لعل الظروف التي عاشها إدوارد منذ نعومة أظفاره مولودًا بالناصرة ثم متنقلاً بين القاهرة والقدس ثم مغادرًا الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة والمدة العصيبة التي مر بها العالم العربي حيث لم تكن الشعوب العربية تعي ما يحدث حولها من الصراعات العالمية ثم ضياع فلسطين في نهاية المطاف وأحداث إصابة إدوارد سعيد بالمرض الخبيث، كل هذا يجعل من رائعته «خارج المكان» إلى جهوده الأخرى في التحليلات السياسية والاستشراق كتب نعتز بها كعرب لأديب ومثقف قدم فكره للعالم في لغة عالمية كانت حرية أن تلج بإبداعه لنيل نوبل التي سبقها الموت إليه.

هنيئًا فرنسا التي تراقصت الأنوار في سمائها وانسابت بين أصابع الغيم فرحا بابنها الفائز بجائزة نوبل للأدب.

باتريك موديانو الذي ترجم أعماله «عشب الليالي» و«الأفق» إلى العربية المغربي المراكشي توفيق سخان.

**من آخر البحر**

لا أريد أن أغرب كالشمس.. أو أتلاشى كالشفق
رحمي تلك السماء التي لا أغرب منها أبدا
أنا من صلصالها
ونارها
حورية الأفق التي تتشكل من زغب الغيم
وقطرات الندى
ألوح من بعيد
للكائنات التي ترمقني بنظراتها
للشفق الذي يلون شفتي
للمطر الذي يقطر من عيني
ألوح للمراكب التي ضلت دربها
وللبحارة في كهف الليل اللجيّ
ثم عندما أمتلئ بي
أهطل كغيمة أتوحد مع المحيط